

إبراهيم أحمد عيسى

سَيِّدُ النِّارِ

❦ ثلاثية تلال الشمس ❦

رواية



روايات إبراهيم أحمد عيسى

الصادرة عن دار الكرمة

ابقَ حَيًّا (طبعة جديدة منقحة)

باري (طبعة جديدة منقحة)

رجال وآلهة

ذئب و حيد: الجزء الأول من ثلاثية تلال الشمس

بنو الأزرق: الجزء الثاني من ثلاثية تلال الشمس

سيد النار: الجزء الثالث من ثلاثية تلال الشمس

إبراهيم أحمد عيسى

سَيِّدُ النَّارِ

﴿ ثلاثية تلال الشمس ﴾

رواية





alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
x.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٥
حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٥
© إبراهيم أحمد عيسى ٢٠٢٥
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي. نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

هذا عمل أدبي خيالي. جميع الأسماء والشخصيات والأماكن والأحداث الواردة فيه هي من نسج خيال المؤلف، أو مستخدمة بشكل فني خيالي، ويجب عدم تفسيرها على أنها حقيقية. وأي تشابه مع أحداث أو أماكن أو منظمات فعلية أو أشخاص، أحياء أو أموات، فهو من قبيل المصادفة.

سيد النار: رواية / إبراهيم أحمد عيسى - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٥.

تدمك: 9789779603506

١- القصص العربية.

أ- العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٤٧٩٢ / ٢٠٢٥

تصميم الغلاف: أحمد فرج

المحتويات

١

غريب

٢

مؤمنون

٣

ثلاثهن

٤

قدر ونرد

٥

هدية

٦

نبل ورمح

٧

بعث

٨

حكيم العرش

٩

مقامر وبيجار وأسد عجوز

١٠

عين الشمس

١١

مخلب الجوقاب

١٢

وادي الفجر

١٣

ذئب و عُقاب

١٤

من أجل بياض

١٥

فوز أو موت

١٦

فجر جديد

إهداء

إلى بياض القرش.

أرض تلال الشمس





غيمة وحيدة في صفو السماء، سوداء مقبضة في نفوس من عاين طلعتها، وتطير منها أهل الريف والحضر، بطيئة الترحال، تنظر إليهم من عل وهم بين خائف وراج، عبرت فوق جنادل وشلالات النهر الكبير، وعند عين الشمس وتلاها تمهلت وتهادت، كأنها تتأمل المكان وحال ساكنيه. منذ مئات السنين والناس يقدمون إلى تلك البقعة طوعاً أو كرهاً، محملين بالأمان والأحلام والأفكار، وذكريات لم يمحها الشقاء. آلاف منهم، وعلى مر أجيال، قطفوا ثمار أرضها: عجين من ذهب وفضة ونحاس وبلور، والحفرة لا تنضب، تلين الصخور بجوفها نهاراً، وتجمد ليلاً لتحصدها أيدي العبيد والأسرى، الذين استيقظ أحدهم بفعل الحر والذباب، وأخذ قربة ماء ورفعها إلى فمه، بالكاد شرب وتوقف ينظر إلى السماء والغيمة الغريبة السوداء! تمنى لو تمطر لتبدد صهد الأجواء. أراق على رأسه وجسده ما تبقى من الماء، ودار عائداً إلى مضجع نومه بين كومة من الأجساد، يعلم أن في عين الشمس لا سبيل إلى الأمان والآمال. نام البائس التعب، ومضت الغيمة إلى حال سييلها؛ مرت على أطلال زاهرة الملوك الغابرين، وما تبقى من آثارها إلا ركام وتمائيل عملاقة مشوهة بالقار الأزرق، أطلال لم يعمرها أحد من الناس بأمر من جاد المعظم وأحفاده، تاركين أطلالها شاهدة على غضبة العقاب الكبير.

قبيل المغيب تجاوزت الغيمة سماء نهر التاج، ورآها أهل أزداد في الأفق البعيد، ودُهِش من رؤيتها أمير قلعة النار، وجل سكان حصنه. عابرة لا تأبه بحالهم، حملتها الريح إلى المرقد حيث يجتمع أكبر جيوش الأرض، وخرج الفرسان والعسكر من السرادقات والخيام، واقتفوا مسيرها، وشاهدوها تذوب في غمام الشمال الغربي، وهناك استشرف بحارة العنبرية قدوم عاصفة برؤيتها، وشرعوا في سحب مراكبهم وسفنهم إلى البر خشية إعصار، وابتلع الغيمة ما تبقى من غسق فوق جبل العقاب وعشه. هبط الظلام بسواده على قباب الزرقاء وأبراجها، وقصر ركن ساكنه إلى الراحة، إلا ثلة خدم يوقدون الثريات والشموع، وآخرون انتهوا لتوهم من تنظيف الأعمدة والأرضيات من آثار دماء.

حلّ السكون من بعد صراخ، وأغلقت الأبواب بين الأروقة، وخوت الممرات، والعرش الأزرق جاثم في الظلال، وتحتة بعدة طوابق في بطن الجبل ذي السرايب العميقة، تقبع الزنازين حيث عُلق إينال على جدار إحداها، مسجى يتمتم بهمهمات لا تتجاوز شفثيه المتورمتين. كُسر أنفه، وحُطمت أضلعه، والدماء تقطر من جراح أطرافه. تفننوا في تعذيبه، ولم يحصل السلطان على إجابة نافعة شافية، ولم يزد العذاب إينال إلا إيماناً وتثبيتاً. يعلم النبي أن خالقه لن يتركه، وفي أشد لحظات ألمه فاضت روحه باليقين، ودرع الخلود تلقى تحت قدميه كإشارة من القدير، وصبر على ما فعلوه به وهم يستجوبونه. لم ينكر ولا يفصح إلا بما يخفيهم، واستبسل في عناده منتشياً بالإيمان، وما ترسخ بداخل قلبه المطمئن على الرغم من آلامه. كل شيء رُتب بحكمة المجيد، وما أُرسِل إلى هنا إلا لسبب.

أخذ إينال يردد في نفسه كلمات لقنها له الحكيم نرغال، وتناثرت دماؤه على درع الخلود، التي تموج

سطحها بضوء أحمر براق، ودارت حول نفسها على الأرضية، مصدره أزيًا أفزع الحضور. انتفض سلطانهم على عرشه، واتسعت عيناه، وانكمش جارحه ذو العرف مذعورًا كدجاجة ترتقب الذبح، وضحك إينال بغبطة، ورددت جدران القاعة ضحكته. أخرسته لكلمات الجلال، وأفاق وهم يعلقونه في سلاسل إلى جدار محبسه. سمعهم يثرثرون عن سفينة مليئة بالغنائم والأسرى، وقد خرجوا آخذين المشعل تاركين إياه للظلمة وعقله. يؤمن بأن الرؤيا التي رآها حق، وأن منجاته وهو في طريقه إلى هنا قُبِلت، ويبقى أن يتم ما كُلف به. في قلبه ثقة ويقين أنه سينتصر، وما دماؤه على درع الخلود إلا لعنات على رؤوس بني الأزرق وسلطانهم.

يغفو ويفيق، ولا يدري كم لبث، ضياء النهار لا يعرف سبيلًا إلى زنزانه، ونالت منه رجة برد، لا يشعر بأطرافه، وروحه تقاوم صقيعًا يفتك به. يتلو صلوات وابتهالات حفظها عن الأعمى ذي الكرامات، الذي فارقه قبل تنفيذ خطتها، وذهب مغاضبًا. أخبره الأعمى من قبل بأنه يستطيع سماعه من أي مكان، وسيأتي بالمدد فور نداءه. فعلها إينال مرارًا، وهذه المرة تأخر في القدوم إليه! لعبت به الظنون، وطاف به اليأس، حتى نال منه خدر، وسقط في نوم عميق. أفاق على وخزة خوف تراود إيمانه، وسمع صوتًا مألوفًا يناديه:

- إياك والخوف يا إينال، لم يبق إلا النزول اليسير.

رُذت إليه روحه، وانتفض مبتهجًا، واختلجت مشاعره، وحُبِس دمع الفرح بجفونه المتورمة. أحس إينال بوجوده وإن لم يره، واستشعر جلال ودفء حضوره، وبُعثت في نفسه قشعريرة رهبة، وهو يرد هامسًا خاشعًا:

- كنت أعلم أنك لن تتركني.

- جئت فور سماع نداءك، ولم أخلف الموعد.

قال إينال بلهفة غلبت أوجاعه:

- درع الخلود المقدسة هنا، رأيتها وسالت عليها دمائي، تمنيت حملها بيدي، لكني سجين مكبل لا حيلة لي إلا الانصياع لمشيئة القدير.

- أدبت ما عليك بإخلاص يا إينال بن أنو، وكذلك فعل الحكماء، وإن خسرتنا ثلاثة منهم، يكفي أنهم منحونا بركات صلواتهم قبل أن يقضوا نحبتهم. الكل مُسبّر إلى مبتغانا المجيد.

قال إينال والغبطة لم تفارق نبرته:

- آمنت، واطمأن قلبي. اضطررنا إلى بدء الخطة من دونك، وفي الطريق إلى هنا راودتني رؤيا، وشاهدت سفن بدر بن حمدون ترسو في ميناء الساحل، والطبيب ذاكي يجهز القرابين في كهف الذاكرة، ومخمرة بنت جبران في عين الشمس، كما أمرت. جميعهم ينتظرون لحظة تضحياتهم واستحقاقهم للخلود، وكذلك رأيتك تخيم مع رجل على حافة نهر.

- رؤياك حق يا إينال.

- أظن أننا في طريق النصر نسير، فالعدل واجب، والملك زائل، والمجيد باقٍ ببهاء ضيائه، وهو الذي جاء بي إلى هنا، لإقامة عدالته، وقطع دابر بني الأزرق وزمرتهم عن الدنيا. هبًا حررني، ولترين فعلني بهم.

لم يتلقَ إجابة، وطال الصمت، فنادى في الخواء:

- أيها الحكيم نرغال!

- ما زلت هنا.

- ما بك يا روح الخالق؟!

ردٌّ نرغال بنبرة لائمة يغلفها الغضب:

- استحضرتني وأنا على وشك الولوح إلى جسد مُجتبى، كان فرصتي الأخيرة بعد أن استهلكك ما تبقى من قوة في جسد الأعمى البالي، ورحلتي كانت طويلة من الصقارة حتى هنا. حسبت أنك على وشك إتمام ما عليك، أو أنك حصلت على درع الخلود. خاب ظني بك يا إينال، وهبات أرواح الحكماء الثلاثة بالكاد جعلتني أقطع المسافة إليك. قواي تخور، ولا أستطيع تحريك حبة رمل. كل شيء كان مرهوناً بنصائح الحكماء والمؤمنين. من ذا الذي يهني روحه ودماؤه مقابل الخلود؟! لن يفعلها إلا مؤمن حقيقي، يؤمن بأننا على مقربة من تحقيق حلمنا، الذي صار أقرب من أي وقت مضى.

آثر إينال الصمت، مشتتاً بين الحقيقة والهديان. حاول انتشار روحه من بئر الخوف، لكن الشكوك كانت تجذبه إلى قاع أظلم مما يحيط به. لم يُعجز روح الخالق شيء من قبل، والآن يخبره بأن قواه تخور! أليس هو نرغال ذا الهبات العظيمة، وسيط التقدير ولسانه، الحكيم السابع الذي علّمه نصوص الديانة ومنتها في صومعته بكهف الذاكرة، وهناك رأى معجزات تعجز العقول عن تصديقها؟! شاهده وهو يُخضع المخلوقات؛ يأمر الدواب فتنصاع، ويرى القادمين قبل مجيئهم، يحل في هيئات عدة، ويستحضر الغيم والثمر في غير موعديهما، يثير العواصف، ويذهب ويجيء مع الريح والسحب، ويستشرف الطالع وما سيكون. وكان كلما التقاه منحه من فيض نعمه وعلمه. بحكمته اختار حكماءه منتشلاً أرواحهم من الضلال والضياع، وبأمر الخالق وهبهم راحة النفس وحب الفداء والتضحية، وفجأة رحل وتركهم قبل أيام من تنفيذ مخططهم الذي أعدوه على مدى سنوات. فقدَ الإيمان بما يستطيعون فعله، ونعتم بالحمقى والأغبياء وغير الجديرين بالنعم والهبات، وكان ضعيفاً حين رحل عن أزداد، والآن يقول إنه فقدَ قواه! فهل جاء حقاً وحدثه أم أن تلك أوهام القهر والظلام؟!

- نرغال، هل ما زلت هنا؟!

رمى الضحى بعباءته الأرجوانية على وجه السماء، وتلاعبت ريح الصبح الباردة بالأغصان والرايات بعد ليلة عاصفة. استنهض الأسرى المكومون في العراء بغلظة، واصطفوا ناعسين يترقبون مصيراً مجهولاً. اقتيدوا إلى بوابات المدينة، وعبروا الدروب والطرقات الصاعدة إلى عش العقاب، والأعين تبوح بدواخل النفوس، ينظرون إلى أبراجها وقبابها الزرقاء برهبة، لقد عاشوا جل أعمارهم في غياهب غابة الظلال، واليوم يشهدون شروقاً بديعاً يثير الأحزان، واستشعرت سيرين في نفسها أملاً يقاوم مرارة اليأس، وقرص الشمس البرتقالي الباهت يترقرق مع الدمع في عينيها. فرض عليها مصير قاسٍ في عالم ظالم لم تحلم به يوماً، نسيت أن تحصي الأيام منذ خروجهم من كفر البردقوش. كان الأسى والحزن أكبر مما تطيق، تشتاق إلى كتيبي، وتتمنى أن يكون بخير، ويسعى لأجلها. لازمت الصمت، والموت يتخطف من أهلها ما شاء. افترقت عن بعض رفاق أسرها في ميناء البوغاز، ولم يبقَ معها إلا ثنائي نسوة وعشرون رجلاً وصبي. حاولت أن تكون لهم عوناً، كما كانت تفعل كونواً، أخت زوجها القوية، التي لا تعلم مصيرها، لكن من ذا الذي ينجو من لدغة البرغوث؟!

حجب القميء بطلته كل جميل، بغيض يفيض دناءة وخبثاً، هو الذي أحرق مملكة أبيها ومثل بأخيها أمام عينيها، وشاهدت غدره بياض القرش، وفي الطريق إلى مدينة البحر انقلب على سيدته، وقتل مساعدتها الأسود بدم بارد، وألقاه تحت قدميها. كان البرغوث مهاباً وموقراً بين رجاله وحاشيته، لكن هنا وبين جدران هذه المدينة لا سلطة له، يقف متأففاً بين محاربيه ينتظر إذن الحرس المدرع، رجال طوال القامة يرتدون دروعاً فولاذية، وعلى أكتافهم تتدلى عباة قمرية، ويعتمرون خوذات فريدة كهيئة رؤوس طير. لم يتركوا شخصاً إلا وفتشوه، حتى البرغوث أخذوا منه حزام غمده وأسلحته، وعاملوه بشيء من كبر، وكذلك فعلوا مع رجاله.

راقبهم سعد برود بينما يقف في أهبى حلة؛ كنزة رمادية داكنة مطعمة بخيوط فضية، أنيقة تليق برجل منتصر، وتتدلى عن كتفه اليسرى حرملة من ذات الألوان، نال منه الضجر ومل الانتظار، لا يفصله عن دخول البهو الملكي إلا بضع خطوات. لم تكن أحلامه يوماً أجمل من هذا الواقع، تفادى خوض حوار مع الثرثار قاطع ذي اليد الواحدة، تركه وذهب يتأمل شروق الشمس من هذا العلو الشاهق. لم يسبق له أن شاهد مشهداً كهذا، وهو الذي تربى في حارات ضيقة بالكاد يزورها ضوء النهار، ومن يصدق أن وضيع المولد يقف الآن داخل أقدس حصون بني الأزرق، ومن تحته تمتد عاصمتهم المنيعه، وأسوارها المحاطة بحقول زعفران وأقحوان بنفسجي، مروج شاسعة تمسح الريح على بتلاتها، حاملة شذا عبير يعترى نفسه براحة وسكينته لم يشعر بهما من قبل. رمى ببصره إلى مرتفعات الصقور التي تحد أفق الشمال، قممها الثلجية تضوي ببريق مع ضوء الإشراق، سمع عن تلك الأنحاء، ولم يخيل إليه أن يراها رأي العين! بقي شاردًا حتى فوجئ بصوت روزاليندا الناعم يقطع سكون تأمله:

- سلبت شمس الصبيحة لُبك!

مال برأسه ملتفتاً إليها:

- أنت شمسي التي أحيت روعي بإشراقها، ووحديك من تهيمين على عقلي وقلبي.

تلجم لسانها خجلاً، عجزت عن تصديق ما سمعت، أهذا سعد حقاً؟! يغازلها، وبالأمس القريب أحضر لها ثوباً أخضر مطرزاً بخيوط ذهبية يبرز مفاتنها، وأغدق عليها بحلي من الذهب المطعم بيشب براق يناسب جمالها الناري. كادت تقول شيئاً، لكنه سبقها:

- روزا، هل كنتِ تحلمين يوماً بالقدوم إلى هنا؟

قالت ضاحكة:

- تنبأ النحاس الذي باعني إلى السيدة رقية بهذا. قال إنني سأكون ذات يوم في قصر السلطان، وربما فراشه!

تلعثمت، وتورد خداهما، فابتسم برود قائلاً:

- من يدري ما تحمله الأيام!

فأجأها رده وأوجعها، وهامت نفسها في دروب الكدر، ألهذا أهدي إليها الثوب والحلي؟! هل ينوي إهداءها إلى سلطانه حقاً؟! ليته يفصح عما بداخله، وهو كما عهدته قليل الكلام، لا ينطق إلا بما يريد وقتما يريد. حاولت مراراً أن تجعله يسترسل معها وفشلت، أرادت أن يفضي إليها بما يثقل روحه، وما يدبر لخطواتها القادمة، ولا يعرف قلب سعد معنى للروح، حتى همهمات الحُمى لم يذكر فيها اسمها، وهي التي سهرت على تطبيبه وعلاجه، وأعدت عليه بالمحبة، ووهبتة كيائها، لينهل من شهد جمالها متى أراد. تحملت قسوته وخشونته في معاشرتها، تحبه، وتفخر بكونها المرأة الوحيدة التي يشتهيها وينالها كيفما شاء. يكفيها أنها بجواره وفي ظل حماه، فهو منقذها وفارسها الذي لا يملأ عينها سواه من الرجال، لا يعينها إن كان وحشاً غادراً لا عزيز له ولا غالي، كما ادعت اللثيمة رقية قبل أن يرمي بها إلى الصحراء. إنه يأخذ الحياة على محمل الجد، ويعلم أن الزمن لا يرحم غافلاً، وإن لم يكن قاتلاً فسيضحى قتيلاً، وما قسوته وجبروته سوى وجه للعالم الظالم القاسي، الذي يحتاج إلى أمثاله، محارب شديد البأس يفعل ما يجب عليه ليحيا، ويرتقي إلى المكانة التي يستحقها. طالعتة وتأملته وهو شارد في الأفق، يستشعر الرضا مع نسيم ملاً نفسه بزهو وفخر، ينظر إلى السماء التي يخلق فيها طير مهيب يدور باسطاً جناحيه.

في زمن ليس ببعيد كان يتسكع في البوغاز، يأكل ثمار برقوق نالها بخفة يده من عربة أحد الباعة، ويجلس على حافة الرصيف البحري، يشاهد الفلك المبحرة من الميناء وإليه، محملة بصنوف البضائع، وسرب نوارس لا يغادر السماء، يتناوب على سرقة أسماك صيادين بالكاد رست مراكبهم، أما هذا الجراح العظيم في السماء فليس كمثله الطيور السارقة، إنه ينساب بنعومة وبهاء مع الهواء. يعلم سعد قدره، ويبت فيه المزيد من الرغبة في العلو، ويرجو أن يكون له مقام بين ساكني القصر وحاشيته، ويأمل أن يتقبله السلطان بين صفوف قادته، وربما يقطع نظير انتصاراته أراضي وحقولاً تحيط بقصر ريفي هادئ، أو قلعة صغيرة بعيدة عن البحر وضجيج نوارسه. جاء إلى هنا محملاً بالأمان، ولن يرحل من دون تحقيقها، فكل شيء في هذه الحياة قابل للتحقيق، ووحده السعي يمنح صاحبه ما يريد، ليحلق مثل ذلك الطائر العظيم.

في غياهب العتمة قبع إينال يقاسي الآلام، جائع عطش يقاوم الإعياء، ليله طويل، ولا يواسيه سوى وجود سمير لا يستطيع حل وثاقه. جال بخاطره زوجته وأولاده، ورآهم بعين روحه وهم يكبرون يوماً بعد يوم، وتحسر على فراقهم، وتذكر يوم ودّعهم ليذهبوا رفقة الطبيب ذاك. سألته زوجته:

- فراق بلا عودة؟

أجابه وهو يربت على رأس ولده الأكبر:

- بل لقاء من بعد نصر يا أم الأولاد، جميعنا في معية الخالق وهو القادر على جمعنا من جديد حيث أراد.

- أثق بك يا إينال، وأعلم أنك لن تضيعنا.

- عليكم الذهاب الآن، كلما طال الوداع زاد الجزع، وتلاعب الخوف بالأفئدة والألباب، اعلمي يا مهجة القلب أن ما أفعله لأجلكم وللعالمين. العدل واجب، وتحقيقه يقع على عاتقي. ستكونون بأمان في صحبة الطبيب. اعتنوا بأمكم يا أولادي ولا ترهقوها، ولا تنسوا ما علمتكم إياه.

احتضن الأولاد، وقبّل رأس أمهم الباكية. يعز عليه الفراق، لكن كل شيء هين فداء العقيدة، ما يرجو إلا العدل، وألا يُظلم أحد على هذه الأرض، أن يجد الناس ما يستحقون جزاء أفعالهم، وأن تسود المحبة والخير كل الخلائق. أشفق على العبيد والمكالمين، وساعد عابري السبيل والمسافرين، وأعاد إحياء قيم نبيلة في النفوس لعلها تصلح، أراد لهم عالماً جميلاً سمته الرحمة والحب، وبذل كل ما في وسعه لإرشادهم إلى الخلاص والخلود. حتى جاءه أمر خالقه بالخروج على بني الأزرق والإطاحة بحكمدار أزداد، وحشد رجاله لمجاهة السلطان المغتر بنفوذه وقوته، وما رُتّب بحذر هُدم بحنكة ودهاء المدعو «جاد الصغير»، والآن باتت الشكوك تساوره فيما يقدر الحكيم نرغال على فعله، يظن أن قوتيهما سلبتا رغباً عنهما من قبل الخالق، وسأل هل أخطأت حين استدعيته إلى هنا؟

- لم تخطئ يا إينال، ولكن الحقيقة هي أنني لم أستطع اختيار مؤمنين حقيقيين لأعتمد عليهم. لم تبذل ما في وسعك، ولم تُثم بدورك الذي كلفت به، الإيمان يوجب التضحية.

بهت حين سمع صوت الحكيم الذي يعرف ما في نفسه، وردّ بخفوت:

- بل فعلت، منذ أن التقيتُك وأنا أطيع وأنفذ كل ما تقوله، وأثق بك، وأنت الأعلم مني ببواطن الأمور. قمت بكل شيء كما خططت. - قُدر لك أن تبقى في أزداد، وكان عليك أن تغرق المدينة وتفتنى معها. هذا ما اقتضته الخطة، وما رتبنا له.

- أعلم، ولكنك رحلت وتركتنا يوم مات سهيل زوج مخمرية، قلت إنك ذاهب للبحث عن جسد جديد، ولم تُعد، ولا أرسلت إليّ رؤيا ترشدني، وثبتت قلوب المؤمنين من الحكماء والتابعين. كل ما فعلته أنني اتبعت ما أوحيت إليّ، وليس ذنبي أن فشلت مخططاتنا، لم يأت السلطان غازي كما أخبرتنا، ولم يهلك غرقاً كما جزمت وادعيت. والآن أنا أسير أسفل قصره! سبق أن أخبرتني بأن الخالق وضع مصائرنا بالفعل، وأن كل شيء يتحقق بمراده ومشيئته.

ردّ نرغال من عمق الظلمة:

- الإيمان الصادق يصنع ما نحن عليه، يختبر صبرنا وجلدنا في مواجهة الصعاب، يمحو عنا اليأس حين تظلم الحياة، ويمدنا بالأمل حين تنقطع السبل، والنفس في ميزان الهوى تتأرجح بين الخطأ والصواب، وما أراه الآن أمامي هو إينال الخائف، ولا ألومك، هكذا أنت وبنو جنسك منذ أن عهدتكم. حتى الذين اخترتهم ليقوموا بالواجب المقدس، كل واحد منهم راح يفعل ما يريد، وليس كما نصحتكم وأخبرتكم.

- لا تلمهم، فعلوا ما تحتم عليهم القيام به.

- بل أفعال، لأنكم تخليتكم عن جوهر الإيمان الحقيقي، وذهبتم إلى ما تريد أهوأؤكم. كان من الخطأ أن أمنحكم جزءاً من قواي. وأنا الذي ظننت أنكم مؤمنون حقاً!

ردّ إينال بحقنق:

- آمنت بالعدل، وأن يحظى المظلومون بالقصاص من ظالمهم، وأن ينعموا بخلود يمحو شقاء حياتهم، وأومن بأن الخالق أرسلني إلى هنا بتدبيره لأحصل على الدرع، التي يبدو أنك لم تكن تعلم أنها هنا.

رجت ضحكات نرغال المرعبة ظلمة المكان، وقال بنبرة كالفحيح:

- مسكين أنت يا إينال، ككل أهل هذه الأرض، ترنو أرواحكم إلى عالم مثالي هادئ لا جوع فيه ولا خوف، تتعلقون بالأمان، وتحلمون بما يعرض نقصانكم، وتخوضون الحياة بضراوة تليق بمخلوقات فانية، تحقدون وتحسدون وتسرقون، تظلمون وتتقاتلون، وتبحثون عن العدل في عالم متوحش لا يرحم ضعفكم، وترجون من قوى خفية ما لا تقوون على فعله. أندري! لم أحب أن يدور بيننا هذا الحديث قط، لكن أخبرني، ما فائدتك وأنت معلق هنا على الجدار؟! وجب عليك أن تضحى بروحك ودمائك في سبيل روح الخالق، ولم تفعل. بل إن جبران وسياس وحتى مرجان كانوا أكثر إيماناً منك. انتظرت تضحيتك، ولم أحصل إلا على استجدائك بأن أتى وأخلصك.

- يمكنني أن أصير المجتبي، وأن تحل بجسدي.

- أنت سجين بائس ينتظر الموت جبنًا، والحقيقة أنني لم أقدم لأجلك، بل للحصول على درعي الغالية.

طال صمت إينال بعد أن شعر بطعنة خذلان، وردَّ بقهر وعناد وهو يجز على أسنانه:

- لو تستطيع حقًا لفعلت هذا فور قدومك، لكنك بحاجة إلى...

- من قال هذا، وإن خارت قواي أستطيع فعل الكثير، ولأجلي يضحى الحكماء. أنصت يا إينال لنفسك، وستجد حقيقتك فيما سأقصه عليك الآن. تذكر ما كنت عليه قبل أن التقيك، وحاول أن تعي أنك لم تكن يومًا محور الأحداث.

يد باردة غاصت بصدرة، وراحت تعتصر قلبه، ونرغال يلقي عليه ما يفتت إيمانه وينسف رجاءه. جرده من كل شيء، وضاق عليه الظلام، ولا يقدر أن يصم أذنيه، رماه بسهام من كلمات عُرس في روحه، ولا درع تقيه الرشقات. حاول درء الأكاذيب التي تتلى عليه، وتمنى لو أنه يهذي حقًا، ونفسه تسأله هل كنت مخطئًا منذ البداية يا إينال، وأن كل ما آمنت به ليس سوى سراب، وهم اختلقه كيان سمم عقله واستغله لتحقيق غايات الظلام والخراب؟! لكنه رأى معجزات، ونال الكثير من الهبات، وآمن به الناس ودعموه وأحبوه، تلمسوا حكمته الصافية، وهو النبي الذي اختار لشريعته حكماء، وصنع جيشًا من الأتباع، تلك حقيقته، أم كان ما عايشه محض خيال، أم أنه داخل هذا السجن منذ سنوات!؟

والواقع قاسٍ على مَنْ عاش عمره ينتظر الخلاص، نفى عقله كل قول مما يقال، هرب إلى جُب الذكريات، حيث كان إينال النجار الذي لا يختلط بالناس، فقيرًا معافي يملك قوت يومه، وكل شيء تبدل يوم انتدب للذهاب إلى عين الشمس. رحلة عمل أصابه فيها الحزن على ما رأى من ظلم، عاين تجبر بني الأزرق وإمعانهم في إذلال الناس، تمنى لو أنه يستطيع تبديل هذا العالم، وليس لعامل السد أن يغير الأقدار، حتى أنقذه القدير من البئر، وأرسله إلى كهف الذاكرة، حيث التقى معلمه نرغال، ضرير العين بصير القلب، الذي علّمه أسس العقيدة ومفهومها. كان وحيه ومرشده، ومنه استقى متن الديانة، حدثه عن الأختيار والأشرار وقبس من تاريخ بني شمس والأقوام الغابرة، وبث في روحه الأمل بإقامة العدل، وطمس الظلم والفساد، وتحرير الناس من براثن العتاة الغاشمين، وعلمه كيف يقرأ لغة الخالق، ووعده بالنصر والخلود.

وبعدها عاد إينال إلى أزداد نبيًا مؤمنًا حقيقيًا، يملك القدرة والقوة على مجابهة جبروت حكمدار المدينة، واستطاع أن يشفي المرضى، ويهدئ من روع الخائفين، وأن ينشر الدين وتعاليمه بين السدين، وتبعه جمع غفير ممن يرجون العدل وحياء أفضل. آمن به عبيد وسادة، وتحولت رسالته إلى رغبة روح الخالق في الإطاحة بملك بني الأزرق، وتمهيد الأرض لمن يرثها ويحكمها وفق إرادة الخالق، ولا يدري كيف يكذب الآن عليه، هل يحاول الانقلاب طامعًا في الدرع لنفسه، هذا هو الأمر ولا سبيل لتفسير آخر. نال القهر من إينال وهو لا يستطيع فعل شيء! يشتهي الموت، والإنكار سلاحه، والصبر ملاذه، يلوم نفسه تارة، ويعود إلى رشده تارة أخرى، يناشد خالقه أن يخرج صوت نرغال من رأسه، لكن من دون جدوى. يتساءل: هل ما آمن به منذ البداية محض وهم؟ وهل هو حقًا نبي أم أنه مجنون دفع زوجته وأولاده وقومه إلى الهلاك؟

في حديقة القصر، وبجوار تمثال جاد المعظم، وقف جان الصقار ينظر إلى صفو السماء من بعد ليلة غائمة،

لم تخلُ من هزيم رعد أرق منام أهل القصر والمدينة، وذو العرف غائب منذ المساء، وليست عادته أن يبيت خارج عشه. أطلق صفيراً تلو صفيراً، ولا أثر للعُقاب الملكي! لن ينتظره طويلاً، وتحرك ليأخذ مكانه في البلاط قبل قدوم السلطان. دخل البهو من دون طيره، تُرى أين ذهب؟! تبددت الأسئلة في رأسه وهو يتذكر ما وقع بالأمس على تلك الأرضية، هنا نُكِّل بالمتنرد إينال؛ خلعوا أظافره، وقطعوا أطراف أنامله بعد سلعها من الجلد، وكل ما فعله هو الصراخ والهذي بكلمات غير مفهومة، ما زال صداها يسكن زوايا القاعة، ولعله ميت الآن في جوف السراييب. لم يبقَ أثر من دمائه على الأرضية، وأبت أن تُمحي من على الدرع ذات النقوش الغريبة والوميض. فعل رجفت منه قلوب الجميع، ولا يفارق ذهنه كيف كانت حال السلطان حينها. أيُّ لعنة ألقاها ذلك المهرطق الذي شغل عقولهم بصنيعه!؟

رأى المبجل قيدار يدخل القاعة، ووراءه حشد من الوزراء والنبلاء. حياهم مطأطئ الرأس، وتنحى جانباً إلى موضعه على يسار العرش، راجياً أن يأتي ذو العرف قبل قدوم السلطان، فما الجدوى من راع من دون طير؟! لكل هؤلاء سبب وجيه لوجودهم هنا، أما هو فلا شيء من دون العُقاب الملكي، وانفرج ثغره لما رأى ظلاً عظيماً يهبط إلى إحدى نوافذ البهو، لم يخذله وجاء في الموعد، مد ذراعه وشد جسده ليحيط الطائر الضخم على قفازه، والتقم قطعة اللحم. ربت على رأسه، ونفض العُقاب ريشه، وقفز إلى مسند العرش، ودوت الأبواق، وبعدها صوت الحُجاب، يعلنون قدوم السلطان الأشرف غازي.

مشدود القامة عليه قميص تدريب كتاني خفيف، هائش الشعر واللحية، متعرق على غير عادته. انحنوا جميعاً وهو يخطو بينهم إلى كرسيه. جلس فاستوت الأجساد، وخلع قفازيه، وألقاهما إلى جان الواقف بقربه، ورمى الحشد أمامه بنظرة ملل وهو يحدثهم:

- أرى النعاس يملك الجفون، ويبدو أنني الوحيد الذي لم يحط بلبلة هائلة. أسأل نفسي كلما رأيت وجوهكم، ما نفعكم؟! إن كان لا يوجد بينكم من يستطيع تفسير ما صار بالأمس، لم تزعجونني بحضوركم؟! دماء ذلك الوضع جعلت القرص المسحور يتوهج أمام أعينكم، وكل ما فعلتموه هو الدهشة والذهاب إلى مضاجعكم كالبهائم. هيّا ليأت كل منكم بما عنده.

بدا عليه الملل وهو ينصت لتقاريرهم تباعاً، شرد مستذكراً أمر إينال المجنون، تحمّل الرجل ويلات العذاب، ولم يفصح عن أي شيء سوى الهرطقة، لماذا عليه أن يقلق الآن وهو السلطان المفدى، وأسفل قدميه في سراييب الجبل يقبع مدعي النبوة، الذي أرق ليلته، وقضاها يحاول فهم رموز القرص العجيب. يشعر بشيء يسري داخل ذلك المعدن كلما حمله، وانتهى به المطاف في ساحة التدريب، انهال عليه ضرباً بفأسه وسيفه، وأضرم فيه النيران، أراد رؤية الوميض السحري مرة أخرى، حتى إنه جرح كفه، وقطر دماءه عليه ولم يتوهج ذلك الشيء. على كل، سيقطع رأس ذلك الساحر الضال، ويزين به مدخل المدينة، وما هي إلا أيام ويخرج على رأس جيش لم تر الأرض مثله، ليطارد أتباع ذلك المخبول ويفنيهم. لقد اكتفى من الكواييس ورتابة الحياة، سيذهب إلى الساحل وغابة الظلال، ويواقع ألف امرأة من ألف مدينة وقرية، تاركاً أثره فيهن لعل إحداهن تلد له وريثاً حقيقياً، ولدًا من نسله يحمل دماءه، ويحفظ مُلك أسلافه. وحتى ذلك الحين عليه أن يظهر للجميع حكمته، وكذلك قسوة صنيعه، لتُروى عنه الملاحم، وتُنشد في سيرته الأغاني.

طال صمته، حتى أنهى آخر الوزراء حديثه عن وباء مميت أصاب قطعان الرنة والرعاة في مرتفعات الصقور. مسح السلطان بظهر يده ريش عُقابه، وقال محدثاً قياداً بملل:

- أين الفرسان العائدون من كفر البردقوش؟

- سيدي، ينتظرون الإذن بالدخول.

لم يمضِ كثير من الوقت حتى برز على عتبة القاعة رجلاً يتوسطان الحرس الملكي: صفان يحيطان بزمرة مكبلة بسلاسل وحبال. اعتدل غازي في جلسته، وتفحص الفارسين، أحدهما طويل القامة مقطوع اليد مضمدم المعصم، يحمل راية العُقاب ويمشي بثبات، والآخر قصير نحيل حاذق الملامح بلحية خفيفة، وله عينان ماكرتان، وتتبع خطاه صهباء فاتنة، قوامها مجدول في ثوب أخضر، برية منمشة وسط كومة من الوجوه المهزقة العابسة. أعين خائفة واجمة، وأجساد ضعيفة بعظام بارزة، وبينهم تقف جميلة أخرى، غجرية هادئة تراقبه من بين الرؤوس والأكتاف، وترفع رأسها بما تبقى لديها من عزة على الرغم من شقاء هيئتها. توقف الجمع مع إشارة قائد الحرس، وركع حامل الراية، وكذلك فعل الآخر، وأجبر الأسرى على السجود، والمبجل قياداً يقول بصوته المتين:

- سلطاننا الأشرف، أقدم لك الفارس قاطع بن سليم، أحد قادة فرق الرماة وحملة البنادق...

قاطعه غازي بفضافة:

- أرى أن يده هي المقطوعة، ولا أعلم إن كان لسانه كذلك.

أُخرج قياداً، وآثر الصمت. نزل جان الصقار درجتي السلم، وتلقف الراية من الفارس الخافض رأسه في خضوع وامثال. قال الفارس بنبرة رصينة:

- سيدي، أنا قاطع بن سليم، قائد فرقة الرماة ضمن جيش المبجل قاسم أصلان. كُلفت بتأمين كفر البردقوش، وتعزيز حامية جسر خندق السراب، وأقسم إنني فعلت ما بوسعني رفقة هذا الرجل الشجاع، القائمقام سعد... ابن...

تلعثم، ووجدها سعد فرصة للتحدث إلى السلطان. رفع رأسه واعتدل، وعيناه مثبتتان على العُقاب:

- خادمك المخلص، سعد بن مرزوق البوغازي، قائمقام كفر البردقوش، وذهبت من قبل إلى بحر الرمال رفقة الأمير راجي صائد الذئاب، وأنا من انتقمتم لمقتله من بعد ذلك، وأحرق غابة الطلال، بعد أن ركبت إلى جانب الأمير سليمان ناب، وتحت إمرة القائد العظيم قاسم أصلان.

- تحمل أخبارًا عنهما إذن.

بأسى استطرد سعد:

- قُتل الأمير سليمان ناب بوحشية على أيدي برابرة الغابة، والقائد قاسم أصلان اتجه إلى مملكة الساحل عبر طريق الوادي القديم ببقية الجيش، أما هؤلاء فهم رجالي وكل من تبقى من معركة كفر البردقوش. صناديد لم يتزحزحوا حين باغتتنا قوات العدو، وعانينا تحت الحصار وخيانة حكمدار الكفر شاهين بن عز الدين، الذي انضم وعشيرته إلى الأعداء، رافعاً راية يقول إنها لأسلافه بني شمس، ولكنني نجحت في إنزال الهزيمة بهم، ودحروا خائفين إلى جهورهم وراء بحر الرمال. وقدمت إلى هنا حاملاً شرف رايتنا، وما تبقى من غنائم وسبايا ملك جلالتك. وكذلك سيف سليمان ناب وعباءته.

أشار إلى رجاله، فتحرك عشرة منهم يحملون صناديق من خشب معشق بالعاج، وفتحت الكنوز بين يدي السلطان الذي لم يُبد أي ردة فعل، وسعد يتابع:

- إن برابرة غابة الطلال، لن يجرؤوا على عبور خندق السراب أو خوض بحر الرمال مرة أخرى، بعد أن قضينا على جيشهم.

تدخل قاطع بن سليم مؤكداً صدق صاحبه:

- سيدي السلطان، إن القائمقام سعد رجل يُعتمد عليه، ضحى بالكثير لأجل عزة مملكتنا، وبدهاء استطاع أن يقلب الهزيمة إلى نصر محقق. هو من قتل زعيمهم بياض القرش المدعو بالذئب، وأيضاً تصدى ببسالة لخيانة سليل بني شمس، ربما خسرتنا كفر البردقوش، ولكننا لم ننسحب فارين، بل منتصرين تاركين وراءنا جثثاً مشوية تشيع بطون ضواري الأرض وجوارح السماء، وجئنا حاملين بشارة النصر وقصة بطولة في سبيل راية العُقاب.

قلَّب غازي بصره في وجوههم، وبدا أنه معجب بشيء آخر، وسعد فطن ذو حدس، تحرك إلى الوراء، وجذب طرف حبل الأسرى دافعاً الأسيرة ذات الشعر المتموج والعينين الخضراوين لتسقط تحت قدميه وهو يقول:

- تلك أميرة ملكية من الغابة... هدية تليق بمولانا السلطان.

- وماذا عن الصهباء؟!

من دون أن يلتفت إلى محظيته أجاب سعد:

- إنها زوجتي. السيدة روزاليندا، نبيلة النسب ومحبوبة القلب.

- محظوظ أنت بهذا الجمال الخلاب، يعجبني ذوقك!

توترت روزا على الرغم من الانتشاء بدعوى سعد، الذي تابع بخنوع:

- سيدي، شرف لي ولزوجتي أن يقطر لسانك غزلاً في حسننا.

هز غازي رأسه من دون أن يزيح عينيه عن الصهباء، يدرك أن الرجل الذي أمامه ليس هيناً، ويختار كلماته ونسائه بعناية. لم يُطل الصمت وسأله:

- من أي البلاد وأي عشيرة أنت أيها القائمقام الساعي للمجد؟

- لست سوى رجل من البوغاز يسعى بكل قواه إلى نصره المملكة ورفع شأنها، ومجدي الحقيقي هو نيل رضاك سيدي، وأن تبقى راية العُقاب خفاقة...

بتر كلماته حين فتح ذو العرف جناحيه العظيمين، خفق بهما وهو في مكانه، وشعر سعد بالهواء يلطم وجهه، بُهت وفزع الأسرى من ضخامته. وحش متقلب المزاج يرمقه بعينيه الذهبيتين، كأنه لم يرق له تملق البرغوث، الذي كاد يقول شيئاً، لولا أن نهض السلطان عن كرسيه، ونزل الدرج بخيلاء تليق بسموه. بدا مخيفاً، وضيء النهار الواقع من النوافذ يجلي الظل عن ندوب وجهه الزرقاء. توقف أمام الفارسين، ونظر إليهما قائلاً بنبرته الرخيمة:

- قاطع بن سليم، وإدك هو سليم بن خير، رجل صادق نبيل، ولعلك كذلك، وعندما سمعت قصص بطولاتكما، ورأيت ما قدمتما من كنوز وأسلاب، أثق بأن أمامي فارسين قلما نجد مثلهما. لدينا حرب طويلة لإعادة الأمور إلى نصابها، ولنتر كيف يكون القتال بجواركما، خذا كفايتكما من الراحة لأربعة أيام، وفي الخامس سترتحلان معي إلى معسكر الجيش قرب المرقد.

استقرت عيناه على سيرين الجاثمة تحت قدمي سعد، وتابع:

- أخبرني أيها القائمقام، ما مصير الخائن شاهين بن عز الدين؟

من دون تردد أجاب سعد:

- صار رمادًا، مات حرقًا داخل الكفر مع من تبقى من عشيرته، والذئب.

- رائع، وماذا عن هذه المرأة، إنها هزيلة نحيلة وبائسة على كونها أميرة؟

ركلها سعد بقوة لتنهض، وأمسك ذراعها ليوقفها أمام السلطان وهو يقول:

- بعض من العناية والراحة يعيدانها أجمل مما كانت عليه، لم تدنس وهي هدية سلطاننا الأشرف الذي يقدر الجمال الجامع، وترويضها لن يعصى على سيد تلال الشمس، إنها تتكلم لغتنا، وإن كانت بلهجة أخرى، وقد يكون لها نفع في بلاط جلالنا.

أطال غازي النظر إلى وجه سيرين، على الرغم من انكسارها فما زالت بها مسحة شموخ وعزة. ابتسم، وولى بصره ناحية روزاليندا وردّ:

- أصدق ما تقول وأنا أرى ذوقك في النساء. قبلت هديتك، وسأوصي بأن تتلقى أنت وزوجتك ورجالك ضيافة تليق ببطل له مقام وحطوة في حضرنا.

وسط حديثها لم تُبعد سيرين عينيها عن السلطان المختال، غريب الهيئة بندوب وجهه الزرقاء. شعرت بغصة، وتمنت الموت على أن تُهدى إلى ذلك الرجل، وهي الحرة ابنة الأحرار، ليتها تفيق من هذا الكابوس الذي لا نهاية له. أحست بجنينها يركل جدار بطنها، ربما شعر ببؤسها وحزنها الشديد، وما زال البرغوث من ورائها يتملق سلطانه، الذي يدور حولها كضبع نهاش. تحسس أطراف شعرها وهو يعطي أوامره بأن يُعتنى بها، وأن تُنقل إلى مخدع الجوارى لتجهيزها، أما بقية الأسرى فيوزعون كخدم للنبلاء المقربين.

كانت سيرين تفهم ما يدور حولها، وأيقنت أن تلك هي نهايتها التي لا ترضى بها، أن تصير جارية يتسرى بها الأندال، ليت الموت ينال منها بغتة حيث تقف، ولكن إن كان الموت هو النهاية، فلن ترحل عن هذا العالم سدى، لتساحمها الآلهة وجنينها على ما ستفعل. على الرغم من أن يديها مقيدتان أمامها فإنها ارتمت على السلطان، وأمام دهشة الحضور وتفاجئهم جمد كل شيء، استلت خنجر السلطان بخفة، وخفق ذو العرف بجناحيه، وبالكاد تحرك جان الصقار والحرس، ودارت سيرين حول نفسها برشاقة وسرعة، لتغمد الخنجر بصدر سعد.

لم يعل صوت على اختراق الخنجر للدرع، سمعوا شق صدره واحتكاك الخنجر بأضلع القائمقام، وكان غازي الأقرب إليها، هجم عليها وأحاطها بذراعيه بقوة ليلقيها جانبًا، وانقض عليها الجند، وحلّق ذو العرف فوق الرؤوس صائحًا بنقيضه المدوي، وهوى سعد على الأرض ينزف، وعيناه شاخصتان تحمقان إلى الخواء، يدها تمسكان مقبض الخنجر المغروس قرب قلبه، يعلم أنه بمجرد خروجه سيموت. تحشرج الهواء بمجرى أنفاسه، واحتضنته روزاليندا المرتاعة بين ذراعيها، وانكب قاطع إلى جوارهما ينظر إلى حال رفيقه المحتضر، والسلطان الغاضب يصيح بأن تُحلى القاعة من البرابرة والجند، وسيرين بين أيدي الحرس تضحك، وتتطلع إلى ضحيتها كضارية ظفرت بفريستها. وبصعوبة ابتلع سعد ريقه، ودمع الاحتضار ينساب على جانبي وجهه، يشهق كلما حاول الكلام، حياته تنسل قبل أن يحقق ما أراد، رفع يده محاولاً أن يلمس شيئاً خفياً، ويهمهم بشيء لم يتخطّ فاه. تشبّث بالهواء، وسعل بقوة لافظاً الدماء من بين شفثيه، وبدا

أنه يحاول الإمساك بشيء في الهواء. شهق، وانتفض جسده بقوة قبل أن يسكن تمامًا!

ذاب ما تبقى من غسق في سنا عين الشمس، أشرقت بعد مغيب أختها التي بالسماء، أحالت الليل نهراً بوهج ذهبي غشي كل شيء، لا حاجة هنا إلى المشاعل والشموع. تدب الحياة في البلدة المترامية حول الفوهة من بعد الغروب، و«السامع ليس كالرائي»، مثل تردد صداه بداخل جاد الصغير وهو ينظر إلى الأبراج والروافع العملاقة، وهي تحمل سطوفاً ضخمة، تُنقل بها كتل الصخر والحمام المتحجرة، التي تُرفع من قاع الحفرة إلى برك المياه وورش الحدادين، وتُحمل بعد ذلك إلى الموازين والعربات. أحاديث والده لم تكن سوى قشة خيال في بحر الحقيقة، ها هو ذا يقف قرب الفوهة التي حلم برؤيتها، شاسعة القطر تتحلق حافتها بأكواخ وحظائر مسقوفة بالجلود والأخشاب، ويلفها جدار عظيم من الحجارة. إن عين الشمس مدينة كبيرة للمنفين والمساجين وعبيد بني عبيد، الذين عمروا المكان على مر أجيال. دهش جاد من وجود حوانيت وورش وصنّاع، وداخل الأزقة الضيقة نمت سوق سوداء، ومواخير بغاء يقصدها المهربون وتجار البشر والدواب، ودكاكين باعة السحالي والزواحف المجففة، والحلزونات المحلى بقطر العسل. وفي الجانب الجنوبي هناك سوق للخضراوات والحبوب، ومستودع الجراية حيث توزع حصص الطعام، مما يجعل المكان مكتظاً على الدوام، روائح الطعام والعرق والعطن تزكم الأنوف.

وجوه شاحبة متسخة، كل ما يشغلهم هو الحصول على وجبة تسد رمقهم، مضى أكثر من أربعين يوماً على وجوده هنا، وليس من السهل على زهر الثلج أن يطيق صهد الصحراء. اختار جاد الصغير الدرب الصعب، وقدم مع أربعة وعشرين رجلاً يرتدون أسماً بالية، بالكاد غطت أجسادهم ووشوم ظهورهم التي تميزهم. سلموا إلى قائد حامية المدينة على أنهم رهط من محكومين دُفع بهم للسخرة بفعل جرائمهم، ولم يجربوا أحداً بحقيقة أمرهم. تلقوا معاملة خشنة، وحُلقت رؤوسهم، ثم رمي بهم إلى حظائر العبيد. وخلال الأيام الأولى ذاقوا الكثير من المذلة، لكنهم صبروا وتحملوا، ووزعت عليهم مهام دُتية من بين الجميع، لكنهم تكاتفوا في وجه الأيام الصعبة، وتماهوا بين العمّال باحثين عن هدفهم، يثقون بحكمة ودهاء قائدهم الذي يتنبأ له بشأن عظيم، العقاب الشاب الذي أخذ على عاتقه مطاردة من يدعون أنهم حكماء العقيدة وحراسها، أسر نبيهم، وظفر بثلاثة منهم، وجاء إلى هنا في إثر الرابعة، مخمرية بنت جبران.

يقولون إن الفضول يروي أشجار المعرفة بدواخلنا، يجعلها تنمو وتثمر حكمة تقود عقولنا إلى الحقيقة. يعلم أنها قدمت إلى هنا لتثير الفوضى، ولكن لا أثر لها بين الآلاف. نثر رجاله في أرجاء عين الشمس ومدينتها العجيبة، حاملين المعاول والقُفوف عاملين بكد كالجموع من حولهم. انصهروا بين الحشود مرهفين السمع لكل شاردة، يأكلون الفتات مع المتحلقين على قصعات الطعام الجاف. عاشوا أجواء صعبة حتى على فرسان مخضرمين، وأصبحوا كأهل الهوة يستيقظون مع الغروب، ويتوارون مع الشروق، يتسللون بخفة بين الأكواخ والأزقة الضيقة، متحاشين الحرس ودورياتهم، يتفحصون الوجوه ويبحثون عن أي دليل، ولا يعلو همساتهم إلا غطيظ وشخير النائمين، يجتمعون من دون لفت الانتباه، ويقص كل منهم ما سمع وما رأى،

ولا شيء جديد. خشي جاد أن يفتر عزم رجاله، فطعام اليأس القلوب، يستطيع أن يرى الإحباط في دواخلهم، ويسأل نفسه هل كان من الصواب أن يأتي في أثر سراب؟! يقولون إنها مليحة فارعة القوام، وهنا في قاع البؤس والشقاء يمحو الكد والصهد أي جمال.

الجميع هنا حليقو الرؤوس، نساء ورجالاً، تحاشياً للقمل والحشرات، والمطر الوحيد هو عرق الرطوبة على جباه مغبرة بالسواد، وجوه عابسة وعقول نسيت العالم خارج تلك الفوهة، يعملون لأجل وجبة حساء وكسرات خبز وثمره لفت. الأيام متشابهة، والقلوب لا تعرف الأمل. تتنوع فتاتهم، وكل حسب مهامه، وأكثرهم عددًا وعزلة من ينزلون إلى قاع الحفرة عبر سقالات وسلام وحبال، يصدون بمعاولهم كتلاً لينة من صلصال ملون وهم متحجرة، يملأون القُفْف ويفرغونها بسُطول الرافعات، شبه عراة ينتعلون قباقيب خشبية تعزلهم عن سخونة الأرض ولا تقيهم صهدها. يُطلق عليهم «المنقبون»، وهم أدنى درجات أهل هذا الجحيم، جلودهم قاسية مسودة، لا غاية للحياة في أعينهم الحمراء على الدوام، موتى منسيون تتوق أنفسهم إلى راحة لا سبيل إليها. وعلى الرغم من نظامهم ومهاراتهم، فإنهم يتلقون لسعات السياط ببلادة وجلد. يسكنون جحورًا على حواف الفوهة، وكان من الغريب على جاد رؤية بعضهم يتوافدون على أحد بيوت اللهو بعد الشروق. من مكنه رأى تتابع ولوجهم إلى كوخ له ستائر حمراء بالية، لم يخاطر بتبعهم، وبقي ينتظر طويلًا، حتى شاهد أحدهم يخرج مؤمناً الدرب، وتبعه ثانٍ وثالث ورابع وهي... مخمرية بنت جبران التي تشبه أباها في كل ملامحها. دارت بعينها في المكان، وخيل إليه أنها تراه حيث هو، وما لبثت أن استدارت ومضت إلى الأزقة المتشعبة، حليقة الرأس رفيعة النسب لم يُمخِ أثر النبل والعزة من سحتها، ترتدي رداءً فضفاضاً مصفرًا، وتشد على خصرها حزام طائفة المعالجين.

تدلت رايات بني الأزرق على بقايا برج حجري قديم، يتوسط متاهة الأزقة والأكوخ، وحُفر نقش قديم أعلى بابه، شمس بداخلها كأس، شعار طائفة المعالجين من وهبوا أنفسهم لرعاية ساكنة المكان. هنا وجدت مخمرية ضالتها، قدمت منذ شهرين مدعية أنها عشابة طبيعية، وشاع عنها أنها سيدة راقية، تركت رغد الحياة واختارت الزهد، تبث في نفوس من حولها الطمأنينة والراحة، ويقولون إنها نبيلة تبرعت بكنوز عائلتها للمساكين، يستبشر بها من يلقاها، وينصت لنصائحها المحيطون. تقضي يومها بين المرضى والجرحى، وفي نهاية مناوبتها توزع على المتعين خلطات أعشاب شافية، يقومون بغليها وشرها قبل النوم، لتمنحهم شعورًا بالراحة من بعد عمل شاق، وحين تعلق «الشمس» فوق عينها تخرج متخفية لملاقة أتباعها، يجتمعون في كوخ بالناحية الجنوبية قرب مستودع الجراية.

هي روح الحكمة الغائبة عن العالم، من تعلم بواطن الغيب وحوادث الزمان. كلماتها تطيب جراح نفوسهم، وتحيي فيهم شيئاً لم يعهدوه، تستنهض أرواحهم المثقلة، وترثي حالهم من الظلم الواقع عليهم، وببلاغتها المعسولة نثرت المحبة بينهم، وهي تحكي لهم عن البلاد والبلدات، أزداد والبوغاز ومرج الجياد، وشلالات الحياة حيث المياه الباردة المتدفقة من دون توقف، وعالم بالكاد يسمعون أنه موجود خارج هذه

الحفرة. أحييت فيهم أملاً بالخلاص، وكل نهار تنضم إلى جلساتها وجوه جديدة. راقبها جاد الذي وُزِعَ رجاله بين حلقات تلاميذها المقربين، وأمرهم بأن يصموا آذانهم عنها، وألا يلقوا بالأل للترهات التي يطلقها أتباعها، وأن يعرفوا غايتها الحقيقية. هل تريد الثورة حقاً أم جاءت لتختفي بين الحشود؟

الاقتراب منها من دون لفت انتباهها كان محض هراء، تبدو كأنها تقرأ عقول من حولها، وإن كانت تفعل لكشفت أمره. يذكر حديثه مع إينال الذي استطاع الولوج إلى مكمن الذكرى بنفسه، لا يدري كيف فعل الرجل هذا، وهشمت أفكاره ومخاوفه بصوت قرقعة عظيمة أفزعت الخلائق. رأى إحدى الروافع القريبة تنهار، تهاوت مولدة عاصفة من غبار وفوضى، سحق الأكوخ من تحتها، وضج المكان بالصراخ والصياح، وتدحرج أحد تروسها العملاقة إلى الحفرة محطماً السقالات والسلام، حدث كل شيء فجأة من دون سبب أو إنذار، وأخذته رجفة دهشة لم تلبث إلا قليلاً، ركض عكس الفارين رعباً بين دماء وأشلاء وحطام، ووجوه مدماة نال منها الهلع. ساعد جاد الناجين على الخروج، وأخذ يبحث عن آخرين.

ومع انقشاع الغبار جاءت طائفة المعالجين، وسمع صوتاً يناديه، فاستدار ليجد أحد رفاقه محشوراً تحت الركاب، ما زال حياً، كانت ساقاه عالقتين تحت عارضة ضخمة. وعلى الرغم من آلامه، فإنه ابتهج متوجعاً لرؤية جاد الذي حاول دفع العارضة الثقيلة من دون جدوى، والرجل يناشده بأن ينجيه. ومع قليل من المساعدة أخرجوه، وحمله جاد إلى محفة المعالجين الذين نقلوه إلى خارج دائرة الحطام. يعلم أن صاحبه لن يصمد طويلاً! أمسك يده محاولاً طمأنته:

- اصمد يا زريق، ستكون بخير.

- سيدي الغقاب...

امتقع وجه جاد الصغير، ومال إليه هامساً:

- صه يا زريق، أنا بجوارك فلا تخشَ شيئاً، سأخرجك من هنا إلى آزاد.

أتم كلماته مع قدومها، عاينت حال ساقيه المهشمتين بأسى، وربتت على صدره قائلة:

- اطمئن.

- لا أريد أن أموت.

نقلت مخمرية بصرها إلى جاد الواقف بجواره، وقالت:

- وحده الخالق من يقرر.

ألقت جملتها، وأشارت إلى مرافقيها بأن يحملوه، لم يكن أقرب إليها من هذا الوقت، وجب عليه أن يقتلها، ويحمل صاحبه وزمرته ويأفل عائداً إلى آزاد، وفي دار العلاج وُضع زريق على طاولة، فاقد الوعي بعد أن نزع الكثير من دمائه، أسقوه منقوع القنب ليسكن ألمه. وأمام جاد القلق قُطعت ساقا زريق.

بقي إلى جانبه يقلب بين أصابعه خاتماً أهداه إليه السلطان ولم يفرط فيه، يخفيه منذ أن دخل إلى عين الشمس في حزام إزاره، والجميع حوله منهمكون بعلاج الجرحى وإحراق الموتى. ما زال في المكان الكثير

من إرث بني شمس، وقليل من عقيدتهم البائدة يكفي لثلاثا تنتشر الأوبئة والأمراض. لم تفارق عيناه وجه زريق الشاحب، وجاءه طيف والده، والسلطان غازي، وشمس الشموس. أخذ يُدكر نفسه بما هو عليه، جاد بن راجي أمير مرتفعات الصقور، فارس يسعى للواجب، وتحقيق العدالة، وإنفاذ القانون، يحفظ الكثير من نصوص الجاباسكي، ويُحكم عقله في كل شيء، وما تضحيات رجاله هنا وفي آزاد إلا من أجل حفظ نظام المملكة وحمايتها، وزريق المحموم يهذي غائبًا عن الوعي، مسكين سيصاب بالهلع حين يعلم فقدانه ساقية، ولا سبيل إلى إخراجها من عين الشمس وهو بهذه الحالة، سيفتضح أمرهم إن حاول تهريبه، وينكشف سترهم إن سمع أحد هذيانه. وبينما هو على هذه الحالة جاءت مخمرية بثوبها الملطخ بالدماء، تطلعت إليها، وحدثت جاد:

- كيف حال صاحبك؟

تمنى جاد بداخله لو أن زريق يصمت، دار حول الطاولة ليضعه وراءه، وأجابها بضيق:

- نالت منه الحُمى، يهذي ولا أظن أنه ناجٍ. ما الجدوى من رجل من دون قدمين في عين الشمس؟!

- من أي البلاد أنتما؟ وكيف انتهى بكما المطاف إلى هنا؟

- من مرتفعات الصقور. لصان كما ينعتوننا، وكل ما فعلناه هو أن اصطدنا أيلًا لنشبع جوع أهلنا، ومن سوء حظنا أنه كان للسلطان غازي، ككل شيء على هذه الأرض! وحكم علينا بالسخرة لعشر سنوات هنا.

- أنتما من بني الأزرق إذن؟

بدا الغضب في كلماته وهو يقول:

- نعم، كنا كذلك حتى ألقوا بنا في هذا الجحيم.

- أليس لديك عمل تذهب إليه أم ستبقى هنا إلى جوار صاحبك؟

- كنت أحد عمّال الرافعة المهذمة، ولا أعلم ما عليّ فعله الآن. أخشى أن يفيق ولا يجدني بجواره، ليس له أحد سواي!

- جاللاااا، ما وجب علينا ترك الجياد والعناد خلف التلال.

نطق زريق، وما زالت عيناه مغمضتين، ليقطع جاد حديثه وينال منه الدهول. ظل صامتًا ينظر إلى وجه الرجل الذي أخذ يهمهم، ومخمرية تقول بهدوء:

- مسكين عالق في متاهة الألم والهذيان، عليك وضع خرق مبللة على رأسه طوال الوقت، حتى تزول الحُمى. الجميع هنا مشغولون كما ترى.

رمت كلماتها المقتضبة وخرجت، وبقي هو كصنم من جلمود يحرق إلى زريق الممدد أمامه، كاد يكشف أمرهما، ومن حسن حظه أن الشك لم يمسسها، لا يدري كم سيبقى فاقداً للوعي، وماذا بعد أن يستيقظ ويعلم بما حل به، ربما عليه أن يخبر قائد الحامية بأمرهم، ويظهر خطته وما جاءوا إليه، ولكن ماذا لو كان لها عيون بين الحرس المتغافل؟ لا يستطيع المخاطرة، ولا يثق بقدرته الرجل على الصمود. جاء بإناء ماء وخرقة، شارد الذهن، تجول روحه في متاهة الاحتمالات وعواقب ما قد يحدث، أخذ الخرقه من الماء ووضعها على جبين زريق، وهمس وهو يربت على رأس صاحبه:

- أدبت ما عليك يا زريق. أشهد وأنا قائدك أنك خير فرسان فيلق العقبان، وأنتك بذلت روحك في سبيل الواجب. سامحني فانا لا أحمل لك ضغينة.

ومع آخر حروفه ومن دون تردد، وضع الخرقة المبللة على فم الرجل وأنفه، كتم أنفاسه وأمسك رأسه بقوة ليثبته، فعل ما تحتم عليه فعله، والرجل ميت لا محالة. قتلٌ رحيم خير من مفسدة قد يحدثها بهذيانه، ولم يرف جفنا جاد حتى خمد جسد صاحبه!

غمر المكان هواء ساخن مقل بأدخنة ورائحة شواء، وعلى وهج عين الشمس في ساحة المعالجين، أُحرق جثمان زريق وبقية الموتى. وبين الجموع وقف جاد بوجه جامد ينظر إلى السيدة ذات الوقار، التي تقف في الجهة الأخرى من النيران، ويتراقص اللهب في عينيها الرماديتين، كم يبغضها، ويتمنى جز عنقها، لكن شيئاً ما بداخله يجعله ينتظر، لا يصدق أنها جاءت إلى هنا لتختبئ وتفشي هراء المحبة والسلام. مات صاحبه في سبيل الواجب بعيداً عن دياره وعائلته، وبقية رجاله المنتشرين في الأرجاء ينتظرون إشارته، لا يريد لأحد منهم أن يصاب بسوء أو يلحق بزريق. خمدت النيران وألقي بالرماد إلى الفوهة، وعاد العمل في عين الشمس كسابق الأيام. الموت عادة يومية هنا، يهلك الكثيرون بطرق شتى، وسقوط الرافعة أمر جديد عليهم. يؤمن كثير منهم بأسطورة ورثوها عن بني شمس، أن أرواحهم خلقت من الضياء، وحين تُحرق أجسادهم يعودون إلى صورتهم الأولى، ومن يقتل نفسه تُعذب روحه، وتتيه إلى الأبد في الظلمات، والحقيقة أن حرق الجثث تقليد للتخلص من الأوبئة أكثر منه إيماناً. لا مكان هنا للدفن، لذا تماهوا مع حياة السخرة. الذل سمتهم والجن شيمتهم، يخفضون رؤوسهم لسجانهم الغلاظ. وعلى الرغم من القبضة القوية لجند بني الأزرق، فإنهم لم يكتشفوا أمر اجتماعات مخمرية السرية، أو أنها استطاعت تدبر أمرهم. استغلّت الواقعة لتبث في نفوس المؤمنين الجدد شيئاً من غضب، وكل يوم يمر يزداد عدد مريديها، وأصبح جاد يعي أن الحرس ليسوا سوى ثلة من المرتشين، يعلمون بأمرها، ويدعون أن كل شيء تحت سيطرتهم.

راقب جاد نجباءها، جالسهم وأكل معهم، وحمل عنهم بعضاً من أعمالهم، تودد إليهم محاولاً بناء جسور ثقة معهم، وأرهدف السمع لأحاديثهم الجانبية، وحاول كثيراً أن يصل إلى مقر تجمعهم السري، ولا يعلم أنها تنظر إليه من حيث لا يراها، تشك فيه منذ يوم سقوط الرافعة، وتلحظ وجوده في نطاقها على الدوام. تتغافل متظاهرة بالإنهاك فيما تصنع، ولكنه مريب بجسده المفتول المزين بالندوب كمحارب وليس سارق أيائل، متلصص يكشفه فضول عينيه الزرقاوين الصافيتين بقدر عمقهما. ألفت وجوده في جلستها الروحية بالجهة الجنوبية، ولا حظت كم هو نبيه فطن دائم الحضور، ينصت بإمعان، ولا ينزل بصره عنها، وما زالت خطبها لا تتجاوز المواعظ وأحاديث قصيرة مقتضبة عن العدل ورد المظالم. ذات نهار وقبل أن ينفض مجلسها، طلبت منه أمام الجميع أن يبقى ولا ينصرف، انتظرت حتى رحل الحضور، كل إلى حال سبيله. حدثته بنبرتها الهادئة:

- عينك تشيان بكثير من الأشياء، والحزن على صاحبك ليس منها!

- إن الحزن بالفؤاد مستقر. وزريق محطوط، نال الخلاص بدلًا من قضاء سنين في الشقاء، لا رثاء يكفيه قدره، ولا أظن أن الحسرة على الأموات تعيدهم إلى الحياة.

- لكنك تجعلني أصدق حقًا أنك من سكان مرتفعات الصقور، ولكن هيثك توجي إليّ أنك لست مجرد سارق أياثل، ولا حتى راعي غنم.

ردّ بنبرة تجلي فيها التهكم:

- كم شخصًا رأيت من أهل الشمال! كان بالإمكان أن أصبح أميرًا لو ولدت في جبال الدب أو بستان الجياد، أو كنت من سكان المرقد وجبل الثلج، لكن عشيرتي فضلت وعورة الشمال وصقيعه على دفء ومراعي وادي نهر التاج.

- هل تشناق إلى بلدتك؟

ضحك ملء فيه، وأسنانه البيضاء المتناسقة أثارت الريبة بداخلها، وسرعان ما نفضت الهواجس عن رأسها منصتة لما يقول:

- بلدتي هي كوخ عتيق ورثه أبي عن أجداده رعاة الرنة. نحن أهل الجبال لا تجمعا مدن، وإنما تتناثر أكواخ عشيرتنا داخل الوديان السحيقة ومنحدرات المرتفعات، ولا تقرب غابة السنديان الكثيفة إلا في الصيف القصير هناك، ونقضي الشتاء الموحش محاطين ببرودة الثلوج والظلام. نسقي ماشيتنا من جداول باردة قادمة من الجبال، وفي الربيع ننزل إلى تخوم الزرقاء، نبتاع ما ينقصنا، ونعود من حيث أتينا. أنا من أسلاف الذين رفضوا مشاركة جاد ذي العين الزرقاء في حملاته وحروبه، وأصبحنا مهملين ومهمشين بين الناس. ماتت أمي، وتبعتهما أختي الصغيرة. وعشت جل حياتي رفقة أبي، حتى جاءنا صيف لم نستطع رده. وهو السبب فيما أنا فيه الآن.

صمت، والحزن مستقر على وجهه. لا تدري إن كان كاذبًا أم صادقًا، وهي التي ورثت الفراسة عن أبيها. قالت بنبرة مواساة:

- ألا تظن أن ما حدث لكم منذ البداية هو لحكمة ما؟

- الحكمة الحقيقية هي أننا لم يكن علينا ذبح الأيل لإطعام الصيف. لو اتبعنا نصوص الجاباسكي ما كانت هذه حالي الآن، وما نال زريق المصير الذي يلاحقني أيضًا.

نظرت إلى عينيه الزرقاوين، وقالت بنبرة ناعمة:

- الندم ولوم النفس يوديان بها إلى الجحيم. يمكننا تغيير مصائرنا إن أردنا. ما ينقصك هو الإيمان الحقيقي، وأحسب أن قدومك كل نهار إلى هنا هو بحثك عن الأمل، أو الإيمان.

- الآمال الكاذبة قاتلة بالضرورة، ولكن ماذا إن كان ما نؤمن به مجرد وهم، هوى تميل إليه أنفسنا الطامحة إلى مزيد من الشهوات؟!

انفرج ثغرها، ورفعت أحد حاجبيها:

- أين تعلمت كل هذا؟!

- كل يوم في هذه الحياة هو درس، ومن لا يتعلم من أخطائه يهلك سريعًا.

غلفها السكون بضع لحظات قبل أن تسأله بخبث:

- اسمك هو جاد، أليس كذلك؟ على اسم سيدكم العقاب الكبير.

حاول إخفاء دهشته من تذكرها اسمه، وقال بشيء من السعادة:

- مجرد اسم دارج في الشمال، حيث يتغنى الناس ببطولات وأساطير لرجل تكثر تماثيله في الأرجاء!

- حسنًا يا جاد، إن كنت لا تقدم إلى مجلسي من أجل الإيمان والأمل، فليم تأتي؟!

صمت برهة تطلع فيها إلى عينيها الرماديتين، وقال:

- لأجلك!

فاجأها رده، وإن استشعرت صدق قوله، ربما هذا سبب تلصصه عليها طوال الوقت، لم تدرِ ما عليها قوله وهو يتابع:

- يوم سقطت الرفاعة، لم يأبه أحد بزريق سواك، مددت يد العون على الرغم من معرفتك بأنه لن يصمد. لا أنكر أن كلماتك عن المحبة وانتصار المظلومين أثارت شيئاً بداخلي، ولكنني لا أبه بكل هذا، فقط رؤيتك تهوّن عليّ مصاعب هذه الحياة التي قد تنتهي في أي وقت، كل ما أفكر فيه هو أنت...

قاطعته بحدة:

- كفى! عليك العودة إلى مضجعتك الآن.

نهضت إلى خارج الكوخ، وبقي جاد المبتسم الذي أربكها بحديثه وتودده، بات يعلم الآن أنها تراقبه، بل ويشير وجوده فضولها، ما زالت تلتحف بالغموض، ولا يعرف عنها الكثير، وعليه التقرب منها أكثر خلال الأيام المقبلة. عاد إلى كوخ مبيته ليجد ثلاثة من رجاله في انتظاره، لقد أصيب أحدهم بحروق خلال عمله قرب الحافة، ووجوههم تشي بمكنون صدورهم. اقترب ليتفحص الرجل الممدد سائلاً:

- ما الذي حدث؟

- تساقطت حمم مصهورة على ذراع كارم، حملناه إلى المعالجين، ولم يمنحوه سوى شراب جعله يغط في النوم، وكما ترى حالته تزداد سوءاً، الجلد احترق واللحم يتفسخ.

وسأله الآخر:

- إلى متى سنبقى هنا؟

- حتى تتم ما قدينا لأجله، أو نفنى جميعاً. ما لكم تجزعون إن أصاب أحدًا منكم ضررٌ، أولستم فرسان بني الأزرق فيلق العقبان الذي لا يهاب شيئاً؟!

- سيدي، إننا معزولون عن العالم الخارجي، وما جئنا إلى هنا إلا لقتل تلك الأفعى كما فعلنا برفاقها...

قاطعه جاد باقتضاب:

- الصبر، ما زلنا لا نستطيع اختراق مجلسها الخاص، حيث تجتمع مع المنقبين ذوي الجلود المسودة، هؤلاء هم مفتاح كل شيء، وللولوج بينهم نحتاج إلى الكثير من الوقت. كل ما عليكم فعله هو مراقبة ما يفعلونه في قاع الحفرة، واركبوا أمرها لي.

ذات نهار وبينما يغط أهل عين الشمس في النوم، كانت مخمرية تجتمع بتلاميذها المقربين في كوخ يطل على حافة الهوة، تلك الثلة التي قدمت معها من أزد، تُطلق عليهم «النجباء»، وتبقي اجتماعاتهم سرّاً لا يقربها غريب. يتبادلون الأخبار عن جماعات العبيد والمحكومين، وكذلك الحرس وكبار المساعدين والعمّال. كل منهم يدلي بشيء من تفصيل عن مهامه التي كلفتهم بها، تثق بهم وهي التي اختارتهم بعناية من بين المؤمنين. نصحتهم بالترث، والحرص، وانتظار إشارة الخالق، التي ما زالوا يسألون عن سبب تأخرها، هل تخلى عنهم أم حكم عليهم بالسخره طواعية؟ انقطعت عنهم أخبار الحكماء منذ أن جاءوا إلى هنا، وكلما قابلتهم بثت

فيهم الطمأنينة، وترتكهم ليعبر كلّ منهم عما بداخله. تشاورهم، وتشاركهم، وتنصت لهم، كانت قريبة منهم، وفي بعض الأوقات تلقي النكات لتخفف عنهم، وتدرك ما يعانونه في سبيل غايتهم النبيلة. أخبرتهم بضرورة عدم الاحتكاك مع الحرس، والصبر على ما يلاقونه من نصب وتنكيل. قال أحدهم بنبرة يأس:

- أحشى أن تُنسى هنا.

ردّت بنبرتها الهادئة:

- هل أنت نادم على قدومك إلى هنا يا زيان؟

قال الرجل بتردد:

- لا أقصد هذا، لكنني اشتقت إلى أولادي وزوجتي، لم أعد أستطيع تحمّل صهد الحفرة. مضى أكثر من خمسة أشهر على قدومنا، وأشعر بأنها تمتص روحي. تراودني كوابيس كثيرة، أرى وحوشًا تأكل أكباد الأطفال، ونساء ممزقة الأطراف. ونحن جميعنا نحترق في قعر جحيم مستعر، نحترق ونصرخ بينما تنصهر أجسادنا. هل نحن على حق؟!

أشارت إليه فاقترب حبواً ليستقر بين يديها، اللتين وضعتها على رأسه بلطف قائلة:

- لا عليك يا زيان، إنها مجرد أحلام إرهاق وتعب من كثرة العمل الشاق، وللشر سبله إلى النفوس. جميعنا نشاق إلى أحيائنا ومَن تركناهم وراءنا، وواجبنا نحوهم هو إتمام ما جئنا لأجله، لننعم معهم بخلود لا فناء بعده، وليعم هذا العالم سلام وعدل حقيقي بقدرة الخالق وبهاء ضيائه. حُد هذا المسحوق، اخلطه مع الماء واشرب منه ثلاث رشقات، ستحظى بنوم لا خوف فيه ولا كوابيس.

منحته صرة صغيرة، وربتت على كتفه، وعلى وجهها ابتسامة رطبية هادئة، وعاد الرجل إلى مكانه، وهي

تحدثهم بلطفها المعهود:

- لا يخشى أحدكم شيئاً، واعلموا أن هذا المكان مقدس، وكما يحمل في عمقه سر الخلود، يكشف أيضاً ما بنا من خوف وشرور. تشبّثوا بالإيمان، وإن طال أمد بقائنا هنا، واعلموا أننا منتصرون بوعد الخالق الذي لا يخلف موعداً. اثبتوا فنحن على نغر، وما نفعله سيغير معالم هذه الأرض وما عليها.

في ذلك اليوم وبعد فراغها من لقاء أتباعها، خرجت متجهة إلى برج المعالجين حيث تسكن. وحدها عبرت الطرقات الظليلة، تستذكر كل ما مضى من حياتها، كيف تقبلت العقيدة من النبي إينال، بل وأقنعت بها أباه جبران، ووحده سهيل مَن قاوم وتهكم وسخر من إيمانها، لذا ألقته من فوق أسوار أزاد من دون أن يرف جفنها. فعلها أغضب الحكيم نرغال الذي قرر الرحيل، مدعيًا أن كل واحد من الحكماء يفكر في نفسه، لكنه كان مخطئاً، التقدير هو مَن خلقهم، ومنحهم حرية الاختيار، وليس على عجوز ضرير مهما بلغت مكانته أن يتحكم بهم، كيف يحزن على موت زوجها الذي كاد يفصح أمرهم، وفي الوقت نفسه يأمر بدر بن حمدون بقتل مَن يقف في طريقه من أهل الساحل!؟

لم تتوقف عند نرغال وحكمته المتضاربة في كثير من الأحيان، شعرت دوماً بأنه يخفي شيئاً، أو يدبر أمراً من دون معرفتهم، حتى وإن كان له من القدرات ما ليس عندهم، هو مَن وضع هذه الخطة، وهو أيضاً مَن تحلى عنهم، ليس عليها سوى الاستمرار، الإيمان يدفعها، وقدرتها على فعل المعجزات تبخرت منذ أن قدمت إلى هنا، وتدرك أن فأس اليأس تضرب قلوب تلاميذها، وهذه هي حال البشر مع الغيبيات، ومَن جاءوا معها إلى هنا يجب ألا يكونوا جنباء. تشتاق هي أيضاً إلى بناتها وأولادها، ولكن ليس مثل شوقها إلى رؤية

مهد الخلود وهو يخرج من قاع الحفرة.

ظلت هائمة في أفكارها حتى بلغت برج المعالجين، وقبل أن تدفع الباب وتدخل رأت في السماء غيمة سوداء قائمة، عقدت حاجبيها وما لبثت أن ابتسمت، وشيء بداخلها ينبئها بأن تلك إشارة من الخالق لتثبيت قلوب المؤمنين، وأن ما تفعله هو الصواب ولا شيء غيره. وفي المساء وبعد مغيب الشمس، وجد زيان ميتاً في فراشه، غارقاً في دمائه التي تفجرت من فمه وأنفه وأذنيه. تفحص الحرس والمعالجون جثانه قبل حمله إلى المحرقة. أمر عادي أن يموت الناس في أثناء نومهم، لكن أن ينزف بهذه الطريقة فهذا ليس أمراً مألوفاً هنا! ومن نافذة البرج رأت النيران تأكل جسده، وعلى وجهها ابتسامة رضا بتقبل الخالق لقربانها.

فشل جاد ورفقته في الدخول وسط اجتماعات مخمرية السرية، وعلى مدى أسابيع لم يستطيعوا دخول المنطقة التي تتقابل فيها مع تلاميذها، وعلى الرغم من تقربه منها فإنها ما زالت لا تثق به، لذا اكتفى بمراقبتهم وتتبع خطاهم، كان على يقين بأنها تدبر شيئاً جليلاً، وتعجب من عدم حضورها ورجالها مراسم إحراق صاحبهم، بينما واظب على حضور مجالسها العامة مع العمّال والعبيد، حيث تدور في فلك النصّح والوعظ، وتشر بذور الصبر والمودة والرضا، تتحدث عن المحبة والسلام والعدل، تزين الكلمات وتختار مفردات تشي ببواطن أشياء عدة. أمعن ذات ليلة في كلماتها، وتعجب من سماحة ورقي ما تدعو إليه، وعلى الرغم من ذلك فلم تحث أحداً على ثورة أو تمرد، وهو ما جعل جاد يصبر عليها، ربما زهدت مخمرية الحياة حقاً، وتريد أن تُنسى أو تُطهر هنا بين ظهور المقهورين. تعددت زيارته لمجلس حكمته في كوخ البغاء القديم عند البوابة الجنوبية، ولا يجد أي شيء يثير النفوس في خطبها ونصائحتها، وأصبح يُسمّيها بين رجاله بـ«الحرباء»، خبيثة وملتونة، لا أحد يستطيع فهم ما ترنو إليه، لم تفصح لأحد عن النبي ولا الحكماء، ولا تتحدث عن عقيدتها إلا بشذرات، حتى ظن أحد رجاله أنها جاءت هنا هرباً وخوفاً من بطشهم وليس كما يظنون.

قَتَلَ رجل في بلاط السلطان هو نذير شؤم، وليست المرة الأولى التي تتذوق الأرضية الرخامية طعم الدماء، ويبدو أنها تستسيغه، وتطلب المزيد، وهذا ما تحشاه شمس الشموس، سيدة القصر وسلطانة الدنيا. انقلبت سفينة حياتها الهادئة بفعل أمواج الفوضى. في الليلة الماضية جاءها زوجها غاضبًا، كان خائفًا، ولا تُكذِّبُ حدسها. مساكين هم معشر الرجال لا يبوحدون بما يؤرقهم، والفتنات من النسوة يستطعن تليين قساوة القلوب وسلب الكلمات. قليل من الملاطفة والدلال ونطق بما حدث في بهو ملكه، حكى منبهراً عن اللحظة التي لامست دماء المهرطق القرص الملعون، رأت عينيه تتوهجان كأنها تشاهد فيهما ما حدث. لم تعتده هكذا وهو الشجاع المهاب، لا تعلم كيف تساعده، ووميض البرق ينير مضجعهما، ويتنفض قلبه كلما زار الرعد، لم يستطع النوم، وقطع الغرفة جيئةً وذهابًا، قاصًّا عليها شذرات من ذكريات متداخلة، حدثها عن أبناء عمومتها وأقاربه، وعن كل أحفاد جاد المعظم وذريته التي لم يبقَ منها أحد سواه. ولما فرغ من الكلام ركن إلى صدرها، احتضنته بحنان وهددته، غنت أنشودة شهيرة في جزيرة الكستناء، عن مغامر صعلوك ركب البحر متحديًا النصائح والأمواج، اسمه «برقوق»، وذهب إلى حيث لم يصل أحد قبله من الناس والملوك، وغرق مركبه على صخور جزيرة بعيدة، ولم ييأس أو يفقد الأمل يوماً، وخاض مغامرات رهيبة يشيب لها الولدان، وفي النهاية نجا، واستطاع العودة لأنه يريد ذلك.

غفا على غنائها وصوتها الناعم العذب، وأخذت تعبث في شعره الكثيف، وفكت ضفيرة لحيته، وأخذت تتأمل ملامحه وتتحسس برقة ندوبه الزرقاء، وقالت هامسة:

- مَنْ قاتل نمر ثلوج منوحشًا بيديه العاريتين، لن يُهزم أمام ساحر مشعوذ وثلة من المهرطقين.

وطيف من الماضي يحملها إلى حيث وُلدت وعاشت، جزيرة الكستناء ذات الخضرة والبهاء، وهي أميرة يافعة طاغية الحضور بين قريناتها وأقاربها، تحب البستنة والورد وتربية الطيور المغردة، وأسعدت أمها وجميع أفراد عائلتها بخطبتها لسلطان بني الأزرق. لم تكن تتوقع ما يحدث في حياتها الآن، ولا تنسى ليلة إبحارها الهادئ من جزيرة أبيها، وموكب زفافها الأسطوري ورؤيتها له أول مرة، وجدته مميّزًا ووسيمًا، محاربًا لا يستطيع أحد هزيمته، ذا نعمة يتنافس عليها الآن الصعاليك والمشعوذون، ليبتها لم تقبل هدية ذلك البحار العنبري، أو بمقدورها أن تهوّن ما ألمَّ بزوجها في ليلة هي الأغرب في حياتها، مسها القلق والجزع اللذان يسريان بداخله، وقبيل الفجر باغتها النوم.

استيقظت وضوء الشروق يطرق نافذتها، تقلبت في الفراش ولم تجده بجوارها، وبعد ثأوب كسل نهضت إلى شرفتها، فتحت بابها ليعانق هواء الصبح البارد روحها. لمحت ذا العرف يحلق ببهاء ونعومة مع الريح، ولا أثر لغيمة في السماء. رمت ببصرها ناحية الفناء حيث يعبر النبلاء والوزراء، يبدو أن زوجها استدعاهم باكراً على عكس عادته. رجعت إلى غرفتها، ونادت وصيفاتها ليساعدها في طقوسها الصباحية: هممنها بهاء

دافئ، وفركن جسدها بمراهم عطرية، ومشطن شعرها وجدلنه في ضفيرة غليظة طويلة وراء ظهرها. اختارت ثوباً أزرق مطعماً بتطريز ورسوم ريش، تزينت بقليل من حمرة، وتجملت بحلي فضية، لم تكن بحاجة إلى أن ترى انعكاس صورتها في المرآة، وهي ست الحسن الجميلة على الدوام. فضلت أن تعتمر تاج الكستناء الفضي ليتناسب مع حليها، وفي اللحظة التي وضعت وصيفتها التاج على رأسها رجَّ القصر بصدى صراخ وعويل.

هرعت ومن معها إلى بهو الملك، وحين وطئت قدمها عتبه كان الجند يحملون جسد صريع إلى الخارج، ويقبض الحرس الملكي بقسوة وعنف على بربرية، ويدها ملطختان بالدماء، زائغة البصر، على وجهها ابتسامة غريبة، اقتادوها إلى خارج القاعة ونُكِّل بزمرة أسرى مكبلين، وجوه وملامح تراها لأول مرة في حياتها، ينظرون إليها باستجداء وعطف، أعين دامعة مرهقة ترتجي الرحمة. تقدمت إلى وسط البهو، وأفسح لها الجند الطريق، وخفض المبجل قيادار رأسه وهو ينصرف متأبطاً صهباء جزعة تنتحب، وبالكاد تمشي ومن ورائها فارس مقطوع اليد يجرد قدميه بحسرة، وقرب كرسيه يقف غازي مولياً ظهره للجميع، يهمس في أذن جان الصقار، وذو العرف يستقر على مسند العرش رافعاً عنقه يدور برأسه في المكان. تخطت بركة الدماء رافعة طرف ثوبها، ووقفت بين صناديق الغنائم وهي تسأل:

- ما الذي حدث هنا؟

انحنى جان الصقار، وانصرف حاملاً الطير الجامح، وعلى مهل ووبرود التفت زوجها، والتقت أعينها، كانت تعلم أن مخاوف الليلة الماضية باتت حقيقة. جلس غازي على كرسيه، وقال بهدوء:

- إحدى الأسيرات قتلت قائمقام كفر البردقوش...

توقف عن الحديث حين دخل الخدم إلى القاعة منكسي الرؤوس، حاملين الدلاء والماسح لتنظيف الأرضية، رمقهم بنظرة متفحصة وتابع:

- طعنته البربرية بخنجري، كان بمقدورها قتلي أنا، ولكنها آثرت موته.

- من أي البلاد هي؟!

- أرض موحشة وراء بحر الرمال، تُسمّى غابة الظلال، قومها هم قتلة الأمير راجي وسليمان ناب، وأمرت بقطع رأسها ونبي جلدتها، ليست لي حاجة بهم، وكذلك سأفعل بالمهرطق.

- أظن أن عليك محاورتهم وفهم دوافعهم من دون تعذيب وإراقة دماء.

- ليس لدي وقت لهذا، يتعين عليّ الخروج إلى المرقد حيث يجتمع حملة راياتي، ولن أترك ورائي مثل هؤلاء المتوحشين أحياء، حتى لو كانوا مكبلين في زنازين تحت الأرض. عليّ الذهاب وإعادة الهبة إلى المملكة، لن أنتظر أن يقدم مزيد من الحمقى إلى هنا.

- يمكنك البقاء وإرسال الجيوش إلى أرجاء البلاد.

- بل يجب عليّ الخروج على رأس الجيش، لن يقضي أحد على هؤلاء الخونة سواي، ولتر كل بلدات ومدن وقرى تلال الشمس من هو الأشرف غازي سلطان الزمان. القوة وحدها من تحكم يا نوران. ستكونين أنت الوصية على العرش وحاكمة المدينة في غيابي، لا أثق بأحد سواك.

ابتسمت ممتنة:

- مولاي، هذه المرة الأولى التي تكلفني فيها بشيء.

- أنت سلطانتى، ومحبوبتى، وأهل الزرقاء بحاجة إلى حكمتك. سيبقى المبجل قيदार إلى جوارك، الرجل أصبح هرمًا على حوض المعارك، التي يبدو أن أمامي الكثير منها.

قام عن كرسية وهو يتابع بضيق:

- لا أذكر متى حظيت بنوم هادئ، أشعر كأنني كنت أركض لعشرات السنين من دون توقف، والآن أنا بحاجة إلى النوم، هل ستأتين معي؟

ردت بلطف:

- نوميًا هانئًا. سأذهب إلى كشك الطيور، لديّ الكثير لأفعله.

بقيت السلطانة في القاعة حتى انتهى الخدم من تنظيفها، وحملت الكنوز لتوضع بخزائن القصر، ومن النوافذ العليا انسابت أعمدة من نور النهار حول العرش الجاثم في الظلال، كم شهدت الشمس من قصص لأناس عمروا هذا المكان، خمسة سلاطين من بني الأزرق حكموا تلال الشمس من هنا، جميعهم دُونت قصص بطولاتهم، ورسمت على جداريات من فسيفساء، بيضاء يتداخل فيها كل درجات الزرقة. زوجها هو السادس في ترتيب سلالة محاربة يخافها الجميع، وليست هناك جدارية تصور أمجاده، ولكنه لم يُحْض أي حرب من قبل. عشر سنوات من السلام هي عمر حكمه، وهو محق بنزوله إلى ساحة الوغى لأجل مجده وإرث أسلافه، وهنا في هذه القاعة مات منهم الكثيرون، يُسمّى العامة الواقعة بـ«يوم هلاك العقبان»، كلهم ماتوا دفعة واحدة بسم زعاف، ويقولون إن أرواحهم ما زالت تحوم في القاعة وأرجاء عش العقاب، واليوم أضيف إليهم شبح جديد، لرجل جاء من أقصى البلاد طامعًا في المجد، ولم يلقَ إلا الموت.

نفضت الكآبة عن روحها، وأخذت تدور في القاعة، ربما عليها تغيير ألوان الأعمدة ورسوم الجدران، وإضافة مزيد من الثريات والتماثيل، وما دامت ستجلس على هذا الكرسي يمكنها تغيير الكثير من الأشياء. لم تطمح إلى ذلك من قبل، ولا توقعت تكليفه لها. منذ أن جاءت إلى هنا وأيامها متشابهة إلا قليلاً، آن لها أن تؤدي واجبها بوصفها زوجة وسلطانة حقيقية، عليها أن تبحث في أسباب تمرد أهل المدن على زوجها، وأن تبدل صورته وسيرته في نفوس الخلق، يقع على عاتقها الكثير في غيابه ولن تحذله، وستحفظ العش حتى يعود مكللاً بالنصر والمجد. خرجت إلى بهو الاستقبال، ومعها وصيفاتها اللاتي فتحن أمامها الأبواب، مرت بأحد الأروقة وتناهى إليها نحيب وبكاء، أشارت إلى وصيفاتها فتوقفن، ودلفت إلى حيث وُضع القائمقام الميت، ممدداً على تحت مدثر براية بني الأزرق، لم يُغَطَّ وجهه الشاحب، وإلى جانبه أرملة التعسة، سال كحلها بدموع مُقل محمرة لا تنضب. رفعت رأسها، قالت والأسى يذبحها:

- ليتنا لم نقدم إلى هنا!

لم تجد نوران في حلقها أي أثر للكلمات، كم تكره المآثم وكدرها! تقدمت وربتت على ظهر المكلمة، وتحاشت النظر إلى وجه الصريع، ترددت في أن تقول شيئاً، لكنها أجبرت لسانها على النطق:

- أعلم أن كلمات المواساة لن تفلح في تخفيف الأمر عليك، ولن تجلو غمامة الفقد عن فؤادك المفطور، لكنها الحياة حيث الخسارة محتومة أمام الموت الذي هو مصيرنا جميعاً.

نظرت إليها روز، ودمعها نهر جارٍ لا يتوقف:

- كان سيدي ومحربي الذي رفع مقامه بين الناس، أمير الذي انتشلني من الهوان ومطامع الأندال. لم أشعر يومًا بأني امرأة سعيدة إلا بجواره، وهذه المتوحشة سلبته مني، لم يكن لي أحد سواه، ماذا عليّ أن أفعل الآن وقد بت وحيدة غريبة من جديد؟!

- هوني عليك، ما اسمك؟

- لطالما أحب مناداتي روز، وحين يكون رائق المزاج يناديني، وردتي.

- يجب أن ترتاحي ريثما يتسنى لك حضور مراسم دفنه مع الشروق. أمر السلطان أن يشيع إلى المقابر الملكية إلى جوار الملوك الراحلين.

- لا أريد إلا البقاء إلى جواره.

- هذا لن يغير شيئًا، عليك إراحة بدتك وعقلك، وقبل هذا كله قلبك.

ذابت الكلمات على لسان روزاليندا، لم تتعد هذا اللطف من الأسياد، وهي التي عاشت عمرها جارية تُباع وتُشترى، إلا أن حديث السلطانة الرقيق بث في نفسها شيئًا من أمان، وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يثنها عن البقاء بجواره، ما دامت تلك الليلة الأخيرة التي سترها فيها، عليها أن تبقى إلى جواره، وبتفهم تركتها شمس الشموس التي نال منها شعور بالشفقة على الجميلة الباكية. انصرفت تاركة الأرملة البائسة لترحها، ورجعت إلى وصيفاتها وداهمتها رجفة وهي تعبر الفناء إلى مجلسها بكشك الطيور، وعند تمثال العقاب الكبير تذكرت جاد الصغير، وسألت نفسها هل سيعود جاد أم سيبتلعه البعاد؟ وأي غمة حلت على دارها ونفسها وسلطانها العزيز؟ والفقْد في قلب الصهباء المكلومة مُعد، وتخشى أن تخسر هي الأخرى زوجها.

أودع الأسرى بالزنازين أسفل عش العقاب، ووحتها سيرين ألقى بها إلى حبس ضيق رطب، ويزعج ظلامه وهج يتسلل من أسفل الباب، يتناهى إليها حديث الجند، وبالكاد تفهم منه شيئًا، لكنهم غريبة إلا أن بعض كلماتهم تعرفها. تشعر براحة غريبة تملأ روحها، وتمتد في نفسها: «ما زالت لنا في الحياة بقية يا صغيري، أعلم أنك تسمعي، ولا أدري ما الذي ينتظرنا، لكنه لن يكون بسوء ما قد مر. أتعرف، لم أظن أنني شجاعة بما يكفي حتى أمسكت مقبض الخنجر وغرزته في قلبه، فأمك أجب من أن تقتل نفسها، وظننت أن بقضائي عليه سينتهي أمري. أعلم أنك غاضب مني، وأشعر بتقلباتك، وأسمع نبض قلبك. إننا بعيدان عن الديار، هناك بحار ورمال وبلدات ومدن، ووحوش في هيئة أناس، وكنا نظن من قبل أن حدود عالمنا تنتهي عند حدود غابتنا».

قصت على مضغتها قبسًا من حياتها، وكيف عاشت مع أهلها، وأيا كان المصير الذي ينتظرها فهي راضية، سعيدة بفعلها وقتلها للبرغوث بضربة واحدة، لو يعلم كتيبي بصنيعها لتفاخر بها بين القبائل، هي زوجة أمير الرمح الفضي، الذي سيبحث عنها ما دام فيه نفس الحياة. لقاؤهما الأول كان قرب هضاب البدء عند نبع الإله، وقبيلتهما في عداوة، إلا أنه ساعدها بلطف ومنحها صيده توددًا، ثلاث أسماك سلور اصطادها برمح، وكانت سببًا في حبها له. منحته قلبها وهام عشقًا بها، ومع تعنت أبيها لم ييأس في طلب الزواج بها، كم تفتقده وتشتاق إلى دارها وبحيرة الحوريات في قرية الرمح الفضي، والتسكع والصيد برفقته تحت ظلال

أشجار السنديان في غابة الظلال. اختلج بداخلها الكثير من المشاعر والأمنيات، وهي تتذكر النيران تلتهم مملكة أبيها، تمت لو أنها داخل حلم ستفيق منه حتمًا، وليت ما نرجوه يحدث دومًا. علمتها الحياة أن كثيرًا من الأماني مصيرها النسيان، ولكن لا ضير من أمنية أخيرة في ليلة قد تكون آخر ما تعيشه. بات الفقد يتوطن روحها، والأمل ينساب مع دمعها غصباً، ينسل ببطء لكنه لم ينفد، ولا قوة لها ولا شيء آخر لتفعله إلا الغرق في بحر الذكرى.

لم تكن الوحيدة الساهرة في تلك الليلة الطويلة، نال الكدر بسطوته من قلوب سكان القصر ذي الأروقة الخالية. فوجئ الحرس بسلطانهم يجول في الممرات حاملاً زجاجة خمرة، خفضوا رؤوسهم، وضربوا مواضع قلوبهم بقبضاتهم، تيقظوا وانتبهوا من بعد تراخ، وفتحوا الأبواب أمام مهابة خطاه وتجهمه. وعلى ضوء المشاعل وقف بمنتصف بهو العرش، خيل إليه أن الدماء تغطي الأرضية، دار ببصره في زوايا المكان قبل أن يتطلع إلى الكرسي، يستطيع إحصاء أسماء عدة كانت على سلم الوراثة قبله، عقد من الزمان مر على توليه مقاليد السلطة، لم يظن أن تحدث كل هذه الأمور في عهده، وذلك الوميض اللعين ما زال يطرق ذهنه، ويذكره بحوادث من الماضي، جث القتلى من عائلته تعج بها القاعة، يعرف وجوههم جميعاً نساءً وأطفالاً ورجالاً، هو الذي دبر موتهم من دون شفقة أو رحمة، ارتكب من الفظائع ما لا يستطيع نسيانه، ويدها ملوثتان بالدماء، ومن حوله العربات تحمل توابيت ونعوشاً، وقاتل هو فيه الطرف المهزوم، معركة مع ابن عمومته الأخير حظي فيها بندوب شوهدت وجهه إلى الأبد، ومر أمامه طيف المعالج الذي خنقه بيديه حتى لا يفشي سر جراح وجهه الممزق. لم يسفك كل هذا القدر من الدماء ويفني هذه الأرواح، إلا ليصنع سلالة من نسله، ويكتب تاريخاً يخلد أمجاده، ولأجل ذلك سيفعل المزيد.

أيقظ حارس مدخل السرايب بركلة، وقفز الرجل فزغاً خائفاً، عدل خوذته وفرك عينيه وهو ينظر إلى وجه سلطانه الغاضب، انحنى معتذراً متلعثماً، وارتاع حين أمسك غازي قفاه بعنف وقسوة:

- بنس الرجل أنت، هيّا افتح الباب اللعين، وابق متيقظاً، وإلا جعلت منك طعاماً لجوارح الطير.

بيد مرتجفة فتح الحارس القفل وأزاح المزلاج، أخذ السلطان أحد المشاعل، ودفع الرجل إلى السرداب قائلاً:

- كيف يبقى قائد الحرس رجلاً واحداً لحراسة الزنازين؟!

- مولاي، إنها المرة الأولى التي نستخدم فيها سجن السرايب. إنها متاهة من الممرات المتداخلة، لن يستطيع أحد الهرب منها...

أمره بالصمت، فماتت الكلمات في حلق الرجل. مشيا عبر النفق الصخري يشقان الظلام حتى القبو الكبير، المكان بارد، والمشعل الوحيد يقاوم الخمود. هرع الحارس في إشعال مصابيح الزيت المعلقة في زوايا القبو، وانكشفت ستة أبواب متقابلة، ومدخل ممرين في آخر القبو. سأله غازي متأففاً:

- أين يقبع ذلك المجنون؟

من دون أن ينطق حث خطاه، ووقف أمام زنزانة إينال، وفتح الباب مع إشارة السلطان، وسبقها الضوء

إلى الزنزانة ليكشف عن جسد مدمى معلق على الجدار من يديه، لم يرفع رأسه ليرى القادم، ظاناً أنه ميت حتى هز رأسه وهمهم بكلمة ما، دخل غازي رافعاً المشعل، وأخذ ينظر إلى حال أسيره، مسجى متورم العينين بالكاد يفيق، لطمه غازي قائلاً:

- أنت، أيها المهرطق.

أفاق إينال قائلاً بتهدج:

- نرغال، هل عدت؟!

ردد السلطان الاسم باستغراب، ودخل الحارس الأحمق متجاوزاً إياه ولكم إينال بقوة صائحاً:

- أفيق أيها المخبول، أنت في حضرة سلطاننا الأشرف...

لم يكمل الرجل كلمته، جذبته بقوة ودفعه إلى جدار الزنزانة، نظرتة كانت كافية ليرتعب ويخرج مطأطئاً رأسه، ووقف هو أمام إينال سائلاً:

- من نرغال هذا؟

ردّ إينال بنبرة قوية على الرغم من أوجاعه:

- ماذا تريد يا ابن الأزرق؟!

- بل ما الذي تريده أنت؟ ولماذا قمت بتمردك هذا؟ أتريد جاقاً، مُلكاً؟

- لأجل العدل، والمحبة والسلام، وأن تسود كلمة الخالق، وينعم عباده بالخلود.

- خالفك هذا هو من أمرك أن تخرج عن طوعي وسلطاني؟

- لا، وإنما الخائن بين السبعة، الكاذب الذي يريد أن يحظى بكل شيء، من انقلب على القدير وخدعنا، والآن يدعي أن الديانة لم تكن سوى سبيل ليبلغ مبتغاه. لن يغفر واهب الصياء أكاذيبه وافترائه على جلاله.

- من هذا؟

- نرغال، الذي سيقتلكم جميعاً.

بهدوء ألقى جملته، وأتبعها بنوبة ضحك، ثم بكاء ونحيب، هل جنَّ الرجل من ليلة واحدة قضاها في الظلمة، وهو الذي حسبته أكثر صلابة وعناداً وإيماناً بما يعتقد ويخطط؟! شعر غازي بتوتر وضيق يملآن صدره:

- اسمع يا هذا، إن كنت تريد الخروج من هنا حياً، فعليك مساعدتي وسأعفو عنك، سأعوضك عن كل هذا العذاب، أخبرني بما تعرفه عن ذلك الرجل الذي تذكره، وما قصة القرص المسحور، وإلى أين أرسلت أتباعك.

أجاب إينال بحسرة:

- لا قيمة للحياة الآن، فات الأوان!

كرر جملته الأخيرة مرتين، وكانت إجابته الوحيدة، لم ينل غازي غيرها، وألحت عليه نفسه بأن يقرر بطنه، أو ينهي حياته بطعنة واحدة بموضع قلبه. اعتصر قبضته وحجم غضبه قائلاً:

- أتعلم يا إينال، في الصباح سيضرب الجراد عنقك، وبعدها سأخرج لاصطياد أتباعك أينما كانوا، وسأحرص على أن تُبتر ذريتك، ولا يبقى لك أثر ولا ذكر.

لم يُجبه إينال الذي أخذ يتمتم بكلماته غير المفهومة، مما جعل السلطان يضيق ذرعاً به، وما كانت محاولته تلك إلا فرصة أخيرة ليحصل على إجابات لما يؤرقه. خرج وأغلق الحارس الباب من دون أن يرفع عينيه إلى سيده الذي أخذ ينظر إلى بقية الأبواب:

- أين تلك البربرية القاتلة؟

تحرك الحارس بخفة إلى الباب الأقرب إلى ممر الخروج، انتظر حتى شرب سيده ما تبقى من زجاجة خمره وألقاها جانباً، وبعدها أشار إليه ليفتح القفل. وجدها يقظة جالسة تسند ظهرها إلى الجدار، واضعة أمامها يديها المكبلتين، غشي الضوء عينها فلم تلاحظ وجهه، تقدم نحوها ووجهه يتضح لها رويداً رويداً، ظل يتطلع إليها على ضوء المشعل. عيناها الخضراوان تشعان شراسة، بينما تنكمش على نفسها إلى الجدار، قطعة برية متوحشة في زاوية قفص صياد. توقع السلطان أن تهجم عليه أو تحمسه، وربما تحاول قتله كما فعلت بقتيل الصباح. إنها جميلة على الرغم من شقاء هيئتها، ولم يظن أن بين ساكني الغابة هناك جميلات مثلها. سأها بلكنة أهلها:

- ربما كان يستحق ما فعلته به، كلنا لدينا أسبابنا لفعل أشياء فظيعة، ونجد لأنفسنا الكثير من المبررات. أليس كذلك؟!

بدت عليها الدهشة، واكتفت بإيحاء، فتابع حديثه بنبرته الرخيمة:

- ما اسمك؟

ردت بثقة وعزة:

- أنا الأميرة سيرين بنت ماندوكان ملك النل الدموي وحامي نبع الإله.

- بنت ملك إذن، ظننت أن أرض تلال الشمس ليس بها ملك سواي.

- إننا الموارنة، أهل غابة الظلال وساكنوها قبل أن تقدموا أنتم.

عقد حاجبيه وهو يتطلع إليها، وقال ببرود:

- لم آتِ هنا لتتحدث عن تاريخ الأرض ومن جاء قبل من. هل صدق ذلك القتل حين قال إنه أفنى قومك؟

أومأت برأسها بأسى. اقترب منها قائلاً:

- انهضي.

ترددت ونظرة زجر من حارسه الواقف وراءه كافية لتنهض، قامت بصعوبة والإعياء ينال منها، وبطرفي عينها رمقت الخنجر في حزامه، وحين استوت أمامه وجدته يبتسم بخبث ورائحة الخمر تفوح منه:

- نعم هو الخنجر نفسه الذي طعنك به القائمقام، تريدان فعلها ثانية أليس كذلك؟ أعلم ذلك الشعور بالنشوة بعد أول قتيل لنا. تريدان فعلها مرة أخرى، هيّا حاولي.

فكرت في الأمر، وعدلت عنه سريعاً، مظهره يخيفها ونظراته أصابتها برجفة، تدرك أنه مخمور وغاضب،

اقترب منها وهو يشهر خنجره، وودت لو تلقي جسدها عليه لتصرعه أو يقتلها، ولكنها جنت، وبطرف الخنجر قطع الوضيع الأسمال عن كتفيها، سقط الثوب المهترئ وتعرى جسدها، وكادت تهوي إلى الأرض لتلتقطه، لكنه قبض على عنقها بقوة وقسوة:

- إياك وفعل أي حماقة.

هزت رأسها وهي تحاول التنفس بصعوبة. أفلتها، وقطع الحبال التي تكبل يديها. دهشت وكذلك حارسه الفاجر فاه من خلفه، أراد رؤيتها كاملة وذراعاها كانتا تحجبان ما يود النظر إليه، أجهشت بالبكاء ووضعت كلتا يديها على بطنها. انزوت إلى ضيق زنزانتها، تعجب السلطان من فعلها، إذ كان الأولى أن تخفي ثديها وما بين ساقها! عقد حاجبيه، وأخذ ينظر إليها مستغربًا، كان الثوب المهترئ فضفاضًا يخفي تكور بطنها وانتفاخه. اجتاحتها الظنون، قبل أن يميل ناحيتها وهو يمد يده بحذر إليها. وبروية أزاح يديها المرتجفتين. لم تقوَ على فعل شيء، وهو يلمس بأطراف أنامله بطنها المكور، وما إن استقرت يده عليه، حتى تراجع فزعًا، تتسارع أنفاسه، إذ شعر بشيء يتحرك بداخلها، فتطلع إلى وجهها الممتقع، وفهم لم هي خائفة!

غادر غازي الزنازين بعد أن أفاق من سكره، وحارس السرايب الغبي يحاول استيعاب ما حدث، لا يفهم ما الذي جعل سلطانه يعدل عن مضاجعتها، وهو الذي منى نفسه بأن يرى شيئًا مثيرًا، أو أن يتركها له بعد أن يفرغ منها! أغلق على سيرين الواجحة باب زنزانتها، ووضع القفل. غرقت في الظلام ولا تصدق أنها نجت، وهذه المرة بفعل صغيرها الذي تقلب في أحشائها، حركة أثارت في نفس السلطان شيئًا من رهبة. للمرة الأولى في حياته يناله هذا الشعور، الذي جعله يعدل عما كان ينوي، هرب مذعورًا إلى فراشه حيث تغفو زوجته، نوران، أراد أن يوقظها، ويخبرها بما حدث في الأسفل، يخشى أن يقتل أمًا وفي بطنها جنين، ولكنه أثر السكوت، وهو يتذكر كلمات حفظها عن جده المعظم ذي العين الزرقاء: «إن السلطان الحقيقي عليه أن يملك ثلاثة: العقل، والعدل، والسيف، وعليه أن يخشى ثلاثة: الجنون، والظلم، والخيانة».

تغافل كثيرًا عن واجباته كسلطان حقيقي، وأسند الأمر إلى غير أهله، ولاة، وجُباة، ودواوين استشرى فيها الفساد، ونبت في زوايا مملكته قُطَاع طرق برابرة، ومهرطقون يدعون إلى دين جديد، وعصبة من عائلات الساحل لم تُعد تخشاه. عليه أن يستعيد رباطة جأشه وجبروته، وأن يتقدم إلى أوكار أعدائه وجحورهم ليمحوهم من دون شفقة، ولا ينفي هذا شعوره بوحدة شديدة تفتك به، كل رجاله ذهبوا جنوبًا، ولم يعد منهم أحد، لم يتبقَّ سواه لمجاهة المشعوذين من أتباع المجنون، وعصابات برابرة الصحراء والغابات. أطرق وتمتم: «أيُّ لعنة حلت عليَّ؟!».

في الطابق السفلي من القصر، احتضنت روزاليندا جسد سعد مكفَّنًا بالحرير الأزرق، بعد أن انتهى الكهنة من تقطيب جرحه وغسله. وضعت رأسها على صدره، أنهكها الحزن، واغتال روحها الهم والخوف من مصير تجهله. خسرت إلى الأبد بعد أن منحها حرقتها، وجهر أمام الجميع بأنها زوجته، عروس لم تزف أضحى أسيرة الفقد والأسى، مَنْ لها من بعده؟! أنقذها من بين يدي اللئيمة رقية، وجعل منها سيدة حرة

ترفل في أفخم الأثواب، وتترزين بأرقى الحلي. ستعود غانية تتلقفها الأيدي، وتتبدل تحتها المضاجع، وتفتح ساقها لكل حقير. منذ نعومة أظافرها وهي تُباع وتُشترى، لا تعرف لها بلدة ولا أهلاً، والآن رحل سعد الذي كان جل أهلها، مَنْ أغدق عليها وافر محبته وكرمه، لم تظن يوماً أنها قد تحب أحداً بهذا القدر، بالكاد تذكر بدايات حياتها وهي طفلة تخدم في بيوت اللهو. كم تمت أن تكون لها ذرية وعيال منه، وتشيح إلى جواره في دار هادئة على ضفاف نهر أو على حواف غابة، لم تطمح في أكثر من ذلك، أن تكون بجواره وتحت طاعته وحمايته، تسامحه على قوله إنه سيهديها إلى السلطان، طرفة لم تُرق لها في حينها، والآن ما الذي يمنع السلطان من الحصول عليها؟! تذكرت نظراته وهو على عرشه والشهوة تقطر من عينيه، إنها ضعيفة من دون حبيبها، ولا يمكنها تعويضه، وحيدة لا تملك لنفسها نفعاً، ولا يسكن فؤادها سواه. لا تريد العودة إلى ما كانت عليه، ولم تتبقَّ في جعبتها آمال وأحلام. فتحت عينها، ونظرت إلى وجهه وهي تتحسس ملامحه، قبّلت شفتيه الباردتين، وقالت هامسة وهي تخرج من طيات ثوبها خنجراً صغيراً:

- لا حياة من دونك!

ذبحت معصمها الأيسر بقطع شديد العمق نال من شريانها، وتفجر الدم فيضاً، وكذلك انهمر دمها، وبصعوبة فعلت المثل في معصمها الآخر بقطعين، وارتجفت يدها ليسقط الخنجر. لن يفرقها شيء حتى لو كان الموت، ستلحق به إلى عالم الموتى وتكون إلى جواره، فلا حياة من دون أمانه ودفعته. وضعت رأسها على صدره مرة أخرى، والدماء تقطر على كفنه وتنساب إلى الأرض. استكانت روزاليندا، واستسلمت إلى مصيرها وهي تتذكر ما كان بينهما من وله ورغبة، هو حبيبها وسميرها الوحيد الذي لا يعوض. ارتحى جسدها، وباتت النهاية على بعد شعرة منها، وبريق الحياة يخبو في عينها، لن تذلل، ولن يمسه أحد بعد اليوم. خفتت أنفاسها، وأحست بأن قلبه ينبض. رفت جفونها، أكان حقيقة ما سمعت أم وهم احتضار؟! حاولت مقاومة الظلام الذي يدهمها وقد أنت ساعته. وفي اللحظة التي تغادر روحها جسدها البارد، شعرت بأنفاسه، وسمعته يتمتم باسمها:

- روزا، وردتي.

الصقارة مدينة الطير، ولا يخلق في سمائها منها شيء. عتيقة بُنيت على الضفة الغربية لمخاضة النهر الكبير، أقدم من زمن بني شمس بآلاف السنين. كانت أطلاً مهملة لم تعمر ولم يعلُ بنائها إلا في زمن جاد المعظم، جوها المعتدل جعل منها قبلة مربي جوارح الطيور. نمت وازدهرت أسواقها لتصبح أكبر سوق للطيور والتوابل في أرض التلال، وتُعد مقصد الأثرياء والرحالة والتجار والباحثين عن غرائب الأشياء. منازلها وقبائها زاهية بمختلف الألوان، وشوارعها ممهدة مرصوفة، وأشجارها كثيفة الأغصان، وقنوات مياهها جارية بخيرير يؤنس الأحياء، أما ساحاتها فمزدهمة، وخاناتها لا تفرغ من المسافرين، وفي جهتها الشمالية قرب باب الشلال تقع الأحياء الفقيرة، وحلبات مصارعة الديوك، ومضمار سباق الكلاب. ينتشر فيها المرابون والمقامرون والرُّحَّل الباحثون عن الثراء، وحانات مكتظة بفائزين وخاسرين أعيتهم كثرة الشراب، وغانيات أكثر حظاً من مثيلاتهم في كل الربوع، وافرات الحسن، ثيابهن من حرير وریش. تمايلت إحداهن وهي تعبر الطريق قاصدة أحد المسافرين، وسيم يجمع شعره كذيل أرنب صغير، وله لحية مشدبة، للتو نزل عن صهوة جواده النبيل الأكحل مضفر العرف. وقفت بقربه سائلة برقة:

- هل يحتاج المسافر إلى فراش وثير وصحبة تمحو أثر الترحال ومشقته؟! -

تفحصها النردى من قدميها إلى منابت شقرة شعرها، وزمَّ شفتيه:

- ربما في وقت لاحق أيتها الجميلة!

تجاوزها غير مبالٍ إلى كشك الرهانات، دفع للقيّم ثمن الولوج، وأودع أغراضه. فُتحت له الأبواب، وتبدلت الدنيا من حوله، غاب ضوء النهار، وأنارت المكان شموع الثريات، صخب يغشى الأجواء، مزيج غناء وعزف تتخللها صيحات وسباب، ديوك تتصارع، وعاهرات يتمسحن ويتغنجن. استقر به المقام عند إحدى الحلبات، وطلب قدح مزر كبيراً، ثم ألقى ثلاث عملات فضية في دلو المقامرة. راهن على ديك أحمر هزيل صغير الحجم معدوم الفرص، أمام منافس أصلع العنق ضخم الصدر يتدلى عرفه على جانب وجهه. جلس النردى على كرسي قريب رافعاً ساقيه إلى الطاولة، منتظراً اكتمال نصاب الرهان، يرتشف شرابه، ويقلب يده المضمدة أمام عينيه. أخذ يفك ضمادة الأربطة، رفع يده لينظر إلى حروق أصابعه، مرت أيام ولم تتحسن، ولا تفارقه الحيرة، لا يدري إن كان لقاؤه بذلك الضرير حقيقة أم مجرد حلم استيقظ منه ليجد يده قابضة على حجر النار! حرَّك أصابعه، وحال الألم دون أن يضم قبضته. كان وحيداً في عزلة روحه شاردًا، يشعر بالإرهاك، ويحاول نسيان ما يرى من رؤى غريبة: ضباب كثيف، ومخلوقات مخيفة، أعينها حمراء مشقوقة بالطول، وجلودها تضوي بريق كالقטיפه، تحمل تروساً ناعمة كالزجاج، وتختلف أسلحتها، بينما تراق دماؤها السوداء القانية، وفي أحيان أخرى يرى هلاكاً وحرائق وحمماً تجري.

تجرع ما تبقى في القدح دفعة واحدة، وأعاد ربط الضمادة على يده. عليه زيارة سوق العطارين بحثاً عن

علاج قبل أن تداهمه الحمى، وانتبه حين نادى قيّم الحلبة معلناً بدء المباراة. وحده من راهن على الديك الأحمر الهزيل، بينما امتلأت دلو منافسيه. أخذ الطائران يدوران حول بعضهما، ينفشان ريشهما، ويطلقان كركرة تأهب. بدا الأصلع أكبر حجماً وقوة وثباتاً من الآخر ضعيف البدن، اشتبكا في عراقك دموي بالمخالب والأقدام، ومنقار كل منهما يحاول تسديد ضربة إلى رأس الآخر، غبار وريش وصيحات وضحكات تقترن بعراك دموي، الأصلع أقرب إلى الجوارح منه إلى الديكة، والهزيل أثبت أنه خصم لا يستهان به، فقد استطاع التملص مراراً من برائن منافسه، والجمع فرح ينتظر لحظة النهاية، وبعد عدة مناورات استطاع الهزيل أن يقتلع جزءاً من عرف منافسه الذي يطبق عليه، بدت محاولة يائسة للتملص! وفي اللحظة التي أفلته الديك الضخم، انقض الديك الأحمر مهاجماً، فاتحاً جناحيه وريش ذيله، وكل ما فعله هو نقرة واحدة بين عيني الأصلع النازف ليسقط ميتاً.

بصق الخاسرون على جثة رهانهم الخاسر، ونهض هارون متجهاً إلى دلو المقامرة، وبرود فتح كيسي نقوده وراح يملأهما، بدا للمهزومين كأنه يعلم بفوزه سلفاً، لا يظهر فرحة أو دهشة، ورمى سبع قطع فضية إلى مالك الديك الفائز واثنين إلى الساقى، وخرج إلى الهواء يتنسم ضياء النهار، يعرف خاناً جيداً يمكنه أن يحظى فيه ببعض الهدوء والراحة، لا يريد أكثر من غرفة ذات مسبح وفراش وثير. أخذ بلجام خائل الذي سهل لعودته، وأقطع السائس فضية، يسعده أن يرى ابتسامات البسطاء وفرحتهم بكرمه. وتناهى إليه أن صوتاً خشناً مشحوداً يستوقفه، التفت ليجد امرأة مسنة، نحت الزمن تجاعيد وجهها بغلظة: عيناها غائرتان قصيرتان، ووظائفها صبغت بحناء لم تفلح في إخفاء شبها، تتكى على عصا طويلة مزينة بالخرز والريش. بريبة سألها:

- هل تقصدينني؟

بصوت أقرب إلى ثغاء الماعز ردت:

- هل لك أن تساعد عجوزاً تقطعت بها السبل، ولا تريد سوى وجبة غداء تنقوت بها.

ابتسم وهو يتذكر آخر غريب عطف عليه وساعده، وكيف انتهى بهما المطاف، ما زال حائراً في أمره إن كان حقيقة أم محض خيال! وهذه شحاذة نبيهة تدرك أن أكياسه عامرة، مد يده إليها بقطعتين فضيتين، وبدلاً من أن تتلقف عطيته وصدقته، قبضت على معصمه بقوة، وقالت:

- مسك السواد بناره يا ولدي.

جذب يده متراجعاً بقوة والرغبة تعتريه، وهي تكمل:

- لا تخف، ما زال قلبك نقياً يا هارون.

تطلع إليها بحذر لا يخلو من خوف:

- من أنت؟ وكيف تعرفين اسمي؟!

- لا تلتفت الأنظار إليك فيظنونك مجنوناً، وفي الصقارة الجميع مترصون، ويبدو أنك محطوط بنجارك من برائن لهبه وظلمة سحره.

- عمّ تتحدثين أيتها الشمطاء الخرفة!

أشارت إلى يده وابتسمت، وزادها كحل عينيها رهبة:

- الذي أحرق أصابعك.

اعتصر هارون قطعتي النقود في قبضته، وتلفت حول به حذر قبل أن يقترب منها:

- أيُّ لعبة هذه التي تلعبونها معي؟! من أنتم؟ ما الذي فعلته ليلاحقني مجموعة من المسنين المجانين! اغربي عن وجهي، هنيئا. اذهبي من حيث أتيت.

ألقي قطعتي النقود تحت قدميها، وامتطى جواده بقفزة. شد اللجام ليدور الجواد بخيلاء حول نفسه، والمرأة تقول بينما يمضي:

- النجوم لا تكذب، والندرد متقلب!

لم يلتفت كأنه يخشى ألا يجدها فتزداد مخاوفه، ولكز الجواد ليسرع الخطى، وانتهى به المسير على عتبة خان «عصافير البهجة»، قصر قديم أعيد ترميمه ليصبح نزل النبلاء المفضل. عند الحظيرة ترجل، وأوصى الخادم بإطعام الجواد وتنظيفه، ولفتت انتباهه رهوانة مبقعة فائقة الجمال، بالكاد سلمها صاحبها إلى صبي الإسطبل. غادر هارون المكان إلى بهو الاستقبال حيث دفع لثلاث ليالٍ مقابل الغرفة التي أراد. كان يتوسط الغرفة حوض مياه باردة معطرة، تطفو على سطحها بتلات الورد، ومبخرة ينبعث منها شذا الياسمين واللبان، وكان هناك عشاء دسم من شرائح لحم النعام المحمر بدهن الضأن مع خبز الزعتر الهش، بالإضافة إلى طبق عصافير مُتبّلة ومشوية، وزجاجة نبيذ كرم معتق، جعلت الطيور المرسومة على الجدران تحلق في سماء الغرفة! متعب أعياه الترحال، وتلك الإصابة اللعينة. أكل ولم يُبق بالأطباق شيئاً، ثم خلع ثيابه، ونزل في الماء، يحمل جسده الكثير من الندوب، وما كان ينقصه سوى أن تُحرق أصابعه! أزال الأربطة، وتأمل يده قبل أن يغمسها في برودة المياه، وتغلغل الألم يكوي قروحه. فكّ رباط شعره، وأخذ شهيقاً عميقاً، وغطس هارباً إلى حيث السكون، لكن صوت المرأة العجوز تردد في أذنيه. خرج من الماء فزعاً يتلفت، ولم يجد أحداً.

هوى إلى عمق بركان يغلي مع شلالات من حمم، وأخيراً ارتطم بجزيرة صغيرة من صخر أسود، لا أحد سواه ولا أحد ليناديه وينقذه! استيقظ لاهثاً يخنق، وحيداً حتى في أسوأ أحلامه، ليته حظي ببعض المتعة مع الشقراء التي عرضت خدماتها عليه في الصباح. لا يدري كم لبث نائماً! زجاجة شرابه فارغة وحلقه جاف. نهض مرتدياً ثيابه، ودس كيسي نقوده في حزامه، بحث عن فردة حدائه، وثبت خنجرًا صغيراً في غمد مخفي على ساقه. خرج، بعد أن غسل وجهه، إلى فناء الخان المسقوف بكرمة مورقة، وفي زواياه أقفاص عصافير مغردة، وعلى وسائل وثيرة جلس نزلاء المكان. غريب هو بهيئته وثيابه عنهم، كانوا نبلاء مترفين يرفلون في ثياب فاخرة زاهية الألوان، وتعج أطباق مجالسهم بأشهى الأطعمة والحلوى. وجد لنفسه مكاناً في الزاوية البعيدة، وجاءه الخادم مبتسماً، حياه وسأله بوداً:

- سيدي، هل تحب أن تتناول الغداء الآن؟

- بل زجاجة من عرق توت بستان الجياد الفاخر.

كان بحاجة إلى شراب لاذع ينسيه كوابيس نومه ويقظته. أسند ظهره إلى الجدار، وتأمل الطيور في محبسها، تحفق بأجنحتها الصغيرة متفادية بعضها، تتوق إلى الحرية ورحابة الدنيا، زقزقتها ليست غناءً، وإنما تبكي حزنًا، لعل قلب آسرها يرق ويطلق سراحها، وقلوب أهل الصقارة من صخر، يتاجرون في كل شيء من الجوارى إلى الطيور والبيض والريش وحتى العظام، يبيعون الفخاخ والمصائد والحبوب، ويدربون فراخ الصقور والعقبان والغربان والبيغاوات، وكذلك يروضون السباع وكل صنوف الحيوانات، ولا عجب أن يأتي الأثرياء من بقاع الأرض للتنزه في الحدائق الغناء، واللهو في مواخيرها وأسواقها، وشراء عجائب الطير. جاءه الخادم بما طلب. شرب وسأل نفسه عما يفعله هنا وإلى أين المسير، لا يدري ما أصابه منذ أن التقى ذلك الأعمى، وأخيرًا تلك العجوز بالأمس. ظل شاردًا إلى أن لمح في يد أحد القربيين منه لفافة جلدية، كان أمرًا عاديًا أن يراجع الناس خرائط سفرهم، ولكن تلك اللفافة لم تكن كذلك، إنها قديمة ومهترئة إلى الحد الذي يعاملها صاحبها برقة، رمى عينيه متلصصًا على تفاصيلها، وتبدلت ملامحه وهو يحاول نفى ما يراه، إنها الرموز الغريبة التي تغشاها من وقت إلى آخر! أطال النظر، وأشاح بوجهه حين رأى صاحب اللفافة يتطلع إليه. تظاهر بالانهاك في شرب عرق التوت.

أعرض عن هواجسه، وأخذ يقلب النرد بين أصابع يده السليمة، ويبدو أن اليد الأخرى أحست بغيره، فقد ألمته فجأة ألمًا شديدًا، وتذكر أن عليه الذهاب إلى سوق العطارين، لعله يجد عشابًا يعالج تلك القروح. نهض وسار بين المجالس مازًا على صاحب اللفافة، ورمى بصره بين يديه، تيسست قدماه ووقف واجمًا يتأمل الرموز، ما هذا؟ إنها كلمات يستطيع قراءتها وفك طلاسمها، لا يعرف كيف فعلها وهو ينظر إلى أحد الرسوم لشيء مألوف، رآه في إحدى الومضات التي تراوده، وفوقه على حافة اللفافة كُتبت كلمات واضحة ومفهومة الرموز، أو أنه يهذي، تتم:

- سيد النار!

- ماذا تقول؟

أفاق هارون على سؤال الرجل، ولوح بيده قائلاً:

- لا شيء!

خرج من الفناء على عجل، وصاحب اللفافة يتبعه منادياً:

- مهلاً أيها السيد.

استدار النردى إليه متجهماً:

- اغرب عن وجهي!

عاد إلى غرفته صافقًا الباب خلفه. أيُّ لعنة أصابته؟! كيف استطاع أن يقرأ الكلمات بهذه السهولة؟! لطم خده بقوة مرارًا ليتأكد أنه لا يهذي. طرقات على الباب جعلته يسكن، أهى حقيقة أم أنه جُنَّ؟! عادت

الطرقات مرة أخرى فسأل:

- من الطارق؟

- أنا من كنت معك ببناء الخان قبل قليل.

فتح هارون الباب متأففاً، وتطلع إليه:

- ماذا تريد؟

- أنا نيار العنبري. هل تسمح لي بالدخول؟!

- لا، هات ما عندك.

- أستطيع قراءة تلك الطلاسم؟!

أمسك هارون فجأة بتلابيبه، وقال بحدة مقاطعاً:

- ابتعد عني أنت وسحرك ولفافتك الملعونة.

أطال نيار النظر إلى وجهه:

- حسناً أنت الخاسر! أفلتني.

تركه هارون قائلاً:

- لم أخسر يوماً، ولن أفعل يا هذا. وحرى بك ألا تطرق بابي مجدداً.

مرة أخرى نال منه ألم أصابعه، لا يقوى على ضم قبضته هذه المرة، كأنه لا يتحكم في ذراعه. لم يعد إلى غرفته، بل أغلقها، ومضى يجر وراءه جبلاً من هواجس وأفكار. أيُّ لعنة رماها عليه ذلك الأعمى اللعين؟ قادته قدماه إلى سوق العطارين، وزكمت أنفه روائح التوابل والأعشاب والفواكه المجففة. دكاكين كثيرة ويتباهى أصحابها بطيور محنطة، وآخرون يضعون جماجم طيور ضخمة، وبينما يتجول في أزقة السوق رآها تجلس في زاوية قرب سبيل ماء منهمكة في حديث مع إحدى السيدات، حثته نفسه على تلافي ملاقاتها، لا يدري أيهرب منها أم أن اللقيا قدر! أخذ جولة أخرى متردداً في الدخول إلى أي عشاب، وأخيراً انقاد لفضوله وذهب إليها. ضحكت لرؤيته، وربتت على ظهر ضيفتها فنهضت راحلة، أشارت إليه ليجلس قائلة:

- النجوم لا تكذب، وأخبرتني أنك ستعود.

انحنى وركز على ركبة ونصف الركبة بجوارها وسأل:

- وهل لدى النجوم إجابات عن أسئلتني؟

نظرت في عينيه للحظة:

- تريد أن تعرف ماذا حل بك، أرني موضع وجعك.

تردد في حل الضمادة، ولكنه فعل باسماً يده إليها. تأملت يده وأنامله المشوهة والصديد الذي بدأ في

التجمع بين شقوقها. تفلت جانبًا، وقالت بلطف:

- اللعين حاول الولوج إليك من أصابعك! أما أنا فكنت سيئة الحظ حين قابلته.

- حدثيني بما أفهم.

- كل شيء في أوانه معلوم، أرح عقلك، ولا تُسلم روحك للظلام الذي يتربص بنا جميعًا. كنت أحسب أن أمره ومكائده اندثرت منذ سنين، وأنه تبخر ورحل من دون عودة، حتى رأيت قبسًا منه بداخلك.

- أتقصد الأعمى، نرغال؟

- أسماؤه عديدة، وهيئاته مختلفة، روح البشر والظلام الذي يجوب الأرض بحثًا عن جسد يستغله في الوصول إلى مبتغاه، وما انصرف عنك إلا لشيء جلل، أو وجد بديلًا.

- لا أفهمك، لكني لا أستطيع النوم منذ أن قابلته. تراودني رؤى، وتداهمني خيالات.

- ماذا ترى؟

- نيرانًا وأنهازا من حمم جارية، كأنني سجين مقيد داخل حفرة ساخنة، ومن فجوة صغيرة أرى كائنات لا تشبهنا نحن البشر، تتقاتل بوحشية وقسوة، وتراودني بين الحين والحين مناظر ورموز لكتابات غريبة، والعجيب أنني صرت أقرأها أو هكذا أحسب.

مالت إليه، وخفضت صوتها:

- هذا ليس أنت، إنما هو ينتظر تحرير جسده والخروج من زنزانتة، ولعلك رأيت قبسًا مما يعانیه، أما فهمك وقراءتك لطلاسمه فهما من إحدى الهبات التي حصلت عليها من قدرته، ولعلك تستكشف مزيدًا من القوة في الأيام المقبلة.

حكَّ لحيته، ونظر إليها طويلاً:

- وما الذي يجعلني أصدق قولك!؟

ضحكت العجوز، وهزت رأسها عجبًا وهي تخرج من جعبتها علبة صغيرة، وأخذت منها قدرًا من مرهم أخضر زيتي، ووضعت على أصابع يده، وراحت تفركه، وقالت بأسى تملك نبرتها:

- آه يا ولدي، يبجلني الناس في كل مكان أنزل به، أتدري لماذا؟ لأنني لا أقول إلا الصدق.

- ربما لم يكن لديهم خيار آخر.

- بل لأنهم سألوا والنجوم...

قاطعها وهو ينظر في عينيها الغائرتين:

- لا أريد إجابات النجوم، بل منك أنت.

- تتعجل معرفة كل شيء، ولكن لا بأس. أنا منجية، اسم محبوب ضمن القاب وأوصاف أطلقها عليّ الناس، عرّافة البوعاز، ساحرة منجمة، ومشعوذة مجذوبة مشردة، ولا يعلمون أنني سليلة عائلة نبيلة. كانت لوالدي مزرعة شاسعة وبساتين فاكهة قرب روابي المهديّة، وعشت حياة سعيدة مع إخوتي وأبناء عمومتي، حتى ظهر شاب غريب الأطوار، هارب مصاب في حالة برثنى لها، فتر من سخرة بني الأزرق كما ادعى، وقال إنه وُلد لأب محكوم وأم جارية من عين الشمس، ولم يذكر أكثر من ذلك، حينها كان اسمه سنارّي، أوّاه أبي، ومنحه عملاً وسقيفة قريبة من دارنا. مرت الأيام وأثار إعجابي وكذلك فضولي، وراودتني الشكوك حول عموضه، وكنت أوقن أنه يخفي أمرًا ما، وبدأ كل شيء حين اختفى أحد أبناء عمومتي ثم وجدناه مذبوحًا ومقطعًا في كهف قريب من مزرعتنا من دون رأسه، وحول أشلائه رُسمت رموز عجيبة، لم نشكّ فيه قطّ وهو الذي كان يبحث معنا عنه، وفي أحد الأيام أسر إليّ أخي بأنه راه يرسم رموزًا كنتك التي كانت قرب بقايا ابن عمومتي، بل ويردد كلمات غير مفهومة. تربصت به وتلصصت عليه ببلاهة مراهقة، كشف أمرى سرّيًا، ولا أنسى ابتسامته المخيفة أبدًا.

في تلك الليلة تحت النجوم، تودد إليّ، ونال من روحي خدر عجيب، وأفضى إليّ بالسر الذي أخفاه سنين، أن هيئته تلك ليست سوى جسد استعاره من أحد الشبان الطامعين في الخلود. طنته مجنونًا، وسخرت منه، وما كان منه إلا أن قبّلتني، وحينها غبت عن الدنيا، ذبت بين ذراعيه، وشعرت كأنني أعرج إلى السماء، خلق بي بين سديم مزدحم بنجوم وكواكب، وهبطنا إلى مكان عجاب، ورأته في هيئته الأولى التي لا أستطيع نسيانها، طويل القامة نحيل الجسد يكاد جلده يضيء من بياضه البلوري. شعره أسود ناعم ينسدل حتى قدميه، وعيانه الطويلتان حمراوان كالدّم ومشقوقتان كالثعابين، ويعتمر تاجًا من زجاج ملون، بيده رمح ثقيل وعلى

ذراعه اليسرى درع مزخرفة بنقوش، وتضوي بلمعة لا أنساها. يقود جيوش الموت، وبخوض معركة ضارية أمام أشباه له في الخلفة، الذين تكالبوا عليه حتى أسقطوه، وأحكموا وثاقه داخل كوة ضيقة، ونحتوا على جدرانها الخارجية تعاويذ وطلاسم تسلب قوته وتبقيه ضعيفًا، وألقوها إلى قلب نجم مستعر، قذفوا به إلى العدم منفيًا، ومنذ ذلك الحين وهو حبيس يحاول الخروج. وقبل أربعين عامًا من لقائي به، استطاع أن يخلص روحه ووعيه، وبقي جسده داخل زنارته الحصينة.

وفي اليوم التالي استيقظت لأجد نفسي عارية وسط كومة تين بالحظيرة، فقد رحل من دون أن يترك أثرًا، سوى حرقه لمنبت عفتي. عانيت تحت وطأة الألم وجنون كاد يفتك بي، أصبحت في نظر أقربائي ملعونة منبوذة، لا أصلح للزواج والحمل، عشت سنوات وحيدة بين ظهور الأقربين، حتى حدثني النجوم، وبت أستطيع فهم نوازلها ودروبها، وتعاطمت الفراسة في روحي، وأصبحت خبيرة في تاويل الأحلام، ومررت السنون ونال الموت من أهلي تباغًا، لم أرث وقد سلب أحد أعمامي كل شيء، ولم أجد إلا الهرب بديلاً للجنون، ورحت أجوب البلدان بحثًا عنه، وأخذتني الدنيا، ودارت بي الحياة وقسوة وطأتها، نسيت وتناسيت حتى رأيتك بالأمس عند إحدى الحانات، يبدو أنه تراجع عن دخول جسدك لأمر جلل حدث له، ويعني أنه ما زال بعيدًا عن هدفه، وأرجو أن يكون كذلك. فقد ظننت أنه رحل من دون عودة، وحين لمست يدك استشعرت قوته بداخلك، وبقيني أنه فقد الكثير من قواه عبر السنين وانتقاله من جسد إلى جسد، ولا أظن أنكما ستجتمعان في طريق واحد مجددًا. استمتع بالحياة، وعشها كما تحب أيها المقامر، واترك أصابعك من دون أربطة، فهي تحتاج إلى الهواء ليتعافى الحرق. لا تغسل هذا المرهم، فإنه سيعالج الجلد المهترئ.

قال بنبرة هادئة خافتة:

- أخبرني بأنه يبحث عن أغراضه، واليوم صادفت شخصًا في الخان، لديه لفافة عليها الرموز التي ذكرت، ورسوم أخرى عجيبة. وما كتب عليها يجعلني أصدق ما نطقت به.

اعتدلت في جلستها، وأفلتت يده، وقالت بصوت متهدج:

- عُد إلى الخان وابحث عن ذلك الرجل، عليك أن تعرف ما المكتوب بداخل اللفائف، وعن ماذا يبحث. يبدو أن الأمر غير ما ظننت، علينا معرفة سره. وأخشى أنه صار قريبًا من مبتغاه، أو يكون هو ذلك الرجل الذي صادفك في الخان.

- ذكر لي أيضًا أن له أتباعًا، وقال شيئًا عن حكماء، وأنه زار مدينة السدين آزاد، ويعرف الرجل الذي يدعي أنه نبي.

عقدت حاجبيها، وغمغمت:

- نبي في آزاد؟ يبدو أن الكثير فانتني، ستجدني هنا من مطلع الشمس إلى غروبها. اذهب وابحث عن صاحب اللفائف هذا، واعلم أن قدرك محتوم، ونردك في الطالع محظوظ، ولعلك تصل إليه ونهني تلك اللعنات التي أصابتنا.

شكرها، وربتت على ظهره بمحبة ورفق، وأحس بدفع غريب ينال منه. ودَّعها بإيماءة، ولم تفارقه الدهشة مما يقع له. بقي شاردًا طول الطريق يفكر ويرتب ويستنتج، الريبة تكمن بداخله وشيء من خوف وقر بصدره، حديثها صادق ويتناص مع ما ذكره الأعمى والرؤى التي يراها. دخل يبحث عن الرجل محاولًا استذكار اسمه، العنبري كان لقبه، سأل عنه الخدم وأخبره قيم النزل بأنه رحل قبل قليل. امتقع وجهه هارون، وأخذ يفكر فيما عليه فعله. لام نفسه مرارًا، وأخذ يدور في أرجاء المكان، وما لبث أن ذهب إلى غرفته ولملم أغراضه، وكلمات منجية تتردد برأسه، عليه أن يجده مهما كلفه الأمر. نزل إلى حظيرة الدواب وأمر السائس بأن يسرج جواده، وفعل الرجل وهو يقول بضيق:

- سيدي، إن جوادك هذا كاد يتسبب في أزمة مع أحد النبلاء.

عقد هارون حاجبيه ورمق خائل متعجبًا، وصهل الجواد كأنه ينفي التهمة عنه، والسائس يتابع حديثه:

- في حياتي ما رأيت فحل خيل هائجًا إلى هذه الدرجة، كأنه لم ير فرسًا من قبل. استطاع ذلك الخبيث أن يفتح باب مربطه، بل وأزاح مزلاج المربط الذي يجاوره، ودخل لينكح الفرس.

كتم هارون ضحكته، وأخذ يضع أغراضه على السرج، والثرثار يستكمل حديثه:

- لكن من سوء حظله أن صاحبها جاء في وقته. أخذ النبيل يصيح ويسب حتى اطمأن أنها لم تُمس، كدت أفقد عملي لولا أن صفح عني ذلك العنبري.

- هل الفرس المبقعة ملك للعنبري، الأشقر الطويل الذي يحمل حقيبة رمادية من جلد الحوت؟! -

- لا أعرف من أي جلد هي. ولكن نعم هو ذلك الرجل.

- إلى أين ذهب؟

رفع الرجل كتفيه ببلادة:

- وما أدراني! لا يسأل الخدم سادتهم.

بقي هارون النردى جامداً برهة، قبل أن يمتطي جواده الذي مشى فور ركوبه، تجاوز السائس عابس الوجه مطلقاً زفرة غيظ، وصاحبه من فوقه شارد الذهن. نسي أن يعطي السائس إكرامية، وسرح في دروب فكره، باحثاً عن سبيل للعثور على صاحب الفرس المبقعة.

عالية هي جبال الإفريز، شواهد رمادية بارزة كأنياب عملاقة يكسو قممها بياض الثلوج، خيفة الطلة تحد مفازة بحر الرمال من ناحية الغرب، وتمتد جنوباً من خندق السراب إلى حواف غابة الظلال. مقفرة يحيط بها الغموض، ويسكنها الموت. قلة من حاولوا اجتياز جبال الإفريز، ولم يعد أحد ليروي ما بداخل وديانها وشعابها الوعرة المظلمة. يجزم بعض الناس أن خلفها بحرًا عاصفًا يعج بالوحوش، وآخرون يقولون إن في أعماقها تسكن الغيلان. كثيرة هي الأساطير، ولكل حكايته المفضلة. توجد على تخومها الشمالية بقايا مدينة وحصن قديم، أطلال عتيقة منسية حتى في أقدم الخرائط، وتحيط بها آجام العوسج، وتتسلق الشجيرات ما تبقى من جدران وأعمدة. لقرون، لا يعلم أحد تعدادها، ظل المكان مأوى للضواري الشاردة والزواحف الباحثة عن الظل.

واليوم عمّرت الخرائب بالخيام ومرابط الخيل والأنعام، ثيران ترعى قرب غدیر ماء يقسم الفناء الخارجي إلى شطرين كبخيرة صغيرة، وعُرشت الأكواخ تحت جدران البرج الوحيد الصامد أمام الزمان، الذي يتوسط الساحة بجدرانه الحجرية المتآكلة، وفوق قبتة المحطمة وعلى صارٍ جديد تمايلت راية بني شمس المصفرة بنعومة مع الريح، فقد أصر شاهين على رفعها من دون غيرها، معلناً أنها أرضه وحوزه، وهو الذي جاء بأهل الكفر وغابة الظلال إلى هنا بعد ما لاقوه على يد البرغوث. ألقى فيهم خطبة عن الإخاء وحلفهم القوي ضد ظلم بني الأزرق وما فعلوه بهم، وبعدها تعاون الفرقاء جميعاً في نصب المعسكر وحراسته، وأظهر كل جانب منهم مهارته. بُنيت الحواجز، وضربت الخيام، وفاحت القدور برائحة الطعام، وأطلقت قردة البابون لتطهر المكان من الجرذان والثعابين، وأزيح الركام عن ساحة الحصن البالي في غضون أيام. أصبحت لديهم مدينة صغيرة لا تشبه مثيلاتها على أرض تلال الشمس، وساد التآخي والمرح بين الجميع، وحاولوا التعايش مع واقعهم الجديد، فلا سبيل سوى مواصلة الحياة.

بعد عشرين يوماً بدأ أهل الكفر في حرث الأرض، ونثر بذور الشعير والبرغل، وأقاموا قنوات وأحواضاً صغيرة لزراعة الخضراوات. يعلم النازحون من كفر البردقوش أن عليهم البدء من جديد، كل ماض عرفوه أحرقه سعد، ذكرياتهم ومنازلهم، والكثير من أهاليهم ماتوا حرقاً، ولم يعد بإمكانهم إعمار المكان خوفاً، لذا تأقلموا هنا سريعاً، وحث شاهين الحرفيين وكل ذي صنعة على العمل، ورتب أمورهم وأشغالهم، ولم يتخذ حرساً، فقط ثلة تحرس برجه، والبقية في دوريات تجوب الأنحاء، امثلوا له، وهم يعلمون أن بقاءهم هنا قد يطول. أما جيش غابة الظلال فكان أفراد أكثر حركة، كل قبيلة اتخذت مكاناً من الحصن، وجعلوا لهم مجلساً قرب بركة الماء، ولا تتوقف فرق صيدهم عن الخروج إلى تخوم الوديان، وبالكاد أقنع الأمير كتيبي أخته كونوا بالعودة إلى ديارهم مع بضعة نفر، وودعت الأميرة المحررة أخاها بدمع العين وحسرة قلبها على سيرين، وعدّها بأن يعيد زوجته ومن تبقى من أهلها سالمين، وتعلم أن وعده مرهون ببرغوث غادر يمتلكهم.

شُفيت جراح ذهب وُوسم خطمه بندبة جعلته أكثر وحشية، اتخذ وأبوه من جدران دار مهدمة تطل على الحصن مأوى لهما، وفي الليل يتسكعان خارج الأطلال. وفي ليالٍ كثيرة تأتيهما زعيمة قاع الأسود بما تيسر من لحوم الطرائد، يستأنس ذهب بوجودها، لكنه لا يأكل ولا يلمس فروه أحد إلا أبوه. يقضي ذهب ليلته ممدداً في الزاوية المقابلة للنيران، ينصت لحديثها متظاهراً بالنوم، يعلم أن الزعيمة تميل إلى الدرويش، وتتقرب إليه بلطف شديد ورقة لا تناسب هيئتها. وذات ليلة رأت وشم أبيه، وموضعه الغريب من ظهره، في موضع بدا كطائر مصبوغ بالزرقة، أخبرها بأن العائلات النبيلة من قومه اعتادوا فعل ذلك، يوشمون الصبية خلف قلوبهم، إرث تناقلوه عبر أجيال يمنح الشجاعة، ويحفظ الأنساب. لم يخبرها بحقيقته ومن هم قومه الذين ذكرهم، وسرعان ما بدل الحديث، وذهب يعلم أن أباه لا ييوح إلا له، ربما تبدلت هيئته عن صورته الأولى، لكنه ما زال أباه، حتى لو بدا لطفه زائداً على الحد أمامها، أو ظل يخلق شعره مثل بياض القرش، وحده من يعرف سره واسمه الحقيقي. تئاب ونهض نافضاً جسده واستدار خارجاً، يكره البقاء بين ضيق الجدران، بحث عن مكان آخر للنوم بعيداً عن ثرثرة الحب الوليد، ودار في أرجاء الحصن قبل أن يستقر عند حافة البركة، وابتعدت كل الأنعام رهبة وخيفة منه، وعلى العشب الرطب استلقى ينظر إلى نجوم السماء. كم اشتاق للعودة إلى وجاره في قلب الصحراء! لكن الحرب لم تنته بعد.

التف محاربو غابة الظلال حول أميرهم، يؤمنون بأنه المقصود بالنبوءة، من سيوحّد الصفوف لمجابهة سيد النار وأعدائه. قصة لقتتها الحوريات لأجدادهم في زمن بعيد، وبعد البراعة التي أظهرها في معارك كفر البردقوش، باتوا يثقون بأنه مقاتل عتيد صادق الفعل، يقود محاربين من مختلف القبائل والعشائر، تشاركوا مع حلفائهم الجدد في كل شيء، لكنهم يحدرون ساكن البرج شاهين بن عز الدين صاحب راية الشمس، الذي أصر على رفعها في عناد وتحذّر. إنه لا يراهم إلا حفنة من بسطاء العقول، ولا ينكر قوة بنيانهم وبسالة أرواحهم، غرباء خارج حدود غابتهم لا يعلمون عن هذا العالم إلا القليل، هم جمع غفير على قلب واحد، وهو وحيد على الرغم من كثرة أتباعه؛ فثلاثهم من طاعني السن والنساء والأطفال، كل من تبقى من حريق الكفر، نزحوا معه، وبات يحمل على عاتقه نجاتهم ورعايتهم، لم يخذلوه كما فعلت زوجته ورجاله، الذين قلبوا موازينه، وأحرقوا مدن أحلامه وخططه! لكنه سينهض على الرغم من هزائمه، سيقف مجدداً ويعيد بناء حلمه.

لم يتردد شاهين في منح أمينة ثقته مجدداً، لم يتبدل كثيراً عن الرجل الذي تعرفه، وإن ازداد شيب لحيته وفؤديه، وما زال بهيبته وعلوه وإن صار أكثر عزلة. اعتاد خشونة الأرض وفرش الحصير وقلة الأثاث، كأنه تقبل المشقة برضا من بعد الرغد، فقد صار أكثر زهداً ولطفاً مع من حوله. تراه أمينة يلاعب الصغار من أولاد النازحين، وتعلم كم تمنى أن يحظى بأولاد من رقية. لامت نفسها على ما كان من فعلها، ولا تنسى بهجته حين علم بحمل سميرة الكاذب. الآن كل ما يشغل سليل بني شمس هو حربه مع بني الأزرق، يسهر وقتاً متأخراً، ويغط في النوم إلى ما بعد الظهر، ينتظر قدوم سلام، ويلتمس الأخبار من دورياته، وليبعد الملل عن روحه جمع بعض الرجال، وبدأ ترميم البرج وقبته.

الأيام الثقيل تجر مثيلاتها على مهل، ولا خبر عن سلام. تمنى شاهين أن يصل رسوله إلى حليفه حمدون ألواندي، الذي ساعده وأمده بخبر قافلة السلطان من قبل، ولا يملك الآن سوى الصبر والانتظار. أعد قوسه وملاً جعبة سهامه، وسرج جواده وعلق قربة الماء، وجاءته أمينة بصرة طعام صغيرة، سيخرج للقنص وربما يغيب لليلة. تمت له صيداً موفقاً، وأن يعود بغزال أو بضعة أرانب. مضى لا يصحبه أحد، وما إن عبر بقايا بوابة الحصن، حتى صادف الدرويش وذئبه، توتر الجواد، وانتفض كعادته في وجود الضاري. جذب شاهين لجام جواده، وربت على عنقه ليهدأ قائلاً:

- إلى أين مسيركما؟

ردّ أبو الذهب وهو يفرك ما بين أذني الذئب:

- نبتغي صيد النعام، رأيت آثار بعضها ناحية الجنوب قبل أيام.

- خرجت أيضاً للصيد، ولا بأس بالنعام إن كنتم لا تمانعان أن أرافقكما.

- بالتأكيد يمكنك ذلك.

امتطى الدرويش جواداً نحيلاً، وانطلقا يتقدمهما ذهب، يلمع فروه الذهبي بضئ شمس الزوال، يقتفي الروائح والآثار على الرمال والحصى، يبول على الشجيرات، ويخمش صخور القفر، والجوادان يتهادان الحطى مع اقترابهما من شفا قواعد الإفريز. اختفت الآجام والعشب الجاف، وحلت مكانيهما صخور حادة سوداء. ترجل الرجلان عن سهوتي جواديهما، وظلال الجبال ترتمي أمامهما. التقط شاهين قربة الماء، ارتشف منها ثم ناولها إلى الدرويش الذي شرب حتى ارتوى وأعادها إليه قائلاً:

- هل تكمل البحث أم نخيم هنا الليلة؟

تأمل شاهين فعل الذئب الذي أخذ يبتعد عنها جائلاً بين كتل الجلمود، وأجاب:

- ما زالت في النهار بقية، لننتع دليلاً فهو يلتقط أنثراً ما، ولا أظنه النعام الذي ذكرت.

- سنجدها حتماً.

- أرجو ذلك، أو يكفينا صيد الأرانب إن وجدناها أيضاً.

تحركا وركب الصمت إلى جوارهما، وقرص الشمس يتوارى خلف الشواهد الرمادية. كسر الدرويش السكوت قائلاً:

- لم أظن أن الناس في معسكرنا يتفاهمون ويتفاعلون فيما بينهم بسرعة هكذا، كأنهم عاشوا لسنين متجاورين، هل تظن أن بإمكاننا إعادة الأسرى وهزيمة بني الأزرق؟

- لا أؤمن بالأحلام والآمال الوردية، والحقيقة أن البرغوث هزمنا وفرّ هارثاً. حالما يعود سلام أو يأتي خبر من حمدون ألواندي نحدد ما علينا فعله، وحتى ذلك الحين علينا تحصين الأطلال التي نسكنها، وأخشى أن نتنازع ولكل منا غاية بالأساس، وجلفنا واهن لا يقوى على مجابهة جند وعتاد بني الأزرق إن قرروا القدوم لحرنا.

باقتضاب ردّ الدرويش وهو يتابع ذهب الذي أخذ يبتعد عنها:

- رجال القبائل لن يتقهقروا، إنهم متشبثون بالأمل ومؤمنون بأن تلك حربهم التي تحدث عنها أسلافهم قبل قرون.

- مجرد أساطير، وإن أردت نصيحتي، عليك أن تقنعهم بالعودة من حيث أتوا، وأن ينسوا أمر الأسرى، كلنا خسرننا في تلك المعركة.
- هل تتخلى عن حلمك بإعادة مُلك بني شمس؟

ضحك شاهين قبل أن يجيب:

- لا، لكن يختلف الواقع عن أحلامنا وما نطمح إليه. أصبحت أضع أسوأ الاحتمالات، إن لم يأت مدد مملكة الساحل الذي أرجو، فسيتعين عليّ البدء من جديد، ومن نقطة أبعد مما كنت عليه. إن راية الشمس سطعت ولن تغرب عن هذه الأرض ما حييت. يمكنني بيع ممتلكاتي في البوغاز والمهدية، وبثمنها أرمم ما تهدم من الأسوار الخربة، وإعادة بناء هذه الأطلال، وأرفع قوائم وأسوار عاصمة منيعة. على كلٍّ لن أتعجل بخوض حرب ما دامت بعيدة عن جدرانني، أما أنتم فستعودون إلى الأحرار بعد تحرير أسراكم وربما قبل هذا...

قاطعه الدرويش بنبرة غضب:

- لن يرجعوا من دون تحقيق غايتهم.

مرة أخرى ضحك شاهين، ولوح بيديه:

- أتدري أيها الدرويش، قولك هذا يذكرني بشيء حدث منذ قرابة عامين ينقصان أو يزيدان، سألت عرّافة عن الحاكم الذي سيخلفني، أتدري ماذا قالت؟ نعامة!

تزامنت حروفه مع رؤيتهما نعامة برزت من العدم، ظلت تحديق إليهما وتميل رأسها يميناً ويساراً، وذهب يزحف بين الآجام خلسة، ولكن النعامة شعرت به فأطلقت ساقها للريح، مثيرة الغبار من ورائها. ركض الذئب وأرعى الرجلان لجأتي جواديهما ليلحقا بالمطاردة، صدق الدرويش، وها هو ذا صيدهما يناور بسرعة مذهلة. محم الجوادان وطرقا الأرض بقوة، وذهب يلاحق النعامة ويتفادى الصخور. كاد يقبض على فخذه مزججراً، لكنها رشيقة وسريعة. لقد استطاعت النعامة الإفلات خافقة بجناحيها الصغيرين لتنتقل إلى الأرض الوعرة. تبعها ذهب، وصهل جواد شاهين منتصباً على قائمته الخلفيتين، وكاد يسقطها. ليس بإمكان الجوادين إكمال المطاردة وسط الركام الأسود الحاد. ترجل الرجلان حاملين الأقواس وجعاب السهام، وصيدهما ينطلق إلى وادٍ ضيق بين الجبال الشاهقات. تبعها ذهب، وعند عتبة الأخدود رماهما بنظرة، وأكمل المطاردة، ودخل هو الآخر إلى المجهول!

الخوف يسلب لذة المغامرة، والرجلان يملكان قدرًا كبيرًا من الشجاعة أو الحماقة للتوغل بشعاب جبال الإفريز، تركا الجوادين وتتبع أثر ذهب الذي اختفى تمامًا. ريشة واحدة كانت دليلها على مرور النعامة من المكان، وضعها شاهين في جعبته، واعتدل ناظرًا إلى الوادي الممتد أمامهما. جدرانها رمادية شديدة الميل، وما يظهر من السماء ملطخ بحمرة شفق دموي. الظلال تهيمن على أجواء لا يورق سكونها إلا وقع خطواتها، نادى الدرويش ذئبه بصفير رده الصدى طويلاً. تبادل الرجلان نظرات توجس قبل أن يتقدما بحذر. قال شاهين:

- من الحكمة أن نعود أدراجنا، قبل أن يبرك الطلام على الوادي وليست لدينا مشاغل...

لم يكذبته كلمته الأخيرة حتى ظهر ذهب فوق صخرة عالية، أذناه منتصبان كأنه يلتقط سمع شيء ما، ناداه الدرويش:

وقبل أن يتم الصدى كلماته، هبت ريح عاصفة كزفرة غضب أطلقتها الوادي، واختفى الذئب وراء عطفة صخرية، هروا الرجلان خلفه عكس تيار الهواء، يعلم برهان أن ذئبه يقودهما إلى شيء ما، وليست المرة الأولى التي يدخل فيها جبال الإفريز، أما شاهين فأخذ يلعن الوقت الذي رأهما فيه، فقد أصابه القلق والتوجس، وآثر الصمت حتى لا يبدو جباناً. توقفا عند مفترق طرق، والظلام ينساب إلى الوادي معانقاً الظلال، وأمامهما عدة دروب إلى شعاب ووديان أخرى. كانا في وسط متاهة لا نهاية لها، ولا أثر للذئب أو النعام!

أحاط بهما الليل، وأنزل رهبته في قلبيهما. تيه، وظلمة، وطريق العودة مجهول معتم، وصفير الريح لا يتوقف بل يزداد ويخبو. أويا إلى تجويف في جدار الوادي، ونادى أبو الذهب ريبه من دون جدوى، وفشل شاهين في إيجاد حطب أو عشب جاف ليشعل النيران. تجاوزا وجلسا يستندان إلى الجدار، ذابا في الظلام الذي اعتادته أعينهما، تقاسما قطعة من اللحم المجفف، وأخذ كلاهما يقضم ويمضغ مستسيغاً ملوحتها. سخر سليل بني شمس من حاله وما آلت إليه الدنيا، رجل وحيد منسي، سقط من النعيم إلى وادٍ مظلم قد يكون مثواه الأخير، كل هذا مآل خططه، وتدبيره التي لم تمض كما أراد.

كان أمحق حين ظن أنه ملك زمام الأمور، لم يبق معه إلا ثلة من العجائز والنساء والعيال، ومن يستطيعون حمل السلاح لا يتعدون المائتين، لا خيار لهم سواه، وثقوا به ودعموه، وكانوا خير سند له في محاولة استعادة الكفر الذي تركوه خلفهم كومة رماد، وبعد كل ما فعله بهم تبعوه إلى مصير مجهول. رقية هي من أفسدت كل شيء، وأحرقت مدن وجيوش أحلامه، ما الذي كان ينقصها في نعيمه! تفعل ما يلجوها ويحبب إليها كل ما تريد، أحبها وغدرت به، وكذلك سميرة الكاذبة التي أحييت في نفسه الأبوة، هوت في سواد عينيه مشتعلة بعد أن أحرقتها سعد حية. أهنك على هذه الأرض أسوأ من سعد البرغوث؟

آه لو يُمكنه الزمن من عنق ذلك الحقير، ولا يملك إلا التمني وهو حبيس الوادي، لا يريد الموت هنا وتبقى جثته لتتعفن، ويُنسى كأن لم يكن. لن يفتقده أحد، ولن يرثيه لسان، بل سيذكرون أسوأ أفعاله. تساءل في نفسه عن أسوأ أفعاله في حياته الحافلة، قتل عمه ومشاهدته يغرق، أم قبوله ورضاه بتجبر رجاله على الناس وخيانتته لزوجته؟! ارتكب الكثير من الآثام، ويدرك أنه كان ظلوماً لنفسه قبل أن يكون ظالماً لرعيته وعشيرته. عاش عمره في سبيل غايته النبيلة، ودهس الكثيرين ممن كانوا عائقاً أمام مخططاته.

أحب أن يكون قيماً على النظام، أن ييسر نفوذه ويسترد ما كان لأجداده، والليلة يتمنى المغفرة، ولكن ممن؟ وهو الذي لم يقبل بعقيدة أسلافه، عبدة الشمس والكواكب، إيمانه الوحيد هو إحياء مجدهم، وبقاء إرثهم. أعاد رفع رايتهم وذكرهم إلى الوجود من بعد فناء وزوال، وحافظ على إرث كاد يضيعه عمه العرييد، ذلك الوضع الضال الذي ظلمهم، وجعل والدته تموت قهراً من بعد وفاة أبيه، وأراد سلب بنت الشهبندر منه. كان الزواج برقية غاية عمه المتدلل لغاصب عرش بني الأزرق، ولكن هيهات، لم يسمح له

بأن يأخذها منه، واستحق المتصابي مصيره بقاع بحيرة البردقوش. ما بال هذا الوادي اللعين يبعث كل الذكريات الكئيبة في رأسه!

لم يكن جليس الظلام بجواره بأفضل حال منه، خاض الدرويش حوارًا طويلًا مع الأصوات الثلاثة بداخله، لجم برهان الجبان، وصارع أبا الذهب الحكيم، وفي النهاية هيمن صوت الانتقام الذي أحياه موت بياض القرش. بات يطمح إلى معاقبة الظالمين أينما كانوا، ويدرك أن القوة وحدها قادرة على إقامة العدل في عالم قاسٍ متوحش، لا مكان فيه للطيبين أنقياء القلوب. تذكر أحد نصوص الجاباسكي، حيث يقول جاد المعظم في شرعه: «الكرامة والشرف من شأن المرء، ولأجلهما يموت مدافعًا أو منتقمًا».

سنوات بقائه في الصحراء لم تُنسيه، وهذا المكان العجيب يبعث في نفسه هواجس الماضي، ويُنبت غضبًا بفؤاده بدلًا من تأنيب النفس واللوم على مَنْ ماتوا بسببه، وعدوه في أول الأمر هو نفسه الذي نثر جنوده يبعثون في الأرض فسادًا، وجاءوا إلى وجاره وطاردوه من بعد حياة هادئة لا يشوبها عكر. الشيء الوحيد الذي أجمعت عليه الأصوات المتداخلة في رأسه، أن قدره محتوم، والموت هو نهاية المطاف، لذا آن الأوان ليقتضي غازي أو على الأقل ينغص عليه حكمه، تمنى أن يلقاه وجهًا لوجه، لكن يبدو أن الأمور تزداد تعقيدًا، فلا خبر عن الأسرى، ورفيق رحلة صيده ليس سوى رجل محطم، ينتظر رسالة أمل من حلفاء بعيدين بآلاف الأميال. اعتدل في جلسته باسطًا جسده إلى الأرض الوعرة، وسأله شاهين هامسًا:

- ماذا تفعل؟

- أحاول أخذ قسط من الراحة.

- الآن؟!

- نعم، حاول أنت أيضًا فعل المثل، سيجدنا ذهب على أي حال.

- ألا تخشى أن يصيبه مكروه أو يأتي إلينا مفترس جائع؟!

- لا تقلق، فقط الخواء من يسكن هذه الوديان.

- سأبقى مستيقظًا، أخلد أنت إلى النوم.

- حسنا كما تريد.

أغمض الدرويش عينيه، اعتاد النوم في ظروف أصعب من ذلك. ذات مرة نام داخل جوف جيفة جواده بعد أن بقر بطنه وأخرج أحشاءه، وظن مطاردوه أنه سقط من حافة الجبل، ومرة تحت عظام صدر عملاقة في جبل الحيتان، وكثيرًا ما كان يستلقي على رمال الصحراء في الليل وإلى جواره ذئبه، يستطيع ذهب أن يدبر أمره، ويعود ككل مرة. أرخى جسده على الرغم من قسوة الأرض، وغط في النوم، تاركًا شاهين يحاول النجاة من برائن الذكريات، أشياء كان يظن أنه نسيها قفزت أمامه عنوة، لم يكن خائفًا بقدر ما كان قلقًا، يقلب وجهه في سقف الوادي. أيُّ سماء هذه التي لا تحوي نجومًا على الرغم من زرقة ليلها؟! وسط دوامات الحيرة والفكر غشاه النوم، وعندما فتح عينيه كان هناك قيس من ضوء الفجر في الوادي، ووجد عينين كجمرتين تقابلانه، فزع طاردًا النعاس محملقًا إلى وجه ذهب المغطى بحمرة قانية، والدرويش يقول

سأخراً:

- أتدري يا ذهب، كان هناك مَنْ يقول إنه سيبقى يقظاً للحراسة!

حكَّ شاهين رأسه، وقال وهو يتثاءب:

- لا أعلم متى غفوت، إنها أسوأ ليلة قضيتها في حياتي.

- أراهن أن جميعنا لديه ما يكفي من الليالي السيئة.

- يبدو أن ذئب اصطاد شيئاً. هل هي نعامة الأمس؟

- الذئب لا تتراجع أبداً عن مطاردة الصيد. انهض لنرأين هي ولنرحل عن هذه الوديان قبل الظهيرة، ولا أظنك تطيق البقاء فيها.

طقطق شاهين رقبته وعضلات جسده، شرب قليلاً من الماء وعرض القربة على الذئب، فما كان من ذهب إلا أن رماه بنظرة خاوية ومضى يتقدمهما. مشياً خلفه عبر الشعاب والدروب الوعرة، تبادلاً حديثاً عن الصيد ومهارات اقتفاء الأثر، وروى شاهين قصصاً عن جده البعيد، ضرغام البحار أحد ملوك الشمس، الذي بنى أسطولاً من ثلاثمائة سفينة، وذهب يبحث عن أراضٍ جديدة، تنازل طواعية عن العرش لأخيه الصغير شداد المشيد، ذلك الذي بنى سدود أزداد، وأحاط عين الشمس بسور ضخيم، وكيف تصدى لغزاة البحر من جزيرة الكستناء وحلفائهم، كان ذلك قبل سبعمائة عام أو أكثر. استرسل شاهين في سرد تاريخ قومه وملوكهم العظام الذين يحفظ سيرهم بفخر، ألف عام حكم فيها بنو شمس هذه الأرض من دون منازع، وتداول العرش ستة وثلاثون ملكاً إن حسبت ملكات الشمس، أربع منهن كن أوصياء على العرش، حفظن العهد وتصدين للمؤامرات، وشددن من أزر أبنائهن وأحفادهن. تبدلت نبرته حين ذكر ما كان من أمر الديناري الخائن، الذي أوقع بين قبائل الجبال وآخر ملوك الشمس الكهل زيدون الواهن كما يُسمّى. ظل شاهين يحكي ما يعرفه عن أسلافه خلال مسيرهما الشاق، حتى قادهما ذهب إلى ساحة شاسعة في عمق الوادي، يغشاها ضباب خفيف، حجارتها وحصيها بيضاء مصفرة، وفي الجانب الآخر منها يوجد مدخل كهف بقلب الجبل، والنعامة اللعينة ملقاة وسط بركة دماء. أكل ذهب جزءاً كبيراً من فخذهما، وبقية الساق كانت على مقربة من كومة حجارة بيضاء، مهلاً إنها ليست كما ظننا، بل عظام!

لكل أمة على هذه الأرض حكاية ما عن جبال الإفريز، وجميعها تؤكد أن عندها تنتهي الأرض وتُنسى الحيوانات، وما قيل ليس كالواقع ولا يشبهه خيال، كانا يقفان يشهران سيفيهما والذئب يتجول وسط باحة تتكدس فيها العظام، والكثير من بقايا دروع وأسلحة صدئة، جماجم بشرية، وأخرى غريبة ضخمة ذات أنياب بطول ذراع، تشبه رؤوس أفراس النهر، ولأجسادها البالية عظام عريضة، أخذت الدهشة الرجلين.

تمتم شاهين وهو يدور في أرجاء المكان:

- أيُّ شيء قد يكون تسبب في هذا؟! ومن أين جاء كل أصحاب هذه العظام؟ ما الذي حدث هنا؟

أجابته الدرويش بنخفوت وهو يتفحص عظمة فخذ ضخمة:

- يبدو أن هناك أشياء أقدم من أخبار بني شمس وغزوات بني الأزرق! ليست المرة الأولى التي أرى فيها شيئاً غريباً يعود إلى عصور القدماء، ربما عاشوا هنا قبل أن يهوي النجم من السماء. انظر إلى بقايا الدروع والخوذات وقبايع السيوف، على الرغم من

أن الصدا أكلها، يمكنك أن ترى نقوشها وألوانها. لم أر شيئاً كهذا من قبل، يبدو أن معركة ما قامت هنا.

- لم تُعد لهم ذكرى حية من بعد حياة، هل تظن أن هناك أحدًا داخل هذا الكهف؟!

- لو كان هناك شيء لهاجم ذهب في الليلة الماضية، الذي يبدو أنه أكل وشيع وجلس يرتاح حتى الفجر. انظر إنه يستلقي بين العظام، كأنه يعرف المكان سابقًا، يلعب ولا يخشى شيئًا. الذئاب تستشعر الخوف، وتحدد أماكن الخطر، حتى وإن كان غير مرئي.

قال شاهين وهو يتفحص المكان:

- منذ الصغر وأنا مولع بتاريخ أسلافي من بني شمس، أخذني الفصول لمعرفة من أين جئنا وكيف كانت الأرض قبل عين الشمس. كل المراجع تشير إلى أن هناك إمبراطورية عظيمة حكمت الأرض، كانوا يُسمُّون بالداعريين، وأنهم بلغوا من القوة ما لم يكن لغيرهم، وفي الأخير طغوا وتجبروا حتى سقطت عليهم شهب السماء، وقع من تبقى من الناس لقرون في جهل وخوف، وفقدت العلوم ونُسيت الكلمات، حتى استطاع أسلافي إعادة بناء الأرض وإعمارها. وحين كنت شابًا قضيت وقتًا كافيًا في البوغاز لأدرس على أيدي علمائها وفلاسفتها، ولم أجد إجابة عن أسئلتي الكثيرة، مجرد أساطير دُوت هنا وهناك... يقولون إن جاد الكبير حين اجتاح الزاهرة، أحرق كل شيء وخصوصًا الكتب. لو كان تركها لعرفنا الآن لمن هذه الجماع.

- لعلها الغلان التي تشيع قصصها بين المسافرين. قبل عدة أشهر قمت بتضليل سليمان ناب وفرسانه، وقُدتهم إلى عمق الإفريز ناحية وادي المرجان، ولكنني لم أر هذا المكان من قبل، كل ما أعلمه أنه مناهة، ووحده ذهب من يستطيع الدخول والخروج من دون التيه في شعابها ووديانها المتشابهة. يمكننا سلخ النعامه وتقطيعها والرحيل قبل أن ترتقي شمس الظهيرة مجلسها في السماء.

ردَّ شاهين بملل:

- افعل أنت ذلك، سأذهب لأقضي حاجتي.

- لا تبتعد كثيرًا.

جملته كانت سببًا ليعدل شاهين عن الأمر، فالمكان مقبض، ومحاجر الجماجم الفارغة كأنها تنظر إليه. من هؤلاء الناس؟ ولم يقاتلون مخلوقات غريبة الهيئة، لها أنياب عاجية تبدو كأنها كانت تمشي منتصبه كالبشر؟! وجد بين حطام العظم خاتمًا عجيبًا زمردي اللون، التقطه ونفخ عنه غبار الزمن، كان جميلًا دقيق الصنع، كان يضعه في جعبته، لكنه توقف عاقدًا حاجبيه ينظر إلى شيء قرب المدخل، كأن أحدهم يجلس مستندًا إلى صخرة عالية. رمى الخاتم خشية أن يكون ملعونًا، وتقدم بحذر رافعًا سيفه، ومع اقترابه تبين أن المستند إلى الجدار ليس سوى هيكل عظمي، عليه درع متآكلة من جلد تمساح يشبه ما يرتديه رجال غابة الظلال. الهيكل تنقصه ذراع كاملة، كأنها خُلعت من الكتف، ولا أثر لها من حوله.

نادى الدرويش بصفير جذب انتباهه وذئبه، فقدمًا إليه بخطوات واسعة، ودهشة جلية على وجه الدرويش، وأخذ ذهب يشم البقايا، وما لبث أن ركض إلى الكهف، تبادلًا النظرات قبل أن يتبعا الذئب الواقف عند الخط الفاصل بين الضوء والظلمة، وأمامه يستقر هيكل غريب تمامًا، كان أكبر حجمًا من سابقه، كامل العظام له أضلع صدر أكبر من قوائم كوخ صغير، وصفان من الأسنان الحادة المدببة في كل فك. حجمته طويلة كأن العظام عليها حراشف وقرون عدة، ومحجرا عينيه مشقوقان بالطول، يبدو أنه كان أضخم من أي حيوان عرفاه في حياتها! وفي منتصف جمجمته العملاقة يستقر رمح طويل مخترقًا عظام الجبهة السميكة. فاضت عينا الدرويش بالفرح، وقال لصاحبه:

- إنه الرمح الفضي الشهير. وهذا الميت قرب المدخل ذو الدرع، هو كتيما على ما أذكر، أحد أجداد كتيبي، بالتأكيد هو.

عقد شاهين حاجبيه مستغربًا، واقترب من الجمجمة الضخمة:

- يبدو أنه فقدَ ذراعه قبل أن يفرس الرمح في هذا الكائن. ضربة قوية لرجل بيد واحدة؟!!

أنهى جملته وهو يتسلق العظام، اعتلى الرأس ضاحكًا وهو يمسك مقبض الرمح الذي لم يكن خشبيًا كما حسب، بل برونزي نقشت عليه زخارف دقيقة. بحذر مد يده إليه وما إن قبض عليه حتى شعر بشيء يسري في عروقه، نبضات منتظمة جعلته ينتفض، أفلته متراجعًا خطوتين إلى الوراء، فسقط من فوق الجمجمة أرضًا. أخذ الذئب ينظر إليه شامتًا، وهرع إليه الدرويش:

- هل أنت بخير؟

نهض شاهين مفجوعًا بالسرعة نفسها التي سقط بها:

- ذلك الشيء حي!

- إنها عظام بالية.

- أقصد الرمح، وليس ذلك الشيء.

نقل الدرويش بصره إلى الرمح الساكن بالعظام:

- لا أفهم ما تقصد!

- ذلك الشيء ملعون ككل شيء هنا.

تعجب من فعل شاهين وقوله، وصعدا معًا إلى حيث يستقر، وذهب يحوم حول الهيكل تحتها محاولًا ارتقائه مثلها. وقف الدرويش يتأمل نقوش المقبض المعدني المكسو بالصدأ. تردد كثيرًا في لمسه، وفي النهاية فعل أمام نظر شاهين القلق، ولم يحدث شيء. لم تتبدل ملامحه، ورفيقه يقول بنفاد صبر:

- أقسم يا رجل إنني أحسست بنبضات قوية داخل متن مقبضه.

- لم أشعر بشيء، ربما يكون عقلك من هيا لك ذلك الإحساس.

- أتخالني مجنونًا؟!!

- لا بالتأكيد، الرمح يخص رجال غابة الظلال، وأظنه سيمنج كتيبي وجيشه سببًا كافيًا لإكمال الحرب التي يؤمنون بحدوثها، بل والانتصار فيها. ساعدني لنخرجه.

ردَّ شاهين بعصبية:

- لن ألمس هذا الشيء، ولنرحل عن ذلك المكان، أشعر بأن هناك من يراقبنا، ويتحين اللحظة لمهاجمتنا.

يقولون إن الرمح كان هدية من الحوريات لأحد ملوك غابة الظلال القدماء، ولا أحد يعلم هل كان من صنعهن أم أنهن ورثنه عبر الزمان. أوصينَ الأخيار بحفظه، وألا يمسسه شر يودي به إلى سيد النار، وهو السلاح الوحيد القادر على قتله وفنائه إن عاد. أجزاء كثيرة مفقودة من الحكاية، والأخبار المتواترة تشعبت بكثرة ألسنة ناقليها. ولكل قبيلة قصة وأسطورة تختلف في تفاصيلها، وجميعها تؤكد أن هناك حربًا قديمة قامت بعد سقوط النجم، بين الناجين من الهلاك وجنس آخر من الغيلان أو الآلهة، وأن هناك ألفي سنة من الضياع بين قيام إمبراطورية الشمس وسقوط النجم، وأن العالم قبل كل هذا كان رائع الحسن، يعيش فيه

الناس بسلام ورخاء وترف، ويُشاع في تلال الشمس أن أهل الساحل هم ورثة علوم القدماء، وأول من نزل من البشر على الجزيرة.

كلها كانت مجرد قصص وأساطير حتى وجدا الرمح، انتزعه الدرويش بصعوبة، وأخذ ينظر إلى نصله الغريب ذي النقوش، بدا كأنه صُقل بالأمس، وحده المقبض ما نال من معدنه العجيب الصدا، لكنه ما زال يحتفظ بما نُقش عليه من زخارف. كان ثقیل الوزن عن أي رمح عرفه، وجلس يُقلبه بين يديه، قاصًا على سمع صاحبه حكايات عدة عن الرمح، وكيف توارثه أهل غابة الظلال، وشاهين يسلخ ويقطع أجزاء من لحم النعام، تلك التي لم يمسه الذئب، وتظاهر بأنه لا يبالي بالقصص وهو يخلي شرائح الصدر من العظام، وبعدها قطع الفخذ السليمة، وعيناه تتقصيان الرمح، ولا يفارقه ذلك الشعور الذي نال منه حين لمسه، لا يتوهم ولا يكذب نفسه. أثر الصمت، وحمل ما بين يديه من لحم، ومشى خلف الدرويش وذهب الذي يعرف الطريق كأنه وُلد بين هذه الجبال، قادهما إلى جواديهما حيث وجداهما يرعيان بهدوء، وطوال طريق العودة إلى الحصن لم ينطق أحدهما، حتى لاحت أطلال الحصن في الأفق.

كل ما تمناه شاهين هو الاستحمام وتبديل ملابسه، عرقه لا ينضب، وشمس الظهرية تسلقها على الدرب. من الجيد أنهما خرجا من الوادي قبل انتصاف النهار، فلا أحد ينجو من صهد القيظ داخل وديان الإفريز، هكذا هلك رجال سليمان ناب المدججون بالدروع الحديدية، بعد أن استدرجهم أبو الذهب الذي لم يظن يومًا أن تكون أساطير أهل غابة الظلال حقيقية.

ومع اقترابهما من الأسوار المهتمة للحصن وجدا حشدًا من الناس قرب البوابة، فتحثا جواديهما على الإسراع وكذلك هرول ذهب ليسبقهما، واستقبلهما الجمع بوجوه باهتة، وأفسحوا الطريق للذئب الضخم، ومن ورائه الجوادان وراكبهما. كاد شاهين يسأل ما الذي يحدث، وتبخرت الأحرف على لسانه وهو ينظر إلى الواقف بين الجمع، سلام وصُحبته، ومن ورائهم وجه مرهق يعرفه جيدًا، رقية.

حلقت النوارس في سماء سراب لا نهاية له، وهي وحيدة ذابلة تترنح في مشيتها، تائهة عطشى تسير على غير هدى، تجر قدميها والحسرة على ما حاق بها. حاولت أن تفرض سلطتها، وأبى البرغوث ذلك، وأوعزت إلى الدويدار رشوان بأن يقتله، وفطن سعد للأمر بطريقة ما، وبادر بخطوته قبلها، وتخلص من تابعها أمام عينيها وعلى مرأى من الجميع، طعنه أسفل بطنه وصعد بنخجره يشق صدره وصولاً إلى حلقة. تركه يسقط وسط أحشائه وبركة دماء، وبرود مسح خنجره في طرف عباءة القتيل، ورمى جثته تحت قدميها قائلاً بهدوء:

- انتهت رحلتك هنا. ترجلي عن جوادك. إن الموت رحمة لأمثالك، ولا أريد لك راحة حتى تلتقيه.

لم ترد طلبه، كانت ترتجف وهي تنظر إلى رشوان الغارق في دمائه، وحذرها البرغوث اللحاق بركبه أو رؤيتها مجدداً، أذها وهي الكريمة التي لم يمسهها رهق من قبل، سلب كل شيء منها؛ متاعها وأغراضها، وليتها ما طاوعته في حرق الكفر، ولم تنصت يوماً لتلك العاهرة الصهباء، ومذاق كأس الخيانة الدوارة علقم يكوي جوفها، واللوم والأسى لن ينجيها. وحده السير من دون توقف لعلها تجد مسافرين ينقذونها، وإن لم يكن فستمضي حتى أسوار البوغاز، ومدينة البحر بعيدة كأمنيات لم تتحقق. لم تحلم بكثير، أرادت أن تكون أمًا، ولها ذرية تملأ فراغ حياتها، وزوج يصون ولا يخون. أحببت شاهين وكرهته، لا يعنيه شيء في الحياة سوى نفسه، ووحده يتحمل كل اللوم.

تعثرت وسقطت على وجهها بقسوة، يحيط بها الغبار، ويسكن مفاصلها الألم، لم تعد تقوى على المسير، ويجوم نسر هزيل في دوائر فوقها، لعله تبعها بعد أن طرده رفاقه من فوق جيفة رشوان. لا تدري كم مشت، ويبدو أن وقت الرحيل أذف. النسر يهبط رويداً رويداً، واستسلمت للموت، وكادت تغيب عن الحياة، لولا أن سمعت صهيل خيل، وجدها بضعة مسافرين سقوها وأطعموها، ولم يُجب أحدهم عن أسئلتها الكثيرة، فما كان من قائدهم إلا أن طلب منهم تكييلها، وتوسلت إليهم أن يتركوها وشأنها، لا علامات تميز ملابسهم، ولا رايات تفشي هويتهم، عاملوها بقسوة، ولم تجد بُدًا من أن تُجر خلفهم كالأنعام. لم يتحدثوا أمامها، ولم يغفلوا عنها، حتى وصلوا إلى وجهتهم، حيث تحفق راية الشمس.

ارتعدت وظنت أنها داخل هذيان الموت في الصحراء، تذكر يوم وقفت على أسوار حصن التل، ونظرت إلى الكفر والنيران تأكل كل شيء تأججًا، لم تتخيل أن ينجو زوجها السابق ليرفع راية أسلافه من جديد، بل ويحشد كل هؤلاء الهمج إلى صفه! وجمت أمام هياجهم وصيحات فرح صاخبة، وتوقف كل شيء حين رأت شاهين على صهوة جواده، لم تظن أنها سيلتقيان مجدداً، وهذه المرة تكون هي أسيرته، وما قطع صمت النظرات إلا هياج البرابرة مرة أخرى. هل هم إلى هذا الحد فرحون بالقبض عليها؟! شاهدتهم يقفزون، والبهجة تملأ وجوههم، وإلى جوار شاهين يرفع صاحب الذئب رمحاً بيده.

في هذه الليلة انتهى بها المطاف إلى حظيرة البرج، رُبطت يداها، وعُلق حول رقبتها طوق متصل بجنزير مثبت بالجدار، إلى جانب بغلة وجواد الحكمدار، يرد لها الصاع ابن عز الدين الشمسي. تُرى ما هو بفاعل بها؟! طوال الليل يتناهى إليها صخب وضجيج، وما لبث أن خفت حتى حل السكون. رائحة عطن التبن المبلل ببول الدواب تزكم أنفها. تحسرت على حالها وجفاها النوم، تشعر بغصة تعصر روحها، وانتفضت لسماها صوتاً أثويّاً مألوفاً يناديها:

- ست رقية.

التفتت، واتسعت عيناها:

- أمينة!

وضعت أمامها طبقاً خشبياً، به القليل من يخنة اللحم:

- جئت إليك ببعض الطعام بأمر من سيدي شاهين.

تبدلت ملامح رقية وهي تقول بشيء من الدهشة:

- ظننت أنك بصفي!

- أيُّ صف هذا؟! الذي أشعل النيران في الكفر وقتل الناس والبهايم حرقاً؟ كنت على خطأ كبير يا ست رقية في كل شيء، وليتني ما طاوعتك، لعل مصيرنا كان تبدل عما نحن فيه.

- لم أظن أن الأمور ستصل إلى هذا الحد. غدر بي سعد وقتل رشوان.

مطت أمينة شفيتها:

- الغادر يُعذر به.

رمت جملتها المقتضبة، وهمت بالرحيل، لكن رقية استوقفتها قائلة:

- كيف جئتم إلى هنا؟

- سيدي الحكمدار هو من قادنا، وأثار الدرب من بعد ظلمة اليأس، لم يكن سيئاً كما جعلتنا نظن به، رأيت كيف يعامل من تبقى من أهل الكفر بودّ ولطف، ساعد العجائز وحفظ الصغار. كان بمقدوره تركي للموت لكنه لم يفعل.

- من يحن مرة تسهل عليه الخيانة دوماً، سيغدر بكم. إنه لا يأبه إلا بنفسه.

ردّت أمينة بحدّة:

- أنت من وضعت جارية الهوى في طريقه. ماذا كنت تنتظرين منه وأنت غارقة في كوابيس الذئاب والوحوش حتى جاءوا إلى باب كفرنا!

- لم يكن هذا قولك وقتها يا أمينة، قتل شاهين الكثير من الأبرياء، تعلمين هذا.

- لا أعلم شيئاً، لم أره يقتل شخصاً بيده من قبل، سمعنا الأقاويل وردناها كالحمقى، كم كنت غيبية حين ظننت أنني أساعد زوجة مظلومة، واتضح أن الأمر لا يتعلق بتأديب زوج زائع العينين، بل يصل الأمر إلى عزله وتولي منصبه، بعد تأليب جنده عليه، وفي النهاية أحرقت بلدتنا وحقولنا وكل ذكرياتنا.

ردّت رقية بنبرة حزن:

- لم أقصد هذا، صدقيني! سعد من فعل كل تلك الفظائع.

- حدث ما حدث، ولا فائدة للندم واللوم الآن.

- ماذا سيفعل بي شاهين؟

- لا علم لي.

- ألم يتحدث عني؟

- لديه ما يشغله.

كانت هذه آخر كلمات أمينة قبل أن ترحل، تركتها لقمة سائغة للهم والخوف، لعلها محقة في بعض ما قالت، أو أنها متلونة تختار موضعها بدهاء وخبث. توقفت عن التفكير حين رأت الذئب الضخم يجول بالقرب منها، التقت أعينها، وما لبث أن اختفى بين الخيام والأكواخ. بقيت على هذا الوضع، ولم تقرب طبق اليخنة، على الرغم من جوعها خشيت أن تأكل، لا تظن أنه يريد تسميمها، لو أراد قتلها لفعل أمام الجميع، وما يؤرقها أنها لا تعلم ما يجيء لها، وفي خضم عواصف فكرها داهمها النوم عنوة.

في اليوم التالي وقبيل المغيب خبت الريح، وارتخت راية الشمس فوق البرج العتيق، لم تكن أفضل حالاً من صاحبها، الذي استلقى على فراش من حصير مكسو بجلد ماعز، ليس وثيراً، لكنه كافٍ لأن يريح جسده، وعلى الرغم من ذلك، فإنه حصل على نوم متقطع. حاول الهرب من زوابع عقله التي لا تهدأ، ولا تكف تفاصيل رحلة صيده العجيبة أن تهيمن على فكره، يبحث عن سِنَّة صفاء وراحة لا سبيل إليها. عاد سلام بغنيمة وخبر، كان وقع رؤيتها مجدداً قاسياً في نفسه، لم يفصل أعينها حينها إلا أن رفع الدرويش الرمح أمام قومه، ميزوه وانفجر صمتهم إلى فرحة عارمة، لن ينسى كيف انفعل الأمير، واختلجت قسامات وجهه، وهو يتناوله من يد الدرويش، بالضرورة شعر برجفته وقوة السحر الذي يسري في مقبض الرمح، والعجيب أن شيئاً لم يظهر على صاحب الذئب حين لمسه هو الآخر! آه يا ابن بني شمس، ماذا تجيء لك الأيام؟!

مع قدوم الليل سيقم جيش غابة الظلال طقس تتويج جديد، وعليه أن يأخذ أكبر قسط من الراحة بعد رحلته الغريبة، ولكن كيف يأمن ورقية في الجوار، كلما حاول نسيان أمرها قفزت إلى ذهنه، واليوم قدم بها سلام وليته ما فعل، وكيف يلومه وهو الذي قام بمهمته باقتدار بالغ، فقد استطاع تعقب البرغوث حتى البوغاز، راقبه وعلم بوجهته، وحدد أماكن الأسرى الذين بيعوا في الميناء، بل واستطاع أن يجدها، وحالت الأجواء الصاخبة بالأمس دون إكمال سلام تفاصيل رحلته، إذ انقض محاربو غابة الظلال، وحملوا المغني ذا الأخبار المبهجة فوق أكتافهم راقصين، واجتاح القوم جنون فور رؤيتهم للرمح بيد الدرويش، فأل حسن أن تهبط عليهم الأخبار السارة رفقة الرمح المفقود.

لا ينكر أنه أحس بغيرة من صاحب الليلة، كتيمني الذي سيُتوج ملكاً حقيقياً لغابة الظلال، وحينها ما يمنعهم من الانقلاب عليه؟! لا ينسى أحد إصراره على رفع راية الشمس من دونها عن راياتهم، والآن أصبح لدى قائدهم الغر سلاح يعزز نبوءة باتت أقرب إلى الحقيقة، ولا يستطيع منعه عن الذهاب وراء زوجته وأقاربها الأسرى. يظن الشاب أنه يستطيع غزو البوغاز بثلاثة آلاف محارب وبضعة قروود، إنها

أحسن مدن الأرض، وهي سبيلهم الوحيد للوصول إلى الزرقاء، وحتى لو نجحوا في الولوج إليها وصولاً إلى الميناء، ستغرقهم بوارج بني الأزرق قبل بلوغ جزيرة الكستناء. هالكون إن قرروا خوض الحرب بحماسة وبربرية، ولا يعلم لم يخشى أن يخسرهم، أو يتخلوا عن شمس الساطعة!

أيقظته طرقات متتالية على باب غرفته، وقعها يدل على أن الطارق وقف طويلاً، الظلمة تحيط به لا يكسرها إلا وهج خافت قادم من النافذة، ومرة أخرى طُرق بابه ثلاثاً مع صوت أمينة:

- سيدي شاهين، هل أنت بخير؟!

قام من فراشه، وأخذ إبريق الماء، وضعه على فيه وهو يزيج الوتد الذي أحكم به إغلاق الباب، وغشي عينيه ضوء مصباح زيت بيدها، أشاح بوجهه عائداً إلى الداخل:

- ماذا تريدان؟

- إن قادة القبائل يجتمعون في باحة الحصن وينتظرونك. يلبسون ثياباً غريبة، ويدهنون وجوههم بالطلاء! هل هناك ما يجب أن نخشاه؟

ردّ متهكماً:

- سيقمون طقوس ترقية وتتويج لأميرهم ليصبح ملكاً! ليس هناك شيء لتخشوه.

- الناس يتهامون في الحصن بأن محاربي غابة الطلال سيذهبون للحرب. هل سنذهب معهم؟!

لم يُجِبها، أو لاها ظهره، وأخذ يرتدي قميصاً أسود. هرعت لتضع مصباح الزيت على منضدة من جذع شجرة، وجاءت له بحذائه الجلدي الطويل، لا تعلم فيم يفكر، وما زالت تحاول فهم ما يحدث حولها، لم تستطع التخلص من فضولها القديم، وسألته بينما يتنعل حذاءه طويل الرقبة:

- سيدي، ما أنت بفاعل بالست رقية؟!

- هل بهمك أمرها؟

نطقت بتردد:

- أشفق عليها، وأرجو أن تكون...

قاطعها بنبرته الرخيمة:

- أمينة، كُفي عن الثرثرة، واذهبي لمشاهدة الاحتفال، اقتنصي لحظات الفرح، فهي لا تعوض.

غادرت والخرج يدفعها، وأخذ هو يثبت غمد سيف أجداده على خصره، وقبل أن يخرج غسل وجهه وخلل لحيته وشعره بالماء. نزل درجات سلمه على مهل مستذكراً حياته بكفر البردقوش، وخرج من بوابة البرج ليجد الخواء، الجميع هناك عند الباحة والبركة، ووحده يسير من دون تابعين أو حرس. أفسح له الطريق فور رؤيته، وبدا الإحراج والريية على وجوه رجاله الذين كانوا ينتظرون حضوره، ولم يدخل إلى الساحة كحكمدار أو سلطان أو ملك، فقط رجل يتشح بسواد ملبسه متقلداً سيفاً أثيراً، ويخطو بعزة إلى مجلس أمراء الحرب.

ما زال لا يعرف بعضهم، لكنه يميزهم من ملابسهم المختلفة، وحده سلام يختلف عن هيئتهم، شعر طويل هائش ولحية كثة، ويختلف عنهم جميعًا بملابسه التي لا تحوي ريشًا أو عظامًا، وعلى مقربة منه تقف المحاربة الشرسة تيانا في ثوب فاضح من جلد نمر أبيض، وإلى جوارها الدرويش هادئ النفس والهيئة، بينما يجلس الذئب قرب البركة التي انعكس على سطحها وهج المشاعل. حياهم بإيحاء وهو يقف بالمكان الخاوي وسطهم، ولا أثر لكتيميبي بين الحضور. جلس، وتبعه القادة والأمراء، وبدأ الحفل.

لم يجلسوا إلا بعده، وانتفخت أوداجه وهو يتابع الطقس الغريب. قدم إلى الساحة كتيميبي في كامل درعه، ووراءه كهنة يغنون ويطوحون بمباخر بأيديهم، وكل منهم يرتدي جلد ورأس حيوان مختلف، ولطخ الظاهر من أجسادهم ووجوههم بألوان رايات قبائلهم. تحلقوا حوله وأخذوا يدورون نازعين عنه درعه وملبسه، وصار عاريًا إلا من رقعة جلد بالكاد تخفي عورته، وقف رافعًا رأسه إلى السماء ماذًا ذراعيه إلى الأمام. وعلى وقع دمدمة الطبول راحت إحدى المحاربات تنشد بلغة الحوريات القديمة، عذوبة كلماتها غير المفهومة تسببت في قشعريرة تملكت من أبدان الحضور، والكهنة يضغطون بأيديهم على رأس وكتفي كتيميبي ليجلسوه بين أقدامهم، وضافت عليه الحلقة حتى اختفى عن الأعين، وجاء أحدهم بجرة فخارية كبيرة، رفعها وأراق ما فيها على رأس الأمير وأيدي الكهنة المثبتة فوقه، فركوا الدماء بشعره الخشن، وانسابت على كتفيه وجسده حتى غطته.

خرَّ الكهنة سُجدًا، ومن بينهم نهض الأمير مغطى بالدماء، وعلى وهج المشاعل أخذ يخطو بعيدًا عنهم، وتحول غناء المحاربة إلى نشيد جماعي راح يردده الجميع، وبرز أمام الأمير فجأة رجل مصبوغ بلون أحمر قانٍ يمسك مشعلين، ويعتمر رأسًا أسود طويلًا له عينان حمراوان مشقوقتان طولًا، يُشبه تلك الجمجمة في جبال الإفريز. أخذ الرجل يلوح بالنيران في الهواء، وبعدها استعرض قوته ومخالبه الطويلة، وراح يقفز رقصًا حول ملكهم الثابت. فُرعت الطبول لتزيد الحماسة، ووقف أهل البردقوش جامدين فاغرين أفواههم يشاهدون ما يحدث! أشاحت بعض النسوة أبصارهن، وما لبثن أن عُدن متصلصات، وساد السكون والرجل يدور في وجوه الحضور، حتى استقر أمام كتيميبي ينظر إليه بتحدٍ، وتواجهها بحركات غريبة، بدا الأمر كعمركة استطاع فيها إخضاع الرجل، الذي تراجع مدحورًا حتى اختفى بين الحشود التي انشقت وخرج منها كاهن قصير يعتمر تاجًا من ريش، باسطًا يديه أمامه حاملًا الرمح، وجاء من ورائه رجلان يحملان جرتي ماء. ركع كتيميبي على ركبتيه، ومنحه الكاهن الرمح في اللحظة التي سكب فيها الرجلان ما بداخل جرتيهما فوق رأس الأمير، وصوت الكاهن يدوي في الجموع وهو ينثر شيئًا على جسده:

- نطهرك بماء وملح يا حارس الرمح الفضي، ونعهد إليك بقسم الحوريات، أنت منا ونحن منك، انهض يا صاحب النبوءة يا قاهر الظلام، انهض يا ملك الموارنة وسيد غابة الطلال كتيميبي بن ماجو. لك الأمر ومنا الطاعة، وخطانا نوافق خطاك، لا نرى إلا ما نراه، وقدرك مع أقدارنا مغزول.

لما قبض كتيميبي على الرمح، أحس بثقله، ومرة أخرى استشعر القوة الغامضة التي تسري بداخله. وجهه ملطخ بالدم واللبن، وعيناه تتأملان ما بين يديه. ظل جامدًا وهلة قبل أن ينهض رافعًا رمحه، قائلًا بصوت

جهوري:

- الأسلاف يروننا وباركون جمعنا. أنتم دمي وأنا دمكم، وأعاهد الآلهة وأرواح الحوريات والأجداد أن أقاتل لأجلكم ما دمت حيًّا. اتبعوني للعة والنصر ومجد لا يباهى، لنحقق النبوءة، ونقصي سيد الخراب والنار عن أراضينا، ولنسترد أهلنا، ويعرف القاضي والداني قن هم محاربو الظلال.

بختام كلماته هاجت الجموع، وبدأ الحفل الحقيقي. بارك قادة القبائل ملكهم الجديد، وخضعوا وتلا كل منهم قسم ولائه، وأهداه كل واحد تذكرا شرف يليق بعودتهم مملكة موحدة كغابر الأزمنة، وكانت هدية تيانا مختلفة عن الجميع؛ تاجًا غريبًا من عظام فقرات وأنياب أسود القاع، توجت به رأس كتيبي أمام الجميع، وكان من العجيب رؤية الدرويش يؤدي قسم الولاء! لا أحد يعلم لم فعل هذا، لكن ما بدر منه كان شيئًا أراح النفوس، وزادها بهجة، وحده شاهين بن عز الدين من بقي جالسًا في مكانه يتطلع إليهم. انتظر الجميع أن يعلن ولاءه، كما فعل أمراء الحرب، ويبدو أن انتظارهم سيطول! فالرجل يرى نفسه ملكًا، وإن كان غير مُتَّوج. ووسط صخب الاحتفال ذهب إليه كتيبي، ووقف أمامه قائلاً:

- سيد شاهين، أعلم أن قسم الولاء لا يشملك، لكني أرجو أن يستمر حلفنا، وأن تؤازرنا حتى النهاية.

قام ابن عز الدين مبتسمًا، ومد يده ليصافح كتيبي قائلاً:

- أهلاً بكم ضيوفاً وحلفاء وإخوة في السلاح تحت شمسنا الساطعة.

لم يتوقف أحد عند كلماته، تصافحا أمام الأشهداء، وانضم أهل الحكمدار ورجاله فرحين إلى الاحتفال. حلقات غناء ورقص ولعب، ومشاءٍ تقطر دهنًا، وأباريق تفيض، كانوا بحاجة إلى تلك اللحظة من غبطة تنسيهم شيئًا مما حاق بهم. استرخى شاهين في مجلسه، وجاوره سلام الذي قصَّ عليه ما سمعه ورآه في البوغاز، عن أبناء السلطان غازي الذي يحشد جيشًا عظيمًا في المرقد، وأن أزد تمرت، وأصبح يحكمها رجل يقول إنه نبي، ومدينة البحر تعيد تحصين نفسها بعد مرور سعد العاصف. أصبحت المدينة على جيش صغير يتقدمه رجل يحمل راية السلطان، ويجر وراءه عربات عزال وأسرى، بث الرعب في نفوس الناس، وأشاع أن جيوش غابة الظلال تجتاح كل ما في طريقها، وما كفر البردقوش ببعيد. نزل البرغوث في ضيافة الوالي عند باب البحر قبل أن يرحل إلى الزرقاء، على متن السفن السلطانية.

أخذ سلام يروي وشاهين ينصت، وكعادته نهض ذهب ومشى مبتعدًا عن ضجيج البشر، تاركًا الحفل وأباه الذي انغمس في بهجة الحفل بصحبة المحاربة تيانا، وابتعد قدر الإمكان إلى تلة تشرف على الحصن. نام واضعًا رأسه بين قائمته الأماميتين، متطلعًا إلى الجمع المحتفل على ضوء المشاعل ونيران الشواء. زحام وصخب، وراقصون يقفزون على وقع الطبول بين الأطلال.

في صباح اليوم التالي استيقظت رقية حين حُيل إليها أن شخصًا يقف على مقربة منها، ورحل قبل أن تتبينه. الشمس كانت تعشى عينيها وتير محبسها، جلست تستند إلى الجدار هاربة إلى الظل. عيناها منتفختان، والنحاس لم يفارقها. دفعت بقدميها طبقًا به بقايا طعام، لا تعلم من وضعه هنا، ومن الذي أكل

منه! يعاملونها كالحیوانات وهي ابنة الكرام، أرادت أن تصرخ بأعلى صوتها من الغیظ، وربما القهر الذي نال منها. وفوقها بالطابق العلوي، وبينما كانت تتحسر على حالها، يجتمع الحكمدار شاهين مع الملك كتيبي والدرويش ولحق بهم سلام، التفوا حول خريطة قديمة مهترئة الحواف، ومرة أخرى ألقى سلام على مسامعهم آخر الأحداث، وحالما انتهى، تحدث الحكمدار:

- حسناً أيها السادة، كما سمعتم، البوغاز تزيد من تحصيناتها، ولا أظن أننا قادرون على حصارها من الأساس.

ردّ كتيبي بجديته المعتادة:

- نحن بحاجة إلى بلوغ البحر، والحصول على سفن.

زَمَّ شاهين شفثيه قبل أن يقول مشيراً إلى الخريطة:

- يبدو أننا بحاجة إلى فهم الوضع أكثر. سعد البرغوث يسبقنا بخطوات عدة، هو الآن في الزرقاء عاصمة بني الأزرق ودرّة تاجهم، ونحن هنا بعيدون تمامًا عن البحر ومراكبه وحيثانه...

قاطعهُ الدرويش:

- يمكننا مهاجمة المهديّة، ستكون أقلّ تحصينًا من البوغاز، وبها دار صناعة السفن.

ردّ شاهين متهكماً:

- سأفرض أنكم وصلتُم إلى المهديّة، وأخذتم سفناً من هناك، وأنكم ستجنون من بحارة بني الأزرق، ماذا بعد وصولكم إلى الزرقاء، ستطرقون باب عش العُقَاب تطلبون بلطف أسراكم والقصاص من القاتل؟! هل تطنون أن سعد الذي أحرق مدناً وقرى لن يدافع بشراسة، وهو يملك الآن السلاح والعناد والمكانة الرفيعة؟! هل رأيتم المدينة وأبراجها من قبل؟! أنعلمون كم يرتفع جبل العُقَاب حيث يقع عش الملك وعرشه؟! حيث يقع عش الملك وعرشه؟! حيث يقع عش الملك وعرشه؟! حيث يقع عش الملك وعرشه?!

قال كتيبي بنبرة متسرعة:

- قال سلام إن سلطانكم سيذهب بجيشه شرقاً، هكذا ستكون مدينته خاوية.

- غازي ليس سلطاناً، والزرقاء قادرة على الصمود، ويكفيها حامية صغيرة، وستبادون عن بكرّة أبيكم، وتروي دماؤكم حقول الزعفران والأقحوان حول أسوارها المنيعة.

- هل هي محاولة منك لتثبيط عزائمنا؟

- لا، لكن هذه الأمور لا تتم هكذا. سمعتم من سلام أن السلطان يجمع جيشاً في مدينة المرقد، وإن افترضنا أن خبر ما حدث في آزاد صحيح، هكذا سيذهب غازي إلى الشرق حيث يقمع التمرد، وبينما البوغاز تستعد لقدمنا، ومن المستحيل أن تجتازوا أسوارها ببضعة فرسة وأربعة آلاف رجل. الوصول إلى الزرقاء بحرّاً هو ضربٌ من الجنون والانتحار هباء! إن كنا سنخوض حرباً يجب علينا مياغتهم، كما قال الدرويش. ولكن ليس في المهديّة، وإنما هنا...

قاطعهُ كتيبي:

- سأطلب المدد من قومي في غابة الظلال، وستجمع كونواً جيشاً وموئلاً.

رماه شاهين بنظرة غير مبالية، وأشار بذبابة سيفه إلى نقطة صغيرة على الخريطة، وتابع بصوت عميق:

- هنا يتقاطع طريق المهديّة مع طريق العرش، حيث تقع عدة حصون يمكننا السيطرة عليها بسهولة، وهكذا نكون قد قطعنا الطريق بين البوغاز والجنوب، هكذا تفقد مدينة البحر مؤنّها وتجارها، وموسم الحصاد على وشك القدوم. ستكون ضربة قوية للسلطان، وبعدها يمكننا السيطرة على الضفة الغربية للنهر الكبير. وإن استطعنا دخول حصن مخلب العُقَاب فسنكون قد ملكنا كل أراضي الغرب في تلال الشمس.

مرة أخرى قال كتيبي بنبرة حادة متحفزة:

- لا نريد السيطرة على مدن وأراضٍ، بل استعادة زوجتي والأسرى الآخرين.

- امتلاك البلدات والحصون سيمنحنا أفضلية على جيوش بني الأزرق، والعقاب نزل من عشه إلى ساحة الوعى، وتلك فرصتنا لقص جناحيه. سنجعلهم يجزئون قواتهم ونهكهم، وبعدها نتفاوض على السلام والانسحاب، مقابل الأسرى، ناهيكم بالغنائم التي سنحصل عليها.

لمعت عينا الدرويش، وتدخل مخاطبًا شاهين:

- هل سينضم إلينا حلفاؤك من مملكة الساحل؟

- لا أعلم، يبدو أنهم وقاسم أصلان لديهم الكثير ليفعلوه، ستردنا الأخبار بالتأكيد، ويجب ألا تتأخر في التحرك. كل خطوة إلى الأمام في هذا التوقيت هي للنصر المؤكد. يمكنكم التفكير والتشاور، ولن تجدوا خطة أفضل مما قدمت لكم، إنها أوقع من أوهام بطولية قد تؤدي بنا جميعًا إلى الموت.

قال كتيبي بعد تبادل النظرات مع الدرويش:

- بختك هذه نتحول إلى الهجوم على أرض خصمنا. ولا أدري كم سنصمد!

- إنها حرب يا رجل، ولا فرصة أفضل من مياغنة عدوك من حيث لا يحتسب. سنجعل خطَّ إمداد دائمًا على طول طريق فتوحاتنا.

- وماذا إن رفض السلطان التفاوض؟!

- إن صح خبر أزد، وإنها سقطت في يد المتمردين، فسيشغله هذا عنا، وسيمنحنا الوقت الكافي لبسط السيطرة وتحصين ما تحت أيدينا من حصون. في النهاية لا أحد يخوض الحروب إلى الأبد! وسيأتي وقت التفاوض.

أضاف الدرويش برصانة وثقة لامست قلوبهم:

- إنه ضعيف من دون رجاله، ولا يستطيع تدبير أمر نفسه من دون وجودهم.

كلماته جعلت شاهين يطيل النظر إلى وجهه، قبل أن يرد:

- نعم كما قال أبو الذهب، إن السلطان يتخبط، وعلينا استغلال الأمر. أيها الدرويش أعهد إليك بإدارة أمور الحصن حتى عودتي، هناك رحلة أخيرة عليّ خوضها.

سأله الدرويش مستغربًا:

- إلى أين؟!

- لأحصل على جيشي الخاص.

لم يُضف شاهين أي كلمات أخرى، غادر قاعة البرج بعد جملة المقتضبة، والدرويش يعلم أن الرجل محق في بعض الأمور، وتلك فرصة لن تعوض لمقابلة غازي إن حالفه الحظ، عدوه القديم الذي سلب منه حياته وكل ما أحب، من تسبب في سفك الدماء، وحرق الأبرياء، لقد كثرت آثامه، وأن الأوان ليذيقه مرارة الخسارة، أن يتفتت ملكه أمام عينيه بين ثورة وتمرد واجتياح. يثق بأن شاهين واسع الرؤية والحيلة، ودومًا لديه خطط أخرى، بالطبع ليست كل الحروب تدار بالسيف، عليه ألا يخسر جهود الرجل وحكمته، فهو محق في أمور كثيرة. لكنه مخطئ في كل شيء في نظر كتيبي، لم يرق له تعامله، وطريقة حديثه، تهكمه والتقليل من شأنهم كانا واضحين. لماذا يضع الخطط ويفرضها عليهم؟! أما سلام فلم يعين له أي شيء من الحوار الذي بدأ بين الدرويش وصاحب الرمح، غادر القاعة هو الآخر، والضيق يملأ صدره، فكل ما يريده هو

رؤية البرغوث ميتًا، وسيفعل أي شيء مقابل هذا.

لا تمنحنا الحياة العديد من الفرص، والساذج من يضيع واحدة، ويعيش ليندب حظه، منتظرًا أن تأتي فرصة أخرى. اختار شاهين أربعة رجال لرفقته في رحلته الطارئة، كان اثنان منهم قد عادوا للتو مع سلام، وأخبرهما بالاستعداد للرحيل مع الفجر، وكذلك أمر أمينة أن تُعد زائدًا يكفي رجلين. عجنت ما تبقى لديها من دقيق، وخبزته مع قطع اللحم المملح، وملأت قرتي ماء وزجاجة من شراب التين، وتأكدت من وضع فراش تخميم نظيف مع سرجي الجوادين. ولما فرغت قادها فضولها الذي لا يخمد إلى غرفته، طرقت الباب وأذن لها بالدخول، كان منهمكًا في حزم أغراضه، سألته بروية ولطف:

- سيدي، هل سترحل وتركننا؟

استدار إليها، ورمقها طويلاً قبل أن يقول بنفاد صبر:

- أينها البائسة، لا أعلم من أين تأتين بكل هذه الخيالات! كل ما في الأمر أنني ذاهب إلى البوغاز ولن أطيل البقاء هناك، سأعود حالما أنهى بعض أعمالي. هذا البرج بين يديك أنت، وقد أوليت إدارة الحصن إلى صاحب الذئب، سيعاونك في أي شيء تريدته.

- لن تعود مجددًا؟

توقف عما يفعل، وقال لها:

- أمينة، انزلي وفكي وثاق رقية، أطعميها، واجعليها تتحمم، وامنحها ثوبًا نظيفًا، سأعيدها إلى دار أبيها في البوغاز.

- إنها تحبك! وفعلت كل شيء لأنها تريدك لها وحدها. أنت الذي انشغلت عنها بأمر خططك وبناء تحصينات الكفر الذي أكلته النيران. امنحها فرصة ثانية.

- فرصتها الثانية أنني تركتها تحيا.

- هذا من نبلك وأصلك الطيب، ولكنك أخطأت في حقها في بداية الأمر، عليك أن تواجه هذه الحقيقة. أقول هذا لك وسبق أن أخبرتها بما في نفسي، هذا حقي عليكما وأنا الذي عشت معكما دهرًا.

صاح شاهين:

- أنعرفين، اكتفت منك يا أمينة ومنها، ومن الثرثرة! هيا اذهبي، ولا يفلت لسانك بشيء مما ذكرت.

رحلت من فورها، وعلى وجهها غبطة جلية، يعلم أنها لن تتوقف عن الكلام، وربما تنقله إلى رقية، لكنه لم يُعد يخشى شيئًا. لم تُعد رقية تهمة، لا يريد لها في محيطه، ولا يستطيع نسيان ما فعلته، ومن أجل سابق الأيام بينها والعشرة والمحبة التي كان يَكِنها لها، سيحملها معه إلى البوغاز، ولن يأمن لها طوال الطريق، لن يحدثها، ولن يرق قلبه لنعمتها. اللعنة على الذكريات الوردية، وكل لحظة ودُّ وقرب منها! هذه المرة لن يثنيه شيء عن بلوغ مبتغاه، ولن تغرب راية بني شمس مرة أخرى.

في دياجير الظلام ليس هناك شجعان، يطوق الخوف الأجساد، ويسري بمجرى الأنفاس. فتح عينيه ليجد روحه تطفو على ماء، ويحيط به خواء معتم، لا نجوم فيه ولا سماء، ولا يستطيع ألف قنديل أن ينير المكان، وآخر ما يذكره أن الخنجر استقر قرب موضع قلبه، وشخص غريب ذو عينين تتوهجان يمد إليه يديه ويَعده بالنجاة. اعتدل جالسًا يتحسس جرحه الذي ما زال يتدفق دمه، لا يشعر بألم أو نصب كأن لم يمسه ضرر. دار بحثًا عن أي شيء يهتدي به، وأين هو من الموت والحياة، رأى نجمًا لامعًا يهوي ساقطًا، ويتأجج من حوله اللهب.

ارتطم النجم، ورجَّ العدم انفجار عظيم، مثيرًا موجة من هواء ساخن وضياء، وسرعان ما خفت وخبا إلى أن صار نقطة مشعة في بحر السواد، ومشى باتجاهها بحذر على درب من ماء، لم يغرق ولا ابتلت قدماه، وكلما اقترب تبددت الظلمة رويدًا رويدًا، وأمام كرة نار كبيرة تبيست قدماه، اعتراه الخوف وألسنة اللهب تتراقص وتمتز، وما لبثت أن تشكلت واستوت بهيئة إنسان، تغيرت ملامحه بسرعة لمئات المرات، واستقر على هيئته، سعد بن مرزوق برغوث البوغاز، يشبهه أو أنه مجرد انعكاس لصورته، تراجع فزعًا خطوة إلى الوراء وتوقف، كأن قبضة ساخنة أمسكت قلبه، ولطمه الهلع طابعًا أثره على وجهه. ارتجف وهو ينظر إلى متوهج العينين، هو نفسه بذات الملابس والهيئة والدماء التي تقطر من جرح صدره، سأله والرعبة تخنقه:

- من أنت؟!

جاء الرد بنبرة مخيفة كأنها من عمق بئر جافة:

- واهب الخلود، الذي ناشدته للنجاة يا سعد.

ومضة ذكرى سطعت في روحه، تذكر الخنجر المغروس في صدره، وهو يسعل لافطًا رذاذ الدماء، وأنفاسه تتلاحق، ولا يستطيع كبح روحه من الخلاص، يتحسر على عمره الذي على وشك الانتهاء، والفوضى تعم القاعة من حوله، وروزاليندا تحتضنه بقوة، ودخل بين الحشود كهل أصلع، عيناه دامتان، تطلع إليه بجمود وهو يقف فوق رأسه، وخاطبه من دون أن يحرك لسانه وشفتيه:

- هل تريد أن تحيا؟

حاول سعد حينها أن ينطق إيجابًا، وتحشج الدم في حلقة، والرجل الغريب يسمعه من دون أن ينطق بالكلام يستغيث راجيًا الحياة، فحدثه بهدوء لا يناسب الحال:

- شرط أن تنصت لي وتمثل لما أقول. سأمنحك الحياة وقوة وملكا وخلودًا لم يكن لأحد من قبلك، إن وافقت على العهد بيننا، وإنك ستخدمني بما أوتيت من حياة، قل أهب جسدي وروحي وحياتي لسيد النار؛ نرغال خالق الظلام وواهب الخلود.

رددتها سعد في نفسه، والدماء تسيل من طرف شفته، وروزا تصرخ باكية والجند والحرس يكيلون الضربات للأسرى، والقاتلة البربرية تنظر إليه بابتسامة ظفر، والسلطان غازي يقف ناظرًا إليه بخيبة أمل،

والعقاب يطير حول الثريات. شعر بروحه تنسل منه عنوة، وسال دمع الحياة من طرفي عينيه، وبها تبقى له من عزم مد يده ليمسك يد منقذه الغريب، وما إن فعل حتى انسابت روحه إلى الظلام الدامس، حيث يقف الآن.

أفاق من شروده على صوت محدثه:

- تذكرت الآن؟!

- هل هذه هي الحياة والنجاة أم أنني أقف داخل جحيم الأموات؟!

- بل استراحة قصيرة، تكفي للتعرف بين شريكين، لن يفوتك شيء، وما زال هناك الكثير من المتع التي تنتظر.

- أيُّ شراكة هذه التي تجعلك تتخذ من هيئتي قناعاً؟!

- لا تتعجل يا سعد.

- تعرف اسمي إذن. وماذا عنك؟!

دار نرغال حوله بهدوء عاقداً يديه خلف ظهره، وقال بجديّة وعمق:

- سبق أن قلت لك اسمي، لكن يبدو أنك نسيت بسرعة! على كلِّ، أنا غريب عن هذه الأرض، وكل ما أريده هو العودة من حيث جئت، وأما عن هيئتك فأنا في نفسك الآن، وأعرف عنك كل شيء، منذ نشأتك في مجاري البوعاز، وحتى صعودك إلى عرش الغقاب. كل ذكراك وما حلمت به يوقا صار جزءاً مني، كما صرت أنا جزءاً بداخلك، لا يمكن لأحد سماعي سواك. يملك كلُّ منا الآخر بطريقة ما، ولعل القسم الذي رددته في احتضارك كان بالنسبة إليك مجرد كلمات، تنشد بها نجاة وطول الأمد، لكني قيلته على كل حال، يتعين عليك أن تشكر المرأة التي طعنتك، لولا فعلها ما جئت إليك على عجل، وسمعت مناشدتك لإله لا تعرفه، فأنت لم تؤمن يوقا بشيء، لكنك فعلت مستجدياً أن ينقذك أحد، وكنث في الجوار.

- لا أظن أنك إله...

لم يُتم حروفه، وتبدل من حوله المكان، غمر الضياء أرضاً ذات غابات وأنهار صافية المياه، ومدن مبانيها شاهقات البنيان، تتخللها حدائق معلقة وافرة الزهر والثمار، وقصور عجيبة مزخرفة الواجهات تطل على ساحات وبحيرات، وطيور غريبة الهيئة زاهية الألوان، تحلق في سماء وردية تتجلى في رحابتها كواكب وعدة أقمار، وفي الأفق البعيد جبل أسود يرتفع فوق هامات السدود والأسوار. تَلَفَّت سعد حوله ولم يجد أثراً لشبيهه متوهج العينين، تعجب ولم يمنع نفسه من التجول في الدروب المبلطة باللؤلؤ، وشوارع خاوية لا أثر فيها لبشر أو حيوان، وعند ساحة واسعة تنتصب ستة تماثيل كبيرة متجاورة: ثلاثة أزواج من نساء ورجال، نُحتوا رخاماً أبيض معرقاً بلون مختلف لكل واحد منهم. هيئاتهم قريبة من البشر، وعلى رؤوسهم خوذات كالأشواك، وطلتهم مخيفة وإن نُحتوا ببالغ الجمال، يرى بروز العروق في سواعدهم وخطوط عضلات بطونهم، كان ضئيل الحجم أمامهم، ولفقت انتباهه قاعدة حجرية مهشمة، لم يبقَ بها سوى جزء من قدم تمثال. وفي خضم السكون سمع سعد صوت نرغال:

- هذا عالمي، وتلك بقايا تمثال كان لي، أنا نرغال، الأول في العوالم، وسيد النار، وصاحب عالم الأموات، واحد من سبعة أسياد يحكمون عالماً بعيداً عن عالمكم، لكنه قريب الشبه به. نحن الأرباب هنا وإن اختلفت المخلوقات والمسميات، ووفق شرع الخالق الأعظم أقمنا العدل والسلام، حتى أراد ابن أبي إشيكيجال أن يستأثر وحده بكل شيء، أنزل عذابه على العباد ليخشوه ويقدسوه وبرزوا منه الخلاص، بدعواتهم وصلواتهم صار أقوى، ولم يجد بقية الأسياد مناصباً من اتباعه ودعّمه في الانقلاب على مفادير الحياة. أراد أن يقني الموت فلا يبقى سوى الخلود، ونسي أنه ليس للجميع بل لقن يطمح إليه ويستحقه، وأصيب الخلائق بالجنون والرغبة في العيش إلى الأبد.

قدموا قرايين من دماء، وقتلوا الضعفاء والمساكين، ابتغاء مرضاة إشيكيجال. لم أفلح في إنقاذ روح واحدة، ولا مناص من الأقدار المحتومة، وإخوتي في السماء تزداد قوتهم بفعل صلوات الحمقى الطامحين في الخلود، ورحمت أساعد الأرواح الهائمة لأناس لا

يدرون فيمَ قتلوا، ولما علم إشيكيجال أعلن أنني مارق على سلطة الأسياد، أراد أن يحظى بقدرتي وقوتي الفريدة عن بقيتنا، وكنت نداءً صعب المراس، وخضت ضده حروبًا عدة، وهلك فيها الكثير من الناس، كانوا يكرهون الموت، ويقدمون الأصاحي لتزداد قوة إخوتي، وجيشي يزداد يومًا بعد يوم بكنرة الأموات.

رأى سعد كل شيء يحدث ويتجسد أمامه؛ جحافل تتقاتل، وجثث غُرست فيها السيوف الغريبة والرماح، ودخان يعلو ألسنة لهب أزرق يأكل القباب والأبراج، وكائنات من نار تطارد الأحياء، وصدى نرغال يدوي بداخله قائلاً:

- أظهرت لهم غضبي، فما كان منهم إلا أن نذوني وسلبوا مني صلوات أتباعي، أصبحت الخائن الشرير الذي يريد الهلاك للمخلوقات، البشر النقي، بينما هم محبو السلام وواهبو الخلود للأحياء، وبعد معارك طويلة دعوا إلى هدنة ومأدبة، يتبعها نزال ينهي الصراع.

وجد سعد نفسه يقف في شرفة فريدة الأبهة والعظمة، وينظر في ساحة نزال إلى نرغال وأخيه إشيكيجال، مبارزة شرف من دون قدرات الأسياد. تحلى كلاهما عن تاج قوته، وحمل سيد النار درعه ورمحه، بينما حمل غريمه كبير الأسياد مطرقة العملاقة، وتقابلا بشرر وغلّ وقسوة، قتال متكافئ بين أخوين يعرف كلاهما أسلوب الآخر، يدوران دفاعًا وهجومًا ببراعة، لا نهاية للمعركة، وإن تصارعا حتى صباح اليوم الألف من بدء النزال، وبمكر حمل نرغال على إشيكيجال، وكاد يفتك به، لولا تكالب عليه الإخوة الأندال الذين هبطوا فجأة وأحاطوا به، والكثرة تغلب أشجع الرجال، سلبوا منه درعه ورمحه ولم يبق بداخله أي شيء من قواه، كبلوه بسلاسل ضخمة وُسِمت بطلاسم وتعاويذ، وتُلي عليها سحر وصلوات دائمة التلاوة بين الأشهاد، ووضعوه في سجن من نار وحمم بقلب أحد النجوم.

تبدل المكان مرة أخرى بسعد الذاهل، وهذه المرة كان يقف داخل كرة لهب مستعرة، تسبح في العدم، وذكرته النيران بما فعله بالتل الدموي، وكفر البردقوش. وبنبرة رخيمة حدثه نرغال:

- كان هذا منذ خمسة آلاف عام كما تحصونها أنتم، ثلاثة منها وأنا حبيس فيما يُسمّيه بنو جنسك، عين الشمس. حاولت الخلاص، فإذا بسجنني بهوي إلى عالمكم، وهلك خلق كثير حتى كادت تنفى الحياة، جفت بحار وأنهار، وانقرضت سلالات، وجاء في أنري ثلة من أتباعي المخلصين، حسبت أنهم يبعون نجاتي ومساعدتي، لكنهم جاءوا للبحث عن أسلحتي، التي سقطت من النجم إلى مناطق متفرقة على أرضكم، ربما ظنوا أنني مت، وأصابني الفناء، وعلمت بعد ذلك بقرون أنهم قاتلوا أهل الأرض في الغابات والجبال وطاردوا الحوريات، وفي النهاية فشلوا في الحصول على درعي ورمحي. كل هذا وأنا داخل زنزانة ينصهر من حولها قلب النجم نهارًا، ويبرد ويجمد كلما حل الليل.

مرت الأيام والكثير من السنين، حتى أتى الناس إلى عين الشمس، وفي قلوبهم من الشهوات الكثير، أرادوا الحصول على كنوزها التي لا تنتضب، ولا أحد يعلم أنني بداخلها مقيد ووحيد غاضب، لا أقوى على الخروج والفاكك، وما من أحد لمس النجم إلا وتسربت أحلامه وأمنيته وتفصيل حياته إليّ. كنت أستمتع بذكرياتهم، وما تحمله النفوس التي اطلعت عليها. يتكأنغذى على هواجسهم وما يطمحون إليه، حلكت تريدون العدل، والحرية، والثراء، والعائلة، ونعيمًا لا ينفد، نفوسكم جائعة تواق إلى مزيد من اللذة وشهوات الحياة. كنت بحاجة إلى الخروج من زنزانتني، وكانوا بحاجة إلى إله حقيقي يحقق لهم الخلاص. ومنحتهم ذلك!

وعلى حافة جرف شديد الانحدار وقف سعد، ينظر إلى وفود الناس إلى حفرة تنمو حولها روافع وأبراج محاطة بالسقالات، ومدينة وُلدت على الحواف، وفي السماء من فوقه غيوم كثيفة وجو عاصف مطر، والقاع أسود مشقق بالنيران ينفث بخارًا، وصوت نرغال يحدثه:

- رأيت المكان يُبنى على مدى مئات السنين، وكانت عشرة أيام مطيرة كافية لبيد قلب النجم، وتتشقق جدران زنزانتني. استطعت الخروج بروحي تاركًا جسدي في باطن الأرض، وتمكنت، بما تبقى من قواي، من إنزال شيء من عذاب على بني شمس، لعلمهم يبحثون عن إله حقيقي بدل الكواكب التي يعبدونها، وأن يتضرعوا إليّ، فأرفع عنهم الوباء والعذاب، ولكنهم ضعفوا وتصارعوا فيما بينهم، وأنا من جئت ببني الأزرق ليفنوا ملكهم بعد أن حكموا هذه الأرض ألف عام، وقضيت أعواقًا في التنقل والترحال كروح هائمة من دون قواي، أبحث عن جسد مُجتبى أستطيع من خلاله تحقيق مرادي. حاولت استمالة النبلاء والأمراء لما أريد، وانتهى بي

المطاف في كهف الذاكرة، حيث وضعت أسس الديانة التي أستطيع بها أن أحصل على عباد لي، وسطرت نصوص شريعة تنظم حياة هذا العالم الفاني، الذي تخلت عنه الآلهة، ولم يكن من العسير إقناع الناس.

بحثت عن مؤمنين يمكنهم دعمي، ووجدت شخصًا ضائعًا يائسًا يطمح إلى أن يقيم ميزان العدل، جعلت منه نبيًا يبشر بالمحبة والسلام، وينادي برفع الظلم وسيادة العدل، وحينها بدأت قواي تتوهج بفعل صلوات من اتبعوه في سبيلي، واخترت له ستة حكماء يساعدونه، وكنت سابعهم. منحت كلاً منهم بركاتي وشيئًا من سحر ليبروا أعين الناس، وإخلاصهم وصلواتهم أمدوني بالقوة اللازمة لتحقيق ما أريد. وبينما هم يحشدون الأنبا رحمت أجوب الأرض شرقًا وغربًا بحثًا عن أغراضني، حتى إنني رأيتك يوم العاصفة في بحر الرمال، حين قتل رفاقك بعضهم بعضًا، ولم أظن أن نلتقي مجددًا، وهذه المرة أكون أنا سببك للنجاة، حالما تفيق ستدرك مدى القوى التي بداخلك، كل ما فعلته هو أنني أوقفت نزيك الداخلي، أسعفتك وأمسكت روحك.

- لماذا فعلتها ولم تتركني للموت هذه المرة أيضًا؟!

- اخترتك لأننا نتشارك في شيء ما، تريد الحياة وأريد حرتي، تسعى إلى المجد وأستطيع منحك إياه، وفوق هذا خلود لا فناء بعده.

تغيرت الأجواء من حول سعد. كان داخل قاعة ملكية مبهرجة بالذهب، وعلى عرش عجيب من بلور يجلس هو نفسه، البرغوث ملك يرتدي تاجًا من ذهب، مرصعًا بجواهر ملونة تشع ضياءً، وأمامه جحافل من الفرسان والفيلة والجند المدرع، والناس ينادون باسمه وسط أهازيج وورد يُنثر في الهواء، وجوار حسان يرقصن بتناغم على وقع الألحان. راق له ما يرى حوله، يوقن أن كل هذا ليس حقيقيًا، مما جعله يقول بتوجس:

- هذا جانبك أنت من القصة، وماذا بعد؟

- سأعود إلى عالمي وأستعيد ما سُلِب مني، تاركًا كل شيء لك.

- بهذه السهولة؟! ماذا عن السلطان وبنو الأزرق؟

- يظنون أنك ميت، كفنوك، ويستعدون لدفنك على تقاليدهم. ستكون في نظرهم معجزة، أو ربما تكون إلهًا إن أردت! إن أنصت لي ولنصائحني فستغلب عليهم بكل يسر، ستتعافى سريعًا وتلتحق بجيش السلطان. كل ما عليك هو أن تحمل درعي وتصل إلى عين الشمس.

وبينما كان سعد ينصت للكلمات نرغال، ظن أنه سمع صوتًا مألوفًا يأتي من بعيد، أرهف ونطق متممًا:

- روزاليندا؟!!

نظر إليه نرغال وعلى وجهه ابتسامة مخيفة، وقال بصوتها الناعم:

- لا حياة من دونك!

انتفض جسد سعد، وارتج المكان من حوله، تهاوت الألوان في ظلام غشاه شلال دماء هبط على رأسيهما، وصورته المخيفة ذات العينين المتوهجتين تقترب منه أكثر، حتى ارتطم بجسده وتبخر الطيف واختفى مع الهواء، أفاق فزعًا يشهق وتتلاحق أنفاسه، لم يقوَ على النهوض، ووجد روزا غافية على صدره، كم كان كابوسًا مزعجًا. شعر بخدر يهيمن على جسده، وعير عطرها يعبق المكان إلى جانب رائحة أخرى لم يتبينها، خشي أن ينهض فيوقعها، ونادهاها هامسًا ليوقطها:

- روزا، وردتي.

لكنها لم تُجبه، أخرج يديه من تحت الغطاء الحريري، وأحس بشيء لزج دافئ ينساب عليه، اعتدل ليجلس مرتعبًا وهو يحتضن جسدها الشاحب الذي فقدَ حرته، وعلى ضوء المشاعل رأى الدماء على يديها، هزها

بقوة، وارتاع حين شاهد جروح معصميه! تَلَفَّت حوله غير مصدق لما يرى، لعله ما زال داخل هذيان كابوسه الغريب، لكن كل شيء حوله كان حقيقياً وهي بين ذراعيه جثة تفقد دفئها، ونيران المشاعل من حوله تكاد تحبُو. أصابه الصمت في صميم فؤاده، وزاره طيف من ذكرى، قديمة موجعة يوم ماتت أمه، لم يظن أن هناك مَنْ يحبه بهذا القدر، انتحرت روزاليندا حزناً عليه، ظنت أنه غادر بلا رجعة، وفضلت الموت على أن تبقى في حياة قاسية من دونه. أرادت اللحاق به إلى عالم الموتى، وبقي هو جالساً يحيط جسدها بذراعيه منكسر الرأس، أراد البكاء بشدة وأبت نفسه إلا الكتمان، أحس بأن كيانه تصدع برحيلها. تَلَفَّت سعد حوله وهو يتمتم:

- أين أنت يا واهب الخلود. أعدّها إلى الحياة كما فعلت معي!

طال انتظاره للإجابة، حتى ظن أنه ما زال داخل الكابوس. شكَّ في كل ما حدث، وما رآه من عجائب. تشتت ذهنه حتى سمع نرغال يرد بداخل رأسه بنبرة حادة:

- لا أستطيع الولوج إلى الأموات. وهناك شرط أن يوافق المجتبي على دخولي جسده، لا أظنها قادرة على النطق به الآن، انقضى أجلها وعليك تقبل هذا. احزن كما تشاء، وتذكر أننا في الصف نفسه يا سعد. وفر غضبك، وسلطه على أعدائنا.

لم يزد سعد كلمة أو سؤالاً. ظل صامتاً يحتضنها، والشroud يطبق على حواسه، حتى وجده الكهنة والحرس في الصباح على هذه الحالة، وتفشَّت في القصر حالة من الخوف والريبة من ذلك العائد من الموت!

مرت أيام على تشييع روزاليندا، وفي شريعة بني الأزرق، لا تختلف طقوس دفن المرأة عن الرجل كثيراً، غُسلت وطُهر جسدها، وكفنت وحملت إلى قبر كان مقدراً لسعد، الذي أضحى أسطورة حية في أعين مَنْ حوله، يلقبونه سراً بـ«العائد من الموت»، وقف على رأس الحفرة جامداً لا يأبه بالهامسين ومختلسي النظرات. أيُّ قلب هذا الذي يملكه ليبدو ثابتاً كالجبال؟! وفي رأسه يتردد صدى الذكريات من كفر البردقوش، يوم منحه إياها الحكمدار شاهين، حينها تأكد أن الحياة ابتسمت له أخيراً، أغرم بدلالها وجمالها الناري، لم يأبه به أحد مثلما فعلت هي، عاجلته وسهرت على مداواته، حتى إنها تحملت وطأة شهوته، كثيراً ما همست في أذنه بنشوة مراراً:

- أنا أحيأ بك ولأجلك يا سيد الرجال!

تضحيتها كانت باهظة، ولا يعلم كيف طاوعت نفسها على فعل كهذا، ليتها صبرت وانتظرت حتى يفيق من كابوسه، ولعلها ظنت أنه مات ككل مَنْ ينظرون إليه الآن. أثار دهشة السدنة والكهنة وكل الحاضرين، وفي مقدمتهم السلطان، الذي لم ينزل عينيه عنه حتى انتهت المراسم، رآه يلفظ أنفاسه وعابنه المعالج معلناً أنه ميت لا نفس فيه ولا حياة، وبعدها بيوم يقف سليماً معافى يتقبل العزاء في زوجته الصهباء. هل مات حقاً أم أنه فقد الوعي؟! تناقل الجند والخدم حكايات عنه، وأحاطت به نظرات الدهشة من النبلاء والوزراء، حتى الأمير قاطع نال منه الدهول، ولم يستطع كبح لسانه وهو يسير إلى جواره بعد انقضاء الجنائز:

- ظننا أنك مت.

لم يُجبه سعد في ذلك اليوم ولا بعده، اختار الوحدة في قصر الضيافة، وجاءه السلطان مرتين واطمأن على حاله بريبة من دون كثير من الكلام، وكل صباح يأتي المعالجون بالمراهم والأعشاب، والخادمتان يقدمان بأطباق طعام وفاكهة لا يمسس منها إلا بضع لقيات، يظنون أن جنوناً أصابه بفعل ما ناله من فقد وأحزان، والحقيقة أنه فضل العزلة ليتعافى ويتحقق من أمر الساكن بداخله.

في البداية ظن أن ما راوده مجرد حلم وهو اجس، طمأنه نرغال وأخذه في رحلة إلى وديان الذكرى، أشياء ظن سعد أنه نسيها ونسيها من عقله، أصبح يراها رأي العين كأنها بالأمس: البوغاز وسوقها، والميناء، والحواري، وأناس قللوا من شأنه وأمعنوا في إذلاله، ووالدته البائسة التي اغتصبت وقتلت أمام عينيه وهو صغير، وأبوه العرييد المخمور على الدوام، الذي تعلّم منه حب النفس والدنيا، وأن لا أحد يستحق العطف، وبياض القرش الغبي المستسلم لمقادير الحياة، وكفر البردقوش، والحكمدار الذي أراد استغلاله، ومحظيته روزاليندا التي ماتت على صدره، وحدها من كانت تهون عليه كل شيء، بدلت حياته، وجعلته يفكر في الزواج بها، الوحيدة التي كان يملكها بناءً على رغبته، وكل هذا أصبح من الماضي! في تلك الليلة، نالت الكآبة من سعد، فقد ظل واجماً يحدق إلى الخواء حتى سمع مرة أخرى بداخله صوت نرغال:

- لا صبر من تذكر حوادث الماضي وأقداره المظلمة، فهي الدرب الوحيد الذي نسير فيه من دون ترفق أو حذر، وهذه المرة أردت أن أريك العالم كما رأيته أنت، كل ما فعلته في حياتك كان مبرراً. قل لي: هل أشفق عليك أهل البوغاز لمعانك والحياة القاسية التي عشتها؟! تبغضهم وهذا حقك، طوال حياتك لم تأس على أحد رجل طواعية أو بغتة أو تخلصت منه، كما فعلت مع صاحبك مرتين. عليك التفكير فيما ستصنع في قادم الأيام، وسيكون أمامك متسع من الوقت لتجرب كل منع الحياة، ستكون مختلفة بمقام الخلود!

- أنتستطيع أن تعلم ما في نفسي؟!

- لا، ليس كل شيء، لكنني اطلعت على كل ذكرى في عقلك، ويمكنني تخمين ما يؤرقك.

قصّ عليه نرغال الكثير من أحداث الزمان، عن قبائل الغيلان التي كانت تسكن الجبال، وطيور الرخ التي حلقت قديماً في سماء التلال، وعن أراضٍ ومدن وقارات خلف بحر العواصف، وأخرى في الشمال الأعلى وراء جبال الدب. أوضح له كيف يعيش أهل تلال الشمس في عزلة عن العالم، منذ أن سقطت النجوم، وتبدلت حال الممالك والأقوام، وأحصى له ملوك الشمس الغابرين بأسماء زوجاتهم وذرياتهم، بل وصنّعة كل منهم، وما اشتهاوا من الحياة، وحكايات أخرى استخلصها من آلاف الناس على مر الزمان. أخبره بأنه صار الذاكرة الحية لهذه الأرض وما عليها، واستطاع أن يتعلم الكثير عن هذا العالم، وهو في سباته داخل عين الشمس.

ألقي عليه شيئاً من خبر بني الأزرق وملوكهم الخمسة من بعد جاد ذي العين الزرقاء، وجميعهم لم يحظوا بمثل عظمتهم، وأفصح نرغال عن محاولاته للولوج إلى جسد العقاب الكبير، والقوة التي منحها إياه ليخوض حربه ضد بني شمس، ولكن الكهل الخبيث كان عصياً محاطاً بالمنجمين أصحاب عقيدة الجاباسكي، ولم يستطع نرغال إقناعه بدينه الوليد، لكنه نجح في جعله يفني بني شمس، وغمغم:

- لكن الموت عاجل مضيفي بفعل شُم وضعه أحد سدنة بني الأزرق، ومرة أخرى أضحت روحًا تائهة تبحث عن جسد، وسخرت جل قواي لمحاربة كهنة ومستشاري العُقاب الذي عاجله الموت قبل أن أصل إليه.

تعجب سعد من تلك الحكايات التي يسمعا لأول مرة! كثيرون يعتقدون أن جاد الكبير ليس سوى محرر، وآخرون مَنَّ يحنون إلى ملك بني شمس يقولون إنه قاتل دموي، وصاحب الصوت بداخله يقول شيئًا جديدًا. أخذ نرغال يكمل روايته عن ملوك بني الأزرق حتى بلغ غازي وندوبه الزرقاء، التي لم تكن من أثر مخلب نمر ثلوج، بل نصل كُسر قرب وجهه وهو يحاول قتل ابن عمومته. قطع سعد حديث نرغال قائلاً:

- لماذا لم تحاول إقناع السلطان بأن يكون هو مُجتناك كما فعلت مع جاد الكبير؟!

- إن بني الأزرق بلهاء مهما بلغت قوتهم، وحشيون يفتقرون إلى الحكمة، وحده جدهم الكبير كان يملك دهاءً وحنكة، أما أسلافه فكانوا ضعفاء يعيشون على سيرته، إنهم مثل بني شمس يشتهون السلطة وهم ليسوا أهلاً لها، لم يفكر ملوكهم إلا في أنفسهم، وعاملوا الجميع على أنهم أقل منهم شأنًا وعرقًا، وماذا لو حصلوا على الخلود؟! سيذيقون الناس ويلات عذابهم وتجبرهم. إنه ليس بالرجل الهين وهو أشد أعداء العقيدة التي وضعتها، لئيم يشك في كل من حوله، حتى وإن كان مرتبًا هذه الأيام، عليك الحذر منه وعدم تصديق ما يقول، إنه الغدر في هيئة إنسان، وله عيون وجواسيس كثر في كل مكان.

- وماذا عليّ أن أفعل معه؟!

- ابق قريبًا منه بقدر المستطاع، حتى تحين لحظة مجدك.

لم يتوقف نرغال عن الحديث، وبات البرغوث يعتاد صوته بداخله، وينصت لكل كلمة وحكاية يقولها، ولكن في قرارة نفسه لم يكن سعد يصدقه، هناك شيء ينبئه بأنه يكذب أو يخفي أمرًا عنه. يشعر بكثير من الحقد والغل في طيات كلماته، وهناك حلقة مفقودة في كل هذه القصص، ولكنه اكتفى من الأسئلة.

لا يخفى على أحد في عش العُقاب، أن السلطان يعيش زوجته، وينصت لحكمتها، ولم يكن من الغريب عليه أن يقص عليها ما حدث في الزنازين، وذلك بعد أن رأى القائم مقام حيا. أحس غازي بأنه في حلم مزعج، وكل شيء من حوله مسه الغرابة والسحر. كان مخمورًا حين نزل إلى السرايب ليحاور أعداءه كما ادعى، ولم يكن لدى شمس الشموس شيء من كلمات العتاب له، تعرفه حين يسكر وتدرى بأفعاله. بدا باهتًا زائغ البصر وهو يحكي لها عن شعوره حين لمس بطن الأسيرة، أفاق من سكره مع تحرك جنينها، ونشبت بداخل السلطانة نيران من حيرة وفضول، تصدقه، وتحشى عليه الجنون الذي يحوم حوله. أخبرته بأن لا داعي لقتلها بعد أن عاد قتلها إلى الحياة، ولا يصح إعدام حبل وفوق شريعة الجاباسكي، شردت وهي تنصت له، وتذكرت أنه لم يولد في القصر مولود منذ أكثر من عقد، ولا تدري إن كان الجنين فألاً حسنًا أم شرًا عليها وعلى زوجها، الذي أصبح شارد الذهن لا ينفك عن التفكير في سعد الذي عاد من الموت، لكنها أخبرته عن ابنة عمها التي سقطت من نافذة غرفتها، وظنوا أنها ماتت وكادوا يشيعونها، إلا أنها أفاق، والآن لديها تسعة أولاد. ليتها هي من سقطت ربما كانت تملأ عش العُقاب بالبنين والبنات! شردت وأحست بالضيق، لطالما أرادت بشدة أن تكون أمًا.

في المساء تأتق زوجها، وخرج رفقة المبعجل قيदार، سيجتمع مع نبلاء المدينة وتجارها في القصر الشرقي خارج أسوار الزرقاء. غادر الموكب عش العُقاب وسط حراسة مشددة، على غير عادته حين ينزل إلى المدينة،

وفي بهو البهجة بديع الزخارف والألوان، بدأت الجوارى والوصيفات يجهن مجلس السلطنة: مُلئت كؤوس العصير، ووضعت الفواكه والحلوى على الطاولات، وعُزفت ألحان عذبة، وضجَّ المكان بهمهمات، وبينما هن ينتظرنها كانت هي تقف على باب السرايب، وتطلب من الحارس أن يفتح لها الباب.

لم يتخيل أحد أن تنزل شمس الشموس إلى ظلمة الممرات أسفل قصرها، ربما كانت السيدة الوحيدة من بني الأزرق التي فعلت هذا. أوقدت المشاعل، وقادها الجند وحرسها الخاص عبر الأنفاق، يقولون إن الملك عامر الطيب بن جاد المعظم هو مَنْ أمر بحفرها، بحثًا عن مصدر للماء لعش العُقاب غير البركة المقدسة، وآخرون يجزمون أنها بعمر جبل العُقاب، وأنها كانت يومًا مغمورة بالمياه، والمؤرخون يُسمونها بـ«عروق الجبل»، حيث اختفى ريان المتوحش بن جاد المعظم، ثالث سلاطين بني الأزرق وأكثرهم قسوة، الذي كان مهووسًا بأكل قلوب أعدائه، يذكرون أنه طارد أحد الهاربين من عذابه داخل تلك السرايب، ولم يخرجها قطُّ. قصص سمعتها عشرات المرات حتى قبل أن تقدم إلى المدينة، وكان الأكثر غرابة رؤيتها للقبو الشاسع ذي الأبواب المصفحة المتقابلة، تراص الجند بدروعهم اللامعة على جوانبها حاملين المشاعل، وراحت السلطنة تنظر إلى المكان قبل أن تقول بنبرة حازمة:

- افتحوا الأبواب.

تردد الحارس في تنفيذ الأمر، مما جعل أحد جندها يأخذ المفاتيح منه، وبدأ بفتح الأبواب تبعًا، لم يخرج أحد منها مما جعلها تتقدم لتلقي ببصرها داخل الزنازين، الأولى عن يمينها كانت خاوية، والتي تقابلها عُلق على جدارها المهرطق، تطلعت إليه وسألت:

- هل هو ميت؟!

لم تتلقَّ إجابة، ودخل قائد حرسها ماديًا يده إلى رأس إينال يهزه، فما كان من الأخير إلا أن غمغم بصوت متهاك:

- نرغال؟! هل عدت...

بقية كلماته لم تكن مفهومة، عقدت السلطنة حاجبيها، وأشارت إلى تابعها بأن يغلق الباب عليه، وتقدمت لتنظر إلى الزنازين على جانبيها، وأطلت عليها من بين الظلال وجوه البائسين، يترقق دمع الخوف في أعينهم، لم تنطق، وتجاوزتهم إلى آخر زنانتين، الأولى عن يسارها فارغة، وفي الأخرى تجلس سيرين في الزاوية، التقت أعينها، وبدا كأن هالة من وهج تحيط بجسد السلطنة، تقدمت إلى داخل الزنانة على الرغم من تحذير قائد حرسها الذي أحرصته بإشارة واحدة، ووقفت قبالتها وأمام العين المتحفزة مدت يدها إلى السجينة، لم تفهم سيرين ما يحدث، لكنها لم تحذل منقذتها أو هكذا حسبتها. أمسكت يد السلطنة الناعمة برفق ونهضت، ليتقابل وجهاهما، وشمس الشموس تبتسم بلطف قائلة:

- عاهديني على الأمان، لك ولصغيرك ولأهل القصر جميعًا.

لهجة السلطنة كانت غريبة الوقع على سيرين، لكنها فهمتها وأومات برأسها وابتسمت للمرة الأولى منذ

أن أسرت. نهضت ممتنة لرفق السيدة بها، ولم تلبث إلا قليلاً حتى اجتمعت بأهلها ومعارفها من جديد. لم تُقَم السلطانة بهذا الفعل إلا رغبة منها في حفظ مكانة زوجها، كوجه للعدالة والصفح، ورحمة بهذه المسكينة التي أخذت من حياتها عنوة، وكادت تفقدها هي وجنينها أيضاً عنوة. أمرت أن يُطعموا ويُعتنى بهم، وأن توزع عليهم ثياب نظيفة، وكل هذا تحت حراسة مشددة. هم ضيوف السلطان حتى يعود من حربه، وذلك هو قرارها الأول بوصفها وصية على العرش، والذي ترجو أن يكون صائباً.

بعد انتصاف الليل عاد السلطان إلى مخدعه، بدّل ثيابه بمساعدتها، وأخذ يقصُّ بعضاً مما كان في اجتماعه، أراد للزرقاء أن تبقى في غيابه كما في حضوره، خاضعة لا يشوب صفاء أيامها عكر. صبت له كأساً من عصير التوت والعنب الذي يحبه، وأخذت تبدل مجرى الحديث بالنكات والملاطفة وقليل من اللهو، لكنه لم يكن مستعداً لذلك، نهض ليجلس أمام خرائطه، ويحرك عليها قطعة تلو قطعة، وهو يقول ببرود:

- أخبروني بفعلك مع الأسرى.

- لم أستطع البقاء تحت وطأة تأنيب الضمير مكتوفة اليدين وهناك من هو بحاجة إلى المساعدة! إنها هزيلة وبالكاد تقوى على الحركة، ووضعتها تحت الرعاية والحراسة المشددة، وسأحرص على أن تلد بسلام وفي أمان، وليرى الناس رحمة سلطانهم، وكيف يأبه بحياة جنين في بطن عدوة قاتلة.

- احذريها على كل حال، ولا تبقي معها وحدك أبداً، ولا تجعلها على مقربة منك. سأبلغ قيدار أن يكثف الدوريات والحرس، وكذلك أن ينفذ الإعدام بمدعي النبوة هذا. الأمور تشابكت في الأيام الماضية، وتبقى لي يوم واحد قبل الخروج إلى المرقد والانضمام إلى الجيش.

دفع ما في كأسه إلى فمه مرة واحدة، ونهض إلى الشرفة حيث الليل يحكم العالم، قلب وجهه في نجوم السماء الكثيرة، وأحس بالبرد يسري في أوصاله. تبعته لتجده مستنداً إلى الإفريز ينظر إلى المدينة من تحته، احتضنته من ظهره، وقالت بلطف:

- هل ستفتقديني؟!

- سأشتاق إليك، إنها المرة الأولى التي نفترق فيها لعدة أشهر وربما أكثر.

- أتعدني ألا تتأخر في العودة؟!

- سأعود قبل أن تفقدي عقلك من المهام التي كلفتك بها.

- لا تقلق عليّ، أنا بخير ما دمت أنت كذلك. لا تنس أن ترسل إليّ جراد البرق مع كل تحرك تقوم به، وألا تندفع متهوراً إلى المخاطر، فأنا أعرفك تحب المغامرة وخوض المهالك. نسيت أن أخبرك عن ذلك المهرطق في الزنازين، رأيت ينادي شخصاً يُدعى نرغال.

استدار إليها واحتضنها هو الآخر، ونظر في عينيها الجميلتين، والدفء يسري بينهما:

- يبدو أنه شريكه أو شخص يساعده في سحره. سأحمل معي القرص الملعون، قررت أن ألقيه في عين الشمس. فشل الحدادون في صهره، وأريد التخلص منه في الحمم السائلة هناك.

- هل سيرحل معك القائمقام؟

- لن أترك ورائي من لا أثق بهم، حتى وإن لم يتعاف فسأحمله معي عنوة...

قاطعته برقة، وهي تهمس بدلال:

- حبيبي، ما أريك أن تنسى كل هذا. أريد أن نمضي ليلة رائعة قبل رحيلك!

وفي الوقت الذي كان فيه السلطان يُقبَّل شفّتي زوجته، كان سعد يقف أمام تمثال جاد المعظم في الفناء، يتأمل تفاصيل النحت الدقيقة للرجل ذي النظرة الثاقبة واللحية المضفرة، والعُقاب الذي بدا كأنه حي على كتفه. الجميع يعلم قصة الرجل الذي أفنى مُلك بني شمس. كان فقيرًا معدّمًا بدويًا يقود قطعان الرنة والموظ، وأصبح سيد الأرض وحاكمها الأوحده، بل وترك سلالة قوية تمجد اسمه، وليس عليه إلا أن يصدق صاحب الصوت بداخله لينال مجده هو الآخر، يشعر بالقوة والعافية تسريان في عروقه، وما زال عليه التظاهر بأن جرحه يؤلمه، وما يوجعه حقًا هو قلبه المفطور على روزاليندا، إن نال الخلود كما وعد فهل سيجد مثلها يومًا؟! شرد في أحلام يقظة جديدة بُعثت في نفسه، وسرعان ما نفضها عن رأسه، يُخشى أن يقرأ نرغال أفكاره، لذا أجرى الكثير من الحوارات مع نفسه، ورمى طعوم التساؤلات، لكن الغريب لم يُجبه.

ترك سيد النار مضيغه من دون أن يخاطبه منذ الصباح، تحاشى أسئلته الكثيرة وهو اجسه حول ما حدث، وابن البوغاز كثير السؤال مُشتهٍ للمعرفة، ولكنه أيضًا خبيث النفس لثيم السريرة، الوحيد من بين المُجتبين الذين حل في أجسادهم، يستطيع أن يفكر ويدبر ويقرر من نفسه ما يفعل، أما هو فلا يقوى على فعل شيء سوى البقاء بداخله، و ينتظر تضحيات الطبيب ذاك، أو أن يرب بدر بن حمدون بقسمه ويسيل الدماء في سبيله، وتحقق مخمرية ما أوكل إليها، ولكن خبيته كبيرة في حكماء عقيدته الذين أفسلوا بأهوائهم ما عاش عقودًا يرتبه، والآن عليه ألا يهدر طاقته حتى يصل إلى عين الشمس. استطاع أن يكذب على سعد في بعض الأمور، ولن يلح عليه بالحصول على الدرع أو الانقلاب على السلطان، يجب أن تكون الخطوات محسوبة، وألا يجبره على فعل ما لا يريد حتى يتمكن من كيانه كله. إن قواه واهنة، ولا يملك القدرة للهيمنة على روحه، سيرك للبرغوث الدفة ليقود، ويستشعر مدى صلابته، فلا ضير من رفع جزرة أمام عيني الحمار ليركض رهوًا، ظنًا منه أنه سيصل إلى ما يريد، ولا يعلم أنه سُخر لذلك!

في صباح اليوم التالي استُدعي سعد إلى بهو الملك، لم يتعجل في الذهاب، وارتدى ثيابه على مهل، بعد أن تفحص جرحه المقطب، وخرج من قصر الضيافة وهو يحاور نرغال في نفسه، وكلاهما يخرم لم يريد السلطان لقاءه. الحرس الملكي ينتشرون في الأرجاء بدروعهم الذهبية والعباءات القرمزية، قطع الباحة المشجرة، ولاحظ وجود السلطانة في شرفتها، لم يمنع عينيه عنها ونرغال يتغزل في جمالها، صم أذنيه عنه وعبر الممر تحت سماء ملبدة بالغيوم، وفُتح له باب البهو على مصراعيه ليدخل بخطوات ثابتة بطيئة، تقدم إلى حيث البقعة التي طُعن فيها، ويتطلع إلى السلطان الذي يجلس معتدًا بنفسه، وعلى رأسه التاج الذي لطالما سمع عنه.

كانت المرة الأولى التي يراه وهو على هذه الهيئة، يرتدي ثوبًا فضيًا مطررًا بخيوط تتمازج فيها درجات اللون الرمادي. عالٍ هو مقامه فوق عرشه، ومهيب وقد ضفرت لحيته إلى جديلة زرقاء، يرمقه ببرود يليق بندوب وجهه وثبات نظراته، وعلى المسند بجواره ذو العرف المتحفر، يبدو أن الطائر يعرف حقيقته وما بداخله، لذا انحنى سعد بتبجيل وهو يزجر نرغال، الذي لم يُرق له فعله، واستوى مرة أخرى وهو يبتسم إلى

علي الشأن الذي قال بهدوء:

- لو قال لي أحد إنك طُعنْتَ قبل أيام بموضع قلبك، ما صدقته، لكنني رأيت ما حل بك والآن أراك تقف في ذات المكان معافى، كأن شيئاً لم يحدث! عجز المعالجون عن فهم ما جرى، ولا أبالي إن كنت عدت من الموت كما يدعون، أم أنك نزفت كثيراً حتى خارت نبضات قلبك فلم تكذب تُسمع.

نطق سعد برصانة:

- الموتى لا يعودون إلى الحياة يا مولاي، ومن حسن حظي أنه ما زالت في عمري بقية لأخدمكم حتى مماتي.

- هذا ظني بك، وأرجو أن تكون قد تعافيت قليلاً، لأنك سترافقني أنت والأمير قاطع ضمن فرقة فرسان الدعم، ولا يتطلب الأمر منكم جهداً. عليكم تأمين ظهر الجيش وتوفير الدعم لكنية الحرس الملكي.

بالكاد ابتسم البرغوث، ونرغال يحدثه: «إنه ييقينك بعيداً عنه»، بينما السلطان يتابع:

- لم تسأل ما حل بالأسيرة؟!

ردَّ سعد بدمائة لم يعهدها هو في نفسه:

- أثق بعدل جلالتك، وأنها تستحق ما تفصي إليه حكمتك.

وبداخله يقول نرغال: «عن أي حكمة تتحدث يا سعد! إنه يضمرك لك شرّاً، ولو كان لي الأمر لقتلته، وحصلنا على الدرع، وهربنا من هنا معاً».

في تلك اللحظة قطع ذو العرف بنقيضه كل الأصوات، كأنه يعلم بقول نرغال وإن لم يسمعه، ومسح السلطان على رأس طيره بظهر يده، قائلاً بغطرسته:

- في شريعة الجاباسكي العيقان هي أرواح المحاربين القدماء، يعلمون ما في نفوس الناس والدواب، وإن الجوارح من الطير هي شرف بني الأزرق وشعارهم، وذو العرف متقلب المزاج، يشبهني وأنا من ربيته منذ أن كان فرحاً صغيراً، لا يحب الخونة ولا يروق له الجبناء، عليك أن تعناده وبقية سريره، التي سترافقنا في رحلة سنكون الأعجب في حياتك. والآن يمكنك الذهاب والاستعداد، سيمتلك قائد الحرس الملكي عتادك وأسلحتك، وكذلك درعك، وجواداً حربيّاً يليق بفارس من العيقان. كُن على قدر ثقتي بك.

همَّ سعد بالرحيل وحيأ سلطانه، الذي استوقفه وهو يسأله:

- أيها الفارس، هل تذكر أنك سمعت من حيث جنت، عن أي ديانة جديدة، ونيي يدعو الناس إلى الالتحاق به، أو شيء عن حكماء وشخص يُدعى نرغال؟!

عقد سعد حاجبيه كأنه يحاول التذكر، وما لبث أن هز رأسه نفيّاً:

- لا، لم يكن هناك سوى البرابرة ساكني الغابات.

أشار له غازي بالانصراف، ولم يتأخر سعد في الرحيل عن القاعة، شعر كأنه تعرى أمام السلطان، أو أنه يعرف شيئاً مما حدث له. خرج والصوت بداخله يحاول طمأنته، ليجد أمامه قائد الحرس الملكي في انتظاره. كان رجلاً طويل القامة يحمل سيفاً كبيراً على ظهره، وعليه درع مذهبة تشبه ما يرتديه كل الحرس، ولكن من دون عباءة قرمزية، ويحمل خوذته بيد، ويستند إلى أحد الأعمدة. تطلع إلى سعد طويلاً قبل أن يتقدم إليه قائلاً:

- أبلغني السلطان بضمك إلى فرقة دعم الحرس الملكي، يمكنك أن ترافقني لتسلم مهامك.

لم ينطق سعد بكلمة واحدة واكتفى بإيحاءة، وانهمك طوال الطريق في حوار خفي مع نرغال حول شكوك السلطان وعدم ثقته به. نال الخوف من نفس البرغوث، يخشى أن يغدر به السلطان إن علم بما بداخله، وطلب من نرغال أن يكف عن الحديث حين يكون في صحبة أي شخص، حتى لا يظنوا أنه مجنون، وأن فعله هذا يجعله مرتبكا ومشتم الذهن بينه وبين ما يجب أن يقال، وعند مستودع الحرس الملكي قال قائده الجديد:

- أرى أنك تفضّل الخناجر والسيوف القصيرة كما علمت من الأمير قاطع بن سليم.

- إنها أسلحتي المفضلة، وأتقن المبارزة والقتال بها.

- لا حاجة إذن لتحصل على درع وسيف. سجّل اسمك عند قيّم فرقتك داخل هذا المبنى، وعُد إليّ حالما تنتهي.

دخل سعد مبنى قديماً قريباً من بوابة القصر الخارجية، عبر الأروقة بحثاً عن الرجل المنشود، الذي وجده في قبو المخطوطات واللفائف. تفحصه المسن بنظرات عميقة، وجاءه بمحبرة وريشة كتابة، قائلاً بصوت خشن:

- يقولون إنك عدت من الموت. ولا أرى أمامي سوى رجل سيئ التغذية، عليك أن تأكل كثيراً حتى تستطيع الحفاظ على مكانك بين فرسان السلطان، وقع باسمك هنا، ولا تنس اسم مدينتك.

منحه نوعاً غريباً من الورق لم يره سعد من قبل، وقرأ نرغال ما كُتب فيه وقال متهكماً: «صك عبودية مقابل أجرة وألقاب وهمية وضيعة ومنزل، قد لا تراها أبداً!».

أخذ سعد الريشة وهو يمرر عينيه على تفاصيل الهبة الممنوحة له من السلطان، صك ملكية لأراضٍ وحصن قرب بستان الجياد، ووقع «سعد بن مرزوق البوغازي»، وسجل في دفاتر الروزنامة بلقبه الجديد، «فارس البوغاز، فرد في قوات دعم الحرس الملكي»، ها هو ذا ينال حظاً من اسمه، وفتحت له أبواب السعد، أصبح فارساً مقلداً حقيقياً، وليس قائمقام بكفر ريفي بعيد عن رغد الحياة. كانت روزاليندا لتفرح بذلك، ابتسم والقيّم المسن يختم الوثائق بالشمع الأزرق، وهو يقول ساخرًا:

- ماذا تنتظر؟ يمكنك الذهاب والحصول على بقية العطايا.

خرج ليجد قائده حيث تركه، نظر الرجل إلى اللقافة في يد سعد، مشيا عبر ممر يفصل الأسوار عن بعضها، وعرجا إلى مستودع السلاح ليحصل سعد على زرد الحرس الملكي المذهب، وخوذة كقباة الزرقاء يعلوها رأس عُقاب، وكذلك عباءة قرمزية كتلك التي كان يرتديها سليمان ناب وراجي صائد الذئاب، وحين خرج وجد جواداً حربياً أحمر عريض الصدر يزفر فاتحاً منخريه، لا يكف عن الحركة على أطراف قوائمه، وعليه درع من صفائح برونزية على هيئة ريش، تغطي رأسه ورقبته وكامل جسده، إن كان هذا جواده الجديد، فكيف يكون جواد السلطان؟!

قضى الثلث الأول من الليل عند قبر روزاليندا. حدثها لأول مرة عن أمه، وأخيه الأصغر الذي كاد ينساه، حيث ضاع في زحام سوق مدينة البحر، اختفى كأنه لم يكن، وانفطر قلب أمه عليه، وقد عملت خادمة في دار أحد الأعيان. وعلى الرغم من ضعفها ووهن جسدها، فإنها كانت جميلة حنوناً. كانت تخبر سعد على

الدوام بالألأ يثق بأحد، ولا يأمن لأحد. كانت تجري على رزق عائلتها الصغيرة، ولم تتحل يوماً عن الأمل في إيجاد أخيه، فكانت كل مساء تخرج إلى الميناء والسوق وبوابات البوغاز، تبحث وتسال عن أخيه الضائع، أما أبوه المقامر السكير فلم يأبه بما تفعل، يحصل على أجرها بالرضا أو بطرقه اللئيمة والوحشية في أوقات عدة. وذات ليلة مطيرة غاب الأب، وخرجت هي وسعد ذو السنوات الثماني للبحث عن أخيه، كانت آخر ليلة يرى فيها أمه! جعلوه يشاهد فعلهم بها. سمع أنينها وهم يتناوبون على افتراسها، لم يك، وهزيم الرعد يضيء وجهها، وعيناها لا تفارقان وجهه. ذرفت السماء دمعاً غزيراً، وانفضوا عنها، وتركوه ليلقي جسده عليها محتضناً إياها، يصرخ مستغيثاً ولا يجيب. ماتت! بقيت الذكرى القاسية هي سره ونقطة ضعفه الوحيدة. أخذته السنون من سجن إلى سجن. في الصباح سيرحل إلى أراضٍ جديدة سمع عنها طوال حياته، يشعر بأنه تبدل عن سعد القديم، وأضحى راضياً عما صار إليه. غفا البرغوث واضعاً رأسه على شاهد قبر روزاليندا.

وكان لئرغال رأي آخر لم يفصح عنه لمضيفه، ما زال سعد يحب الدنيا، ويفرح بهبات فانية، لقيبات يرميها له السلطان ليحفظ ولاءه، وعلى الرغم من أنه وعده بالخلود، فإنه لا يرتضي إلا بما هو أدنى. منحه وقته، ولم يقاطع خلوته مع محبوبته في قبرها، تركه وهام سيد النار في دهاليز ذكرياته التي لا تُحصى. عمره الآن يتخطى عشرة آلاف من سنين البشر، خلُق وإخوته في عصر الضياء على يد الإله الواحد الخالق الحقيقي لهذه العوالم. هو الأول بينهم، والأقوى منهم جميعاً، والمفضل لدى الرب، الذي أوكل إليهم إعمار الأرضين وإقامة العدل بين مخلوقاته، لكنهم فشلوا في ذلك بضعفهم ورفقهم، ووحده من حاول إعادة النظام إلى الكون ببأس وعذاب، وإبادة كل تلك الكائنات الوضيعة والأقل شأنًا من الأسياد، وإخوته الذين رفضوا أن يباركوا مساعيه، جنبوا حتى أن يساعده في حصد الأرواح ونقلها إلى عالم الأموات، وكان عليه أن يتخلص منهم جميعاً: إشيكيجال وإناني وهاليجال ودهاكور وحتى الصغيران إنكادو وجيناني، والحرب سجال قاتلهم وانتصر وهزم، وغبي من يظن أن نبلاء الخلق لا يغدرون، استطاعوا سلب قواه ونفيه لجرائمه في حق الواجب المقدس الذي أوكله الرب إليه.

لم يكن يوماً إلهًا، ليس سوى خلق من ضياء تلوث بالشرور، مارق على مشيئة صانعه، تلك الحقيقة التي أخفاها عن سعد ومن قبله، إينال والحكماء وعشرات آخرين، وصولاً إلى جاد المعظم الذي خذله هو الآخر. لا يعتمد على البشر في شيء، ولا تعرف قلوبهم إلا الشهوات التي هي سبيله إليهم، ودومًا ما يبدلون ولاءهم وفق أهوائهم وما يريدون. كم يبغض هذه الأرض ومن عليها! لمائة عام ويزيد فشل في الحصول على جسده، والآن ليس عليه إلا أن يهادن سعد حتى يصل إلى مبتغاه. مع انتصاف الليل نهض سعد بعد أن لسعه الصقيع، وعاد إلى قصر الضيافة ليجد جاريتين جميلتين في انتظاره، وحوض ماء دافئ فتر لظول غيابه، هدية أخرى من السلطان. نهضت الجاريتان من الفراش فور رؤيته، واقتربتتا منه بدلال وغنج، ولم يكن منه إلا أن ترك جسده لهما، وبداخلة تعجب نرغال من سرعة محو حزن البرغوث!

ماجت المياه وتلاعبت بقارب صيد صغير، وعلى متنه حاول ثلاثة شبان التشبث، كلُّ بمهامه. لم يكن هيجان البحر بفعل عاصفة أو ريح شديدة، كل ما في الأمر أنه جاء إلى الخليج سرب سردين، ودُعيت كل مخلوقات الأعماق والسماء إلى طعام وفير، والماء يفور برائحة اليود والزفر. صخب مبهج من نعيق نوارس محلقة تتخطف ما تستطيع من أسماك، وتنث حيتان رمادية شابة رذاذ الأنفاس، تسبح بروية ونعومة في رقصة بديعة حول القارب المتأرجح، ويسحب أحد الثلاثة شبابه العامرة والثقيلة الممتلئة بالسردين والهامور والقند الكبير. التمعت عينا الأشقر الزمرديتان، وضحك ملء فيه وهو يقول لصاحبيه:

- صدقتما الآن أني أستطيع فعل أي شيء...

لم يُتم كلماته، واهتز القارب بقوة، وكاد الأشقر يسقط لولا أن تشبث بثقل الشبكة، أما صاحبه الممسك بالدفة فترنح وسقط في الماء، أثار ذلك موجة ضحك من رفيقيه اللذين انتظرا أن يخرج ويطلق السباب كعادته، لكنه لم يظهر، وصار البحر ساكنًا، كأن لم يكن به من قبل أسماك، حتى النوارس هجرت السماء! نال منها الخوف والفرع لما ضرب القارب من جديد، وهذه المرة انقلب المُجدف وسقط صائحًا. وجم الشاب الأخير حين رأى زعنفة أرجوانية داكنة تغوص في الماء وراء صاحبه، وشهق فرعًا، وضرب الماء بيديه محاولًا النجاة والتشبث بحافة القارب، وكاد ينجح في الصعود لولا أن جذبته قروش الدم الصيادة التي سمع كثيرًا عنها، ورأى القليل منها في أسواق المملكة. يقولون إنها عصبية، وتملك من الذكاء ما يفوق البشر! تهرب من محيطها الأسماك وحتى الحيتان، وهي مفترسة نهمّة، وتعلم أنه هنا.

نصحه أبوه بعدم الذهاب إلى الخليج في هذا الوقت، وكعادته أخرج ضحية لسفاهة صاحبيه، ولا يتعلم أبدًا من أخطاء الأمس. في اللحظة التي اختفيا فيها من حياته أدرك حقيقة أفعالهما به، فمنذ أن عرفهما وهو مصدر سخريتهما وتنمرهما، يضعانه في رهانات وتحديات يخسرهما كلها، يثير المتاعب أينما مر. لولا مكانة أبيه وعائلته لكان للعامّة فيه شأن آخر. شاب أرعن نشأ بين أختين في قلعة ملك، ما الذي يدفعه إلى هذه الحماقات وهو بدر بن حمدون ألواندي، وريث الوصي على مملكة الساحل، الذي تبدلت حياته في هذا اليوم. استلقى بعض الوقت ينظر إلى السماء الملبدة بالغيوم، والقروش تلطم القارب بذيوها وتلقفه بينها، تلهو به قبل أن تغرقه وتلتهمه، ولا تدري أنه قرر ألا يموت بسهولة، اعتدل جالسًا، وتلفت حوله قبل أن يمسك المجدافين. تمهل لحظة، ونظر إلى السماء متممًا: «أعلم أي أحق، لكن لا تدعني أمّت اليوم. ولترين صنيعي».

وبدأ التجديف، لم يكن بالشخص المؤمن وإن كان من رواد معبد السديم رفقة عائلته، طقوس أداها من دون اهتمام طوال حياته، ما عُرف عنه التدين، ولم يقدر سوى اللهو، ولكن هذه المرة كان صادقًا، أخذ يضرب الماء بمجدافيه بقوة، وقروش الدم تدفعه نطحًا، تحاول إسقاطه بكل قوتها، لكن بدر تشبث مقاتلاً

الماء والخوف وضواري البحر الجائعة. حاولت إحداها قضم مقدمة القارب، فما كان منه إلا أن ضربها بأحد المجدفين، ظن أنه أخافها جميعاً حين رآها تبتعد ضاربة الماء بذيوها، وكاد يضحك لولا أن رأى عودتها باتجاهه، خمس زعانف طويلة بلون الدم القاني تلمع وتقترب في سرعة، ولم ترتطم بالقارب كما توقع، وإنما غاصت لتصنع موجة ضخمة كافية لتطيح بالقارب ومنّ عليه. طاح وارتطم بالماء، وكاد يعلق في الشباك، التي انشغلت بها عنه، وأخذ هو يسبح بقوة من دون استسلام، وما لبثت أن انتبهت له وجاءت في إثره، قال في نفسه: «خالقي، لا أريد الموت الآن، سأكون حيث تضعني».

نجا في ذلك اليوم بقدره الخالق التي أذهلته، شعر كأن يداً عملاقة من السماء تنتشله، لم يصدق أن يستجاب له، ووجد نفسه ملقى على رمال الشاطئ البيضاء، وإلى جواره بضعة مخلوقات من القاع، نجوم بحر وصدف وسمكة قرش دم ضخمة تتلوى باحثة عن الماء، لعلها صدمت مثله تماماً، نجا هو وهلكت هي بمعجزة لن يصدقها أحد في ربوع مملكة الساحل، حتى والده سخر منه، وتهاومت أخته مع الوصيفات عنه «كاذب عديم النفع مات صاحبه ونال منه الجنون». اعتزل الجميع وزهد متع الحياة، وناجى إلهه من دون جواب، حتى زاره ذات يوم ضرير يُدعى «نرغال»، وأوصاه بأن يهجر الساحل ويذهب إلى آزاد. ومن هنا بدأ مصيره، كحكيم العرش، حامل لواء الخالق سيد الخلود.

لا تشبه أراضي الساحل أي مكان في تلال الشمس، مدينة عظيمة تحوي بداخلها خمس مدن ومثلها من القلاع، بديعة البناء، بها ميناء عظيم من عشرة أرصفة وقنوات توصل المياه إلى بحيرة الذهب، وكل هذا داخل أسوار عالية ضخمة، تزخر بأبراج دائرية عملاقة، وثمانية أبواب كبيرة تتدلى على جانبيها أعلام باللونين الأصفر والسماوي، ويتوسطها كركدن بحر أبيض. يطل هذا الحصن المنيع على شاطئ شاسع من رمل أبيض، يعانق موج بحر تتدرج زرقة مياهه بصفاء عجيب، هنا مهد العلوم وأسرارها وخزانتها. يعود بناء الأسوار والحصون إلى عهد بني شمس الأوائل قبل ألف عام، وهناك من يقول إن الساحل ومدنه يعودان إلى زمن سحيق، ويشيع أهلها أنهم من نسل أول من وطئت أقدامهم الجزيرة. تغلب على سحتهم شقرة، ويتميزون بطول القامة، وأنقياء الدم منهم لهم أعين بلون البحر الذي يبجلونه حد التقديس. هم الوحيدون الذين حاولوا السفر والترحال حول جزيرة تلال الشمس، بل وأبحروا أكثر من ذلك إلى شواطئ وجزر الشرق البعيد.

لديهم خرائط ومخطوطات قديمة تحتوي على العلوم والمعرفة، ما جعلهم يُسخرون حيتان الكركدن وحيدة القرن، دربوها لتجر سفنهم عبر المحيط الشاسع وبحر العواصف. أناس ودودون فيما بينهم، ويتمتعون برقي وسمو، ويغلب على ملابسهم اللون الأبيض والسماوي، وحليهم من الصدف واللؤلؤ. هم الوحيدون الذين لم يخضعوا لسلطان بني الأزرق، وإن صاهروهم كما فعلوا من قبل مع أباطرة الشمس. لهم نظام ملك معقد لم يتبدل بتغير الإمبراطوريات والزمان، خمس عائلات يقيمون اقتراعاً كل اثنتي عشرة سنة، يختارون عاهلاً يقوم ملكاً عليهم، وإن مات في فترة الحكم يرثه ولده الأكبر، وإن لم يكن له ذكور يُنتخب من بين

العائلات عاهل جديد، ولقرون طويلة اتخذوا من نجوم السماء آلهة، يهتدون بها في البر والبحر، حتى عاد بدر ومعه ثلة من الغرباء.

سنوات غيابه بين أزداد وكهف الذاكرة، جعلته أكثر صمماً وحكمة تتماشى مع هيئته، حليق الرأس واللحية يطلق شارباً ذهبياً كثاً، شد بنيانه وبرزت عضلات جسده المتين. يوم خرج من الساحل لم يكن يملك سوى جواده وبضعة دنانير فضية، واليوم رست سفينته في الميناء، واستقبله والده بريبة ودهشة، وهو يتأمل الراية السوداء على صاريها، التي وُسِّمت بنجمة بيضاء. كانت ثيابه رثة، ويبدو كالقراصنة أقرب منه إلى نبيل مَوْلد مثله، ويلف خصره حزام غمد يحوي سيفاً طويلاً، واضعاً أساور برونزية عريضة تغطي معصمه حتى الكوع، وارتسمت على وجوه أخته وزوجيها ابتسامة سخرية، يعلم أنهم يتهامسون كعادتهم عن جنونه وغرابة أطواره. لم يتحدث كثيراً بعد السلام والترحاب، واكتفى بتقديم زمرته لأبيه قائلاً باقتضاب:

- إنهم طاقم سفينتي.

لم يبدُ على حمدون ألواندي أي فرحة برجوع ابنه الوحيد، بل نالت منه دهشة مضاعفة، وعند بوابة القصر كانت أمه تنتظره. ارتمى بين ذراعيها، وأخذت تعصره باكية، قبَّل يديها، وتحسست وجهه تتأمل فعل الأيام به، صار رجلاً وسيماً على الرغم من صلعته، قوياً يشبه أخواله من عائلة الكندي. كانت أسعد الناس بعودته ورافقته إلى غرفته. طلبت منه أن يقص عليها كل شيء عن رحلته، لكن بعد أن يستريح ويبدل ثيابه، ولا شيء يضاهي فرحة أم برؤية ولدها من بعد شوق. أمرت الطباخين بإعداد مأدبة عشاء، وعملت على توفير سبل الراحة له، وفي المساء اجتمع مع عائلته على مائدة الطعام، ارتدى حلة زرقاء لا زينة فيها، وجلس على يمين والده، وأمّه تشير للخدم بوضع طبق السردين المشوي والمُتَبَّل بالليمون، ومرقة السلطعون الأحمر وبلح البحر. تعامل بدر مع الجميع بدمائة خلق وودٍّ، صار لدى أخته سبعة من البنين والبنات، أنقياء الدم والنسب، كما جرت عادات العائلات الخمس الحاكمة للساحل. قطع زوج أخته الكبرى الصمت بفجاجة قائلاً:

- أين كنت طوال تلك السنوات يا صهري العزيز؟!

ارتشف ملعقة مرق بللت أطراف شاربه، وأجاب من دون أن ينظر إليه:

- أقاتل بالنيابة عنكم، وأدفع الشرور عن المملكة.

لم يستطع زوج أخته كتم ضحكاتها، مما أثار حفيظة الوالد الذي رمقها بغضب قبل أن يقول:

- لا شك أنك كنت تفعل هذا.

وقال زوج أخته الصغرى بنبرة جادة مبطنة بسخرية جلية:

- احكِ لنا إذن عن هؤلاء الأعداء وأهل الشرور. دعنا نتسامر يا بدر، وليعرف الصغار أن خالهم بطل صديد.

تدخلت أمه بلطفها الشديد:

- دعوه يُكمل طعامه، وبعدها تحدثوا عن أي شيء تريدون.

رفع بدر رأسه ناحية الزوجين، وبدا لهما أن عينيه هوتان سحيقتان إلى المجهول. مسح شاربه وهو يقول:

- لا عليك يا أمي، يبدو أن صهري يحبان الحكايات العجيبة، وإن لم يصدقها فيمكنهما الذهاب إلى بحيرة هايدن بالقرب من جرف الهلاك لرؤية صنيعي، وكيف أنقذت مملكة الساحل من عدو غادر كان ينوي إبادةها...

قاطعته والده:

- عن أي عدو تتحدث؟!

- قاسم أصلان وجيش بني الأزرق، الذي كان قادمًا لدعم العاهل الصبي يحيى بن اليمان الذي ورث المملكة عن أبيه.

وجم الحضور، وتوقفوا عن الأكل، حملقوا إلى وجهه وهو يفصص السلطعون، ويقضم قطعه بلا مبالاة، كأنه لم يُلقِ عليهم أمرًا جليلاً. وحده والده كان يعلم بقدوم جيش أصلان، وجهاز الجيش والدفاعات وفق رسالة شاهين الشمسي، ولكن قاسم لم يصل إلى الساحل قط، وظن أن الحكمدار الطامع في دعمه يكذب ويخوفه ليسرع في مساعدته. لم يُدر أي حديث آخر على المائدة حتى فرغوا من طعامهم. قُدمت الحلوى والشراب، وانصرف الصبية والبنات مع أختيه وأمه، وغادر الصهران بعد تناول الكعك المحلى بالعسل والعصائر، ولم يبقَ على المائدة سوى بدر وأبيه الذي سأله:

- كيف علمت بأمر بني الأزرق؟

- هل ستصدقني إن أخبرتك؟

- الأمر لا يتعلق بالتكذيب والتصديق، قلة مقربة من قادة الجيش من يعلمون بالأمر، تجهزنا وأعدنا العدة ولم نره في محيطنا قط. كانت مجرد خدعة من رجل يائس جعلنا نشك في بعض، ونكيل اتهامات الخيانة إلى عائلة اليمان الحاكمة.

- الخائن هو الحارث بن اليمان، عم العاهل الصغير.

بهت حمدون، وارتجفت كأس الشراب في يده. كيف علم بدر بمجرد هاجس راوده يومًا؟! قال بضيق:

- هل كنت تتجسس علينا وتعلم أخبارنا، وجئت الآن لتظهر مدى علمك بما غاب عنك من أمور؟

- هكذا أنت يا أبي، كنت أعلم أنك لم ولن تتغير. على كل، يمكنك إرسال بعض رجالك إلى جرف بحيرة هايدن، وإن صدق قولي فيمكننا التحدث.

نهض بهدوء مغادرًا البهو، وأبوه يقول له بعصية:

- إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى سفينتي، اشتقت إلى صيد قروش الدم، وعليّ أن أبقى بين رجالي إلى أن تتأكد من صدق قولي.

رحل بدر عن القصر، وتجول في طرقات المدينة الخاوية في هذا الوقت من الليل. تذكر طفولته وحماقته في هذه الشوارع، والتي تؤدي جميعها إلى بحيرة الذهب، حيث تلد حيتان الكركدن، هنا تُرعى وتُدرب وتضفي روحًا مرحة وغبطة على ساكني المملكة. لم تتغير الدروب ولكنه تبدل، لم يُعد بدر الذي تمنى أهله عودته. بات أحد الحكماء السبعة، وتقع الآن على عاتقه مهمة صعبة كلفه بها الخالق، وباركها النبي إينال والحكيم نرغال صاحب الكلمات الخالدة في نفسه:

- كل منا جاء الدنيا على قدر، وقدرك أن تصبح ملكًا يا حكيم العرش، وأول خالد على أرض نلال الشمس بعد تحريرها من الظلم، ومنح أهلها العدل الذي يستحقونه.

أيام مرت وزارته أمه فيها مرتين، في الأولى ترجته أن يعود معها إلى القصر، ورفض وأخبرها بأنه ما عاد إلا لأمر جليل. حدثها عن العدل، والإحسان، والإيمان الذي جعل منه شخصًا آخر، والخلود الذي هو مصير المؤمنين ممن تبعوا الخالق وارتضوا به إلهًا. لم يفصح عن كل شيء، وأحبت أمه ما أصبح عليه، لديه من الحكمة والرصانة أكثر مما كان يفتقده، وجيه يختار كلمات تقنعها بوجهة نظره. وفي المرة الثانية قدمت ومعها عشرة من الخدم والصواني الممتلئة بصنوف الطعام، وخبر أن والده ذهب إلى بحيرة هايدن، انشرح صدره، وفتحت شهيته للأكل والحديث.

في هذا المساء أخبرها عن رحلته إلى قلعة النار، ومستنقع الجميلات، وبلدات نهر التاج، وأزاد التي قابل فيها النبي إينال، ومعجزات الحكماء الذين يُعد واحدًا منهم: مخمرية ذات الحكمة والتدبير، وأبوها المضحى جبران، وسياس الذي برأ من الجنون وتحدى عقبان بني الأزرق، ومرجان الذي قضى نحبه قبل بلوغه البحر، والطبيب ذكي الذي يتجلى الإشارات. حدثها أيضًا عن زيارته المباركة لكهف الذاكرة ولقاء نرغال صاحب المعجزات، وكيف سيخرج مهد الخلود من عين الشمس. لم تفهم أمه كثيرًا مما قال، ولكنها تثق به، وتعلم أنه خاض الكثير، إنها الوحيدة التي صدقته يوم أن جاء إلى القصر حاملاً على كتفه قرش الدم، فكيف لا تصدقه الآن؟!

في صباح اليوم التالي بينما كان جالسًا أمام خرائطه، جاءه رسول من والده الذي يطلب حضوره، ابتسم وكان يعلم أن الأمر سيحدث كما أراد هو، وليس كما خطط الحكيم نرغال، الذي أوعز إليه بإراقة الدماء إن تحتم الأمر، وها هي ذي الأمور تتيسر من دون الحاجة إلى القتال والعنف. أمر رجاله بالتجهز للحظتهم الموعودة، ودخل قمرته، وأخذ يبدل ثيابه بعد أن مسح جسده بخرقه مبللة. ارتدى قميص زرد، وفوقه سترة من الجلد الأسود المدبوغ، رُسمت على صدرها نجمة بحر سباعية بيضاء، كتلك التي على الراية الخفاقة فوق صاري سفينته، وهذه المرة عندما نزل إلى رصيف الميناء، كان في هيئة غير التي جاء بها، أمير خفيف يتشع بالسواد هو وفرقة من جنده الذين يرتدون مثله، عدا أنهم يضعون خوذة طليت باللون الأسود، وعلى صدورهم ودروعهم النجمة البيضاء. مشى يتقدمهم عبر طرقات المدينة وهم وراءه في صفين منتظمين، ويطلق الآذان وقع دبيب خطاهم، دخلوا القصر ووحده من عبر إلى القاعة حيث ينتظره والده. لحظة انتظرها بدر طويلاً، وأن وقتها. توقف قبالة والده الذي تفحص ثيابه قبل أن ينطق:

- أرى أنك اخترت لنفسك رمزًا جديدًا!

- إنها نجمة الحكماء، رمز الديانة وشعار الخالق صاحب الخلود والضياء.

عقد الرجل حاجبيه الكثَّين، ونظر بعمق في عيني ابنه:

- عدت للتو من بحيرة هايدن، ذهبت وحدي ووجدت بقايا معسكر جيش بني الأزرق؛ جيقًا متعفنة وعظامًا نخرة لرجال وخيول، أريد معرفة ما الذي حدث، ومن الذي هزمهم من دون أن يصل إلينا خبر!

- أهلكهم صاحب المعجزات، حكيم الخالق وروحه، نرغال.

- أهو سيدك الجديد؟

- بل مبشري بالملك والخلود.

- اسمع أيها الفتى، لا أعلم أي سحر وشر قد مسَّك، ولكني أريد أن أعرف كل شيء، من دون أَلغاز أو أكاذيب.

اختفت ابتسامة بدر تحت شاربه وهو يقول:

- لم يمسنني إلا الخير يا أبي، قبل عام وبضعة أشهر أرسل الحارث بن اليمان إلى سلطان بني الأزرق، يستجديه بأن يرفعه إلى سدة الحكم في الساحل، مقابل خضوعه وتبعيته لعرش العُقَاب في المدينة الزرقاء، تعلل بأن العاهل الصغير لا يستحق مكانته، وأن هناك الكثير من الطامعين حوله، وأنك يا أبي الذي تتحكم وتدير كل شيء، وكذلك أخبره بأنك تتعاون مع حلفاء في الصحراء، فطاع طرق يمتطون الذئب أو يقودهم رجل يُكنى بالذئب، وأرسل غازي ثلاثة جيوش، أكبرها يقوده قاسم أصلان الذي كان ينوي ذبح كل عائلات الساحل الحاكمة، ويفرض بقوة جيشه وسيفه سيطرته على مملكتنا.

- أتعلم الغيب أم كنت معهم وهم يخططون لهلاكنا؟

- «يا سيد الحيتان، يأتيك عُقاب صيد عجوز في زمرة كبيرة من الجوارح، كن مستعدًّا». ألم تكن هذه الكلمات من الرسالة التي جاءتك من شاهين الشمسي ولم يطلع عليها أحد غيرك، وقرأتها هنا قرب المدفأة وأحرقتها في نيرانها؟! كنت على يقين بالخائن، ولكنك غضضت الطرف عنه، لأنك لا تملك دليلًا على دناة فعله، ولأنك تقدس الواجب بوصفك نائبًا للعاهل ووصيًا على مملكة لم تكن لتصمد أمام قووات بني الأزرق. هل تطن أن قاسم أصلان كان سيدخل عليكم بالورد والحلوى؟! أنا من منعكم منه وحفظتكم جميعًا من دون أن تشعروا، فقط دعوت الخالق ولم يتأخر عن إجابتي. قضى بمشيئته على جيش يقوده الأسد الأزرق أقوى فارس في تلال الشمس، وإنهم قادمون مرة أخرى، وهذه المرة كتب علينا القتال.

تملَّك الرعب من حمدون، هناك أشياء لا يعلمها أحد غيره ولم يُحدِّث بها أحدًا سوى نفسه، والآن ينطق بها ابنه كأنه كان معه حينها. هل يريد ابنه الوحيد مساعدتهم حقًا أم أنه يحوك مؤامرة رفقة طائفة المشعوذين التي يتبعها؟ ردِّدًا محاولًا استجماع قدرته على النطق:

- هل علينا البدء في حشد الجند وتحصين المدينة؟

اقترب بدر خطوتين من والده، وقال بنبرة عميقة أقرب إلى الهمس:

- بل تجهيز جيش عظيم والخروج إلى عين الشمس، وقبل هذا علينا حصد رؤوس الخونة بهدوء وروية، من دون أن يشعر بنا أحد.

- مجلس العوائل الملكية سيرفض هذا الانقلاب بالتأكيد.

- يا أبي، من قال إن هذا انقلاب؟ أنت بالفعل تملك زمام كل شيء هنا، وقرارك يسبق موافقة المجلس الصورية. عليك إعلان حكم الوصي وإطلاق نفي حرب ضد الخونة وابن الأزرق، جيشه مستقر في آزاد، وإن لم نخرج له فسيصح على بوابات الساحل. كن البطل يا أبي، أن الوقت لنقود الأمم لا أن نتبعها.

حل الصمت ثالثها للحظات كانت كافية لأن يرى حمدون وجه ابنه وتفصيله عن قرب شديد، فيه الكثير من ملامحه وصار بنفس طوله، الجدية لا تغادر وجهه، والصلعة والشارب الكث جعلاه له هيبته ووقارًا، أضحى رجلًا حقيقيًّا، وإن كان ما زال غريب الأطوار، غامضًا، ما كان ليؤذي أهله أو يوقع بهم في شر. ربت على كتفه وانتشى بأبوته قائلاً:

- ما ذهبت إلى بحيرة هابدين إلا ليطمئن قلبي، أنت ابني الوحيد يا بدر، وأصدقك ولا أكذب عيني وعينك. أتق بأن أمامنا وقتًا طويلاً لنقص عليّ من أمر عقيدتك وإلهك، أما اليوم فنقيم العدالة في الخونة، وفي الغد نصبحهم على أسوار عين الشمس.

تعانقا ولا يدري من ارتمى أولاً ناحية الآخر. تنهد بدر، وشعر براحة في نفسه، شكر الخالق في سره عشرات المرات، أن والده صدقه ووثق به عكس ما توقع نرغال، الذي لم يصب هذه المرة في توقعه، وأخضع

الساحل من دون إراقة دم بريء، لتشمل رحمة الخالق كل خلقه، ووحدهم بنو الأزرق من سيدفون ثمن ظلمهم وطغيانهم. العدل واجب، وملكهم زائل، وهو ليس سوى بيدق بيد الخالق. تمنى في قرارة نفسه أن تكون محمريّة قد حققت نصيبها من الخطّة، لم يذكر لأبيه شيئاً عن مهد الخالق المدفون في عين الشمس، ولا ما يحويه من أسرار للخلود، اكتفى بمنح أبيه ما أراد أن يراه، ابنه الشجاع الذي لطالما تمنى أن يكون. رمى حمدون القلق والخوف من دون رجعة، يعلم أن ما بقي له في الحياة أقل مما فات، وعليه أن يسلم الراية إلى وريثه، ومملكة الساحل بحاجة إلى بطل يعيد أمجادها ويدفع عنها الشرور. ولم تمر الليلة إلا وألقت فرق الدرك القبض على الحارث بن اليمان وأعوانه، ووضع العاهل الصغير قيد الإقامة الجبرية. انتشرت قوات عائلة ألواندي وحلفائها من العائلات في الشوارع والساحات وحول بحيرة الذهب، وأعلنوا الوصي حمدون ألواندي نائباً للعاهل، ونُفخت أبواق الحرب، ولأيام حل على المملكة خوف حذر. وكان عليهم أن يطمئنوا الناس. وعلى بحيرة الذهب كان لقاءهم الأول بقائد جيش مملكة الساحل، بدر بن حمدون، الذي رُفعت راياته، وقدم على رأس قواته المتشحة بالسواد، وعلى منبر الكركدن الذهبي، وقف يخاطب فيهم ببلاغة أسرت القلوب وأثرت النفوس. حدثهم عن العدالة التي يجب أن تتحقق في الأرض، وأنهم أقدم سلالات هذه الجزيرة والأحق والأجدر بحكمها، وأن الخالق اجتباهم ليكونوا سيفه على رقاب الظالمين، من أرادوا بهم سوءاً وكادوا يغدرون بهم، وما بحيرة هايدن ببعيد!

لا يصنع الحظ رجلاً حكيماً، لكنه صنع هارون النردى، الذي عاش حياته يتبع فضوله وحسن طالعهِ. نرداه صاحبه وثلثهما خائل جواده الفتى. لم يتخيل يوماً أن تحدث معه كل هذه العجائب، فمنذ أن خرج من الصقارة باحثاً عن صاحب اللفائف، تداهمه كوابيس فيها أناس يحترقون، يطاردونه، ويصم أذنيه صراخهم وعويلهم، يسير بين ندف الرماد المتطايرة وسط ساحة مسها الخراب، رؤوس الأشجار مشتعلة والدخان الأسود يحجب السماء. يستيقظ فزعاً غارقاً في عرقه، وكلمات العرّافة تدفعه إلى إكمال الطريق، يراهن أنه سيجد صاحب الفرس المبقعة، كل ما يعرفه عنه هو لقبه ومطيته التي يندر أن يجد مثلها في الأنحاء. مر على حقول المرج الأخضر، وسأل أهل القرى والمسافرين عن وصفها، هذا رأها وذاك لا يدري إن كان صادفها أم لا، استغربوا هيئته وسألوه ولم يُجب إلا بما يريد. أخذ لأيام يقتفي أثر المجهول من دون كلل أو راحة، ولما يئس استلقى على ظهر خائل، وأفلت لجامه ليقوده حيثما يريد. وعند مفترق طرق بين غابة الورود وأطلال الرخ، رأى الرهوانة المبقعة تقف على حافة بركة ماء ترتوي. حمحم الجواد فور رؤيتها لينبئه فانتبهت لهما، توقفت عن الشرب، ورفعت رأسها لتنظر إليهما، ومن وراء شجرة خرج العنبري عاقداً حاجبيه شاهراً سيفه:

- كنت أعلم أننا سنلتقي مرة أخرى.

ردّ النردى وهو يترجل عن جواده الهائج:

- نساق إلى أقدارنا وفق ما نختاره.

- وهل يستحق قدرك وما جنت إليه كل هذا التّصب؟!

- أعلم أنني كنت فظاً في لقائنا السابق، وما مررت به جعلني أخشى الغرباء.

- وما الذي تبدل الآن؟!

- أريد الاطلاع على لفائفك الأثيرة.

دام بينهما الصمت لمدة كافية لأن يخطو خائل إلى الرهوانة الجميلة، تجاورا أمام البحيرة وأخذ يصهل بخفوت كأنه يخشى أن يسمعه صاحبها الذي قال بعد نوبة شك وهو يغمد سيفه:

- أنا ذاهب إلى أطلال الرخ وربما أبعد من هذا. مُرّحّب بك في رحلتي التي لا يمكنني أن أقول لك وجهتها الأخيرة. يمكننا الحديث في كل شيء بينما نمضي جنوباً، إن لم يكن لديك ما يمنعك!

- لِمَ تدخل فِفاً موحشة مليئة بالموت؟!

اقترب نيار وهو يشير إلى الجوادين:

- أولاً دعنا نفرق بين الحبيين، لا أنوي أن تحبل الفرس، وما زالت أمامها رحلة طويلة.

بصعوبة رضخ خائل لهارون، بينما ذهبت الرهوانة إلى صاحبها فور سماع صفيهِه. أخذهما المسير جنوباً،

الجو صحو، وشمس الزوال تميل إلى غروبها. ابتعدا عن الأراضي الخصبة ذات البرك والخضرة، ودخلا صحراء جافة قاحلة، ترتفع فيها تلال من رخام أبيض نحتته الرياح على مر الزمان. تأملها هارون الذي يراها للمرة الأولى، بينما نيار العنبري يحدثه:

- يقولون إن في عصر سحيق، كان فوق كل ربوة من هذه قصر منيف، وكل هذه الوديان كانت مليئة بالأشجار وجدول ماء جارية. هذه مشاهدتك الأولى لها أليس كذلك؟!

- سمعت الكثير من الحكايات، ولم أفكر في زيارتها قط. لماذا جئنا إلى هنا؟

- على مقربة من هذا المكان وجدت شيئاً ثميناً.

- كنزاً؟!

- أحسب ذلك، لكن بغياي أهديته إلى السلطانة!

- أيُّ سلطانة هذه؟ زوجتك؟!

ضحك العنبري، ولوح بيديه:

- وهل أشبه السلاطين! أنا مجرد بخّار مغامر من مدينة العنبرية، أتعرفها؟

- زرتها مرة ولم أطق البقاء في مدينة دائمة الغيم، وبحرها ذو المياه العكرة الداكنة، ورائحة الزفر ودم الحيتان، أحب الأماكن المشمسة. قل لي من تقصد بالسلطانة؟

- سلطانتنا يا رجل شمس شמוש بني الأزرق، وسيدة نلال الشمس الأولى، زوجة سلطاننا الأشرف غازي. آه نسيت أن أخبرك بأني أيضاً تاجر نوادر، أبحث عن الغرائب، وفي رحلتي السابقة رحبت خمسمائة قطعة ذهبية من بيع عنبر متحجر، وبضع شجيرات نادرة. وحدث شيء كاد يجعل رأسي يطير، لكنني اقتديت نفسي، ومنحت القرص الغريب إلى الملكة.

عقد هارون النردى حاجبيه، وقال بتعجب:

- الذي كان مرسوماً على اللقافة التي تملكها! إنه درع سحرية.

جذب نيار العنبري لجام فرسه لتقف، ولم يكن خائلاً بحاجة إلى أن يفعل صاحبه المثل، توقف بجانبها بينما راكبها يقول:

- درع؟

- نعم، وأظنك جئت تبحث عن الغرض الثاني.

في تلك اللحظة أيقن نيار العنبري سبب قدوم هارون النردى، الذي أخذ يحكي ما كان من أمر رؤاه، ونرغال، ومنجية، وحياته التي انقلبت وتبدلت، ولعل في اللقائف يجد الخلاص من اللعنة التي حلت به. رفع يده، ليريه أثر حروق يده التي لم تتعاف بعد، والشمس تميل غرباً وتكاد تلمس قمم الجبال الرمادية في الأفق، وتقلب شعور نيار بين تصديقه والخوف من أن يسلبه أغراضه. قال مقاطعاً حديث هارون:

- علينا أن نجد مكاناً للتخييم قبل هبوط الليل، لنصعد إلى تلك الربوة العالية، إنها مثالية للمبيت.

- أظن أن الخروج من هذا المكان أفضل فكرة من البقاء فيه طوال الليل.

- لا تقلق، إنه آمن خيمت به في المرة السابقة، كما أننا لا نستطيع الاقتراب من تلال العنقاء ليلاً.

لم ينطق هارون بعد كلمات العنبري، ومن الأفضل أن يدع الرجل يقود المسير، صعدا إلى حيث أقاما

مخيمهما داخل أطلال قديمة بدت كجدران من رخام ذائب. أشعلا النيران، ورفعا سرجي جواديهما قبل ربطهما بعيداً عن بعضهما. خلع هارون حذاه، وتمدد فوق فرشته الصوف، نظر إلى السماء الصافية بنجومها البراقة المشعة، وسأل نفسه عما يفعل هنا رفقة مخبول يدعي أنه كان يملك أحد أغراض نرغال، وجاءه صوت نيار ليعيده إلى واقعها وهو يقول:

- لديّ دجاجة ماء اصطدتها من المرح الأخضر.

اعتدل هارون جالساً:

- وأنا لديّ لحم غزال مملح. هل تريد بعضاً منه؟

- سيكون هذا لطقاً منك.

ناوله هارون قطعتين قائلاً:

- كنت بالأمس القريب تسألني أن أقرأ الرموز على لفائفك، واليوم لا تريد إخراجها من جعبتك! تشاركني الطعام وأشاركك رحلتك ولا تثق بي بعد!

- هل تظن حقاً أنك تستطيع فك هذه الطلاسم، وبالكاد رأيت طرفها؟!

- ما جئت وراءك إلا من أجلها، وليس لمسامرتك وقضاء الليالي معك.

ألقي هارون النردى دعابته السمجة، وأخذ عوداً من عشب جاف، وأمام دهشة نيار العنبري رسم على الرمال الدرع ورموزها التي حُفرت في ذاكرته، بينما أخذ نيار العنبري يخرج اللفافة ليتأكد مما خطه رفيق سفره، عقد حاجبيه، وجمدت الدماء في عروقه، كانت الرسوم متطابقة، وهارون يقول بنبرة ثقة:

- هل صدقت الآن؟!

- ماذا تعني تلك الرموز؟!

- هذا رنك، شيء كالختم أو إثبات ملكية.

- لئن؟

- للموت.

أخذ نيار العنبري يحدق إلى وجهه برهة، بسط بعدها اللفافة على الأرض بينهما، وعلى وهج النيران قال سائلاً:

- ما الذي تعنيه هذه الطلاسم التي في الأعلى؟

- هذه التي قرأتها من قبل في خان العصافير، وتعني «المجد لسيد النار».

صممتا بعض الوقت، وهارون النردى يقلب بصره في الرسوم قبل أن يتابع:

- أين وجدت هذه اللفافة؟

- هذه واحدة من سبع.

أخذ يخرجها جميعاً من جعبته ويضعها أمام عيني شريك رحلته مستطرداً:

- دلتني إحدى الخرائط القديمة إلى أطلال قرية مهجورة قرب روابي القرشية، كنت أبحث عن كنز قيم يغطي مصاريف رحلتي الكبرى إلى جزر الشروق، وجدتها داخل جرة مُحكمة الغلق مدفونة تحت سور مقبرة عتيقة.

أخذ هارون ينظر إلى اللقائف، وسأله:

- أتسمح لي بمطالعتها؟

- ما أخرجتها إلا لهذا، لثمانية أعوام وأنا أجوب أصقاع تلال الشمس بحثًا عنَّ يفك الرموز، وبمحاولاتي المضيئة استطعت أن أحدد مواقع النجوم على الخريطة، وتحديد مكان ما تُسمِّيهِ الدرع.

فتح خريطة الفلك خاصته، وأشار إلى بقعة فيها وهو يتابع:

- إن طابقنا النقاط المرسومة حول الدرع في هذه اللقافة، فسنجد أن مكانها هنا في تلال العنقاء. لكن في هذه اللقافة ذات الشريط الأسود يختلف الأمر!

ناولها لهارون النردى الذي أخذ يفك رباطها ويفتحها، وجد فيها رسمًا لرمح ذي نصل غريب الشكل ولا شيء آخر فيها. وبعد قليل من الصمت قال:

- الرموز باهتة لا أستطيع قراءتها.

وضعها، وأخذ يفتح واحدة تلو واحدة على وهج النيران ونيار العنبري يقول:

- أظن أن كاتبها شخص واحد، ربما خطَّها بالدماء.

كان هارون مندهشًا، وفي نفسه شيء من فرح، لا يصدق أنه يفهم المكتوب فيها كأنه تعلَّم هذه اللغة منذ صغره، أخذ يرتبها قائلًا:

- انظر إلى هذه الرموز الصغيرة، إنها ترتيب للنصوص. كتبها رجل يُدعى قرشي الداغري.

اقترب العنبري، وبدخله تختلج المشاعر، وأخذ يطالع ما يشير إليه هارون الذي بدأ القراءة باللقافة الأولى:

العام الثاني بعد المائة من سقوط النجم، اسمي هو قرشي بن جبرون الداغري، وُلدت في عام سبعين بعد الهلاك العظيم، بالكاد نجا منه قومي، وأضحوا جماعات صغيرة وفرادى من بعد ملك وجاه. طوال قرن حاولوا إيجاد مكان صالح للعيش، على الرغم مما مس الأرض من شر وبلاء، هلك الحرث والنسل، واحترقت سهول، وجفت بحار، وما زال في السماء أثر جرح انشقاقها وولادة ما تسبب في الخراب. الفناء كان مصير إمبراطورية الداغريين، أسلاف الذين حكموا العالم القديم قرونًا. انجرفت المدن على الساحل الشرقي، وتهاوت الجبال غارقة بقلب المحيط. ماتت الآلاف من سكان ضفاف أنهار لا يجري فيه إلا السراب، ومُحيت علوم حضارة دامت لآلاف السنين، وذابت المعرفة كجليد المرتفعات والجبال الشمالية، ونزلت الدبية وضواري الثلوج جائعة تجوب الوديان، وكائنات أخرى أشد شرًا ووحشية تحب الدماء، والناس تائهون يبحثون عما يسد رمقهم، رُحِّل تطبعوا بالبدواة، وأصبحوا أكثر لؤمًا وجشعًا، لا يتورعون عن القتل والسلب، وأكل لحوم بعضهم إن استطاعوا. حتى هبط أسياذ السماء إلى الأرض، رأيتهم وأفزعتني

هيئاتهم فهربت إلى خلف كومة أحجار، انتظرت حتى رحلوا جميعاً، أو هكذا كنت أظن، وجدنتني واحدة منهم تُدعى «إناني»، كدت أموت خوفاً من هيئتها، وبمجرد أن لمست فروة رأسي بعثت فيّ الطمأنينة، وعلمتني لغتهم التي أكتب بها نصي هذا، وكذلك بثت بداخلي كل شيء عنها وعن قومها، الذين جاءوا في إثر المنفي الذي سقطت زنزانتة بأرضنا، تأكّدوا أنه ما زال حبيس لب النجم، ولكنهم لم يعثروا على أغراضه.

درع ورمح، ملك للسجين المنبوذ، نرغال، سيد النار والخراب، الذي أراد أن يفني عالمه بعد أن أفسد الخلائق، وزرع فيهم الشرور، وأهلك الكثير من المخلوقات في سبيل أن يحظى وحده بالخلود، متعللاً بأنه سيصنع عالماً أفضل مما فرضه عليهم الخالق العظيم. حارب الحياة، وأفشى الموت، وأراد أن يخل بميزان الدنيا، وأن يحكم بنيران عالمه المظلم. إنه الشر الأعظم، وصاحب السواد باعث الأحقاد، بارع في التلاعب بالعقول واستمالة القلوب، محتال لئيم يتغذى على خوف الخلائق، وتمنحه تضرعاتهم وصلواتهم القوة. يبغض كل جمال، ويريد حكم الدنيا وفق هواه ونظامه الخاص. تمرد على إخوته وحاربه، لكنهم اجتمعوا عليه، أراد أن يخل بناموس الكون، والآن عليه أن يبقى منسياً في هذه الأرض البعيدة عن موطنه.

في اللقافة الثانية فقدت كلمات كثيرة بفعل اهتراء الجلد:

العام الخامس والعشرون بعد المائة من سقوط النجم، لم أظن أني سأعود للكتابة مرة أخرى، مررت بالكثير من الألم و(...) الأرض ما زالت تعاني وجود الغريب (...). يقول الرُّحَل إن الفوهة تغلي، ولا تكف عن نفث الدخان الأسود كبراكين نوردفان. (...) أستطيع رؤيته في الأفق والأجواء صحوة، ما زلت لا أعلم لماذا أكتب ولمن! بنيت مزرعة واستأنست ماعزًا وبغلاً شريداً، وتزوجت امرأة صالحة تسكن مع أهلها كهفًا يطل على الخليج والبحر، أزورهم كل خريف و(...) المكان رطب وهادئ، وصوت الأمواج يبعث في نفسي راحة، و(...) ولدت لي في البطن الأول صبيين توأمين، وفي الثاني فتاة حسناء، وأضحى لي بعض الجيران ممن تقطعت بهم السبل إلى الساحل، باتوا يُسمُّون ضيعتي الصغيرة «القرشية»، نسبةً إلى اسمي، يقولون إن التربة حول منزلي مباركة، ولم يُصبها شيء مما نالته بقية الأرض. زرعتنا شعيراً وحنطة، وأثمرت شجرة برقوق مر على زرعها خمسة عشر ربيعاً. ولم تأتِ إناني كما وعدت.

اللقافة الثالثة:

العام الحادي والثلاثون بعد المائة، عادت إناني، وهذه المرة باركت أولادي وأمهم، رآها أهل بلدي الآخذة في النمو، بثت في نفوس الناس راحة، وحملتني فوق غيمة معها إلى مستقر النجم، حيث دخان نيران متأججة لا تحمد، والمنفي ما زال في زنزانتة وقيوده. حملتني على راحة يدها، وحامت بي على أطراف الأرض، ورأيت كم أصبحت قارتنا العظيمة جزيرة منعزلة بعيدة عن بقية اليابسة. أمم وشعوب وإرث حضارات ابتلعها البحر، وكل هذا بفعل سقوط ذلك الشر، وفي طريق عودتي

إلى القرشية أخبرتني إناني بأن عالمهم يضعف، وقواهم تخفت بفعل السواد الذي سربه نرغال إلى نفوس الخلائق هناك، وأوعزت إليّ بأخذ الحيطه والحذر، وألا أخبر أحدًا بأمرها، وأن أخيف الناس مما يوجد هناك حيث الدخان الأبدي والسموم (...).

تضررت أجزاء كبيرة من اللفافة الرابعة بفعل الزمن:

العام الأربعون بعد المائة م (...)، ازدهرت القرشية لتصبح بلدة لها أربعة شوارع رئيسية وساحات وأسواق، تحيط بها أسوار من الطوب اللبن، ولها بوابة واحدة، أقمنا مباني من خشب وحجر، وبنينا أسوارًا عالية لاستكشاف المخاطر. سمعنا أخبارًا عن أناس في الغرب يثيرون الرعب في النفوس، و (...) كائنات مخيفة يقتلون (...). من الحوريات، ويطاردون غيلان الجبال، بل وصلت بهم الحال إلى أن هاجموا أعشاش طيور العنقاء في الجنوب البعيد، والهمسات تقول إنهم يبحثون عن شيء ما، وأخشى أن يصلوا (...). أو يقدموا إلى هنا. أشعر بالجن، وأخشى أن يمس الشر أولادي التسعة وأحفادي الكثر (...). لديّ الآن قطع من عشر أبقار، ويحاول أولادي اصطياد وترويض بعض الثيران الجبلية، والقرشية صارت مقصدًا للتجار والرُّحَّل والباحثين عن الأمان، أضحت أول معقل حقيقي للبشر من بعد الخراب، أحمل شعلة الفجر الجديد، وأخشى أن يصيبنا ما حاق بالقدماء (...).

اللفافة الخامسة:

العام الرابع والخمسون بعد المائة، بلغت من العمر عتياً، وانتظرت إناني كثيراً ولم تأت، ولا أظن أني سأراها مجدداً، الموت بات قريباً مني، والفناء هو عهد البشر. أعتمر تاج ملك لم أطمح إليه، وأحكم بين الناس بالعدل، وانبث ذريتي في الأرض لتعمرها، ووحده ولدي الصغير من عصي أمري وذهب إلى التلال الملعونة في الجنوب، أراد أن يشق طريقه في الحياة كما يريد، وانقطعت أخباره عني منذ زمن رحيله، ولم أحزن على ما اقترفه، إن أفلح في مسعاه فلنفسه، وإن خاب فعلها. وذات ليلة ماطرة هبط ضوء من السماء، لم تكن هي وإنما ملك الأسياد إشيكيجال، يعرفني وأعرفه، جاء ليُقرئني السلام منها بعد جولته في الأرض. كان الأمر هذه المرة يحتم قدومه، ليواجه جماعات من الهمج كادت تصل إلى الدرع، لكنه أفناهم. وترك الدرع في مكان آمن، كما قال، واطمأن أن الرمح بحوزة حوريات يسكن قاع بحيرة وسط غابة كثيفة، أقسم على حمايته رافضات منحه للسيد ذي البشرة الشاحبة، والذي منحني رؤيا النهاية إن أُخرج سيد النار من زنزانته، فستنشق الأرض وتتفجر الحمم، وتفور جارية كطوفان جارف، وتحت وطأة الزلازل سيغرق ما تبقى من الأرض، ويهلك المخلوقات جميعاً. نرغال هو الموت، وأرواح الأحياء سبيله لاستعادة قواه، ستفنى الحياة من الوجود إن غادر زنزانته. لم يفصح إشيكيجال أكثر من ذلك، وإني لأخشى الموت من دون أن أبقى لأولادي هذا الإرث، الذي أرجو ألا يُنسى، ولعلها تكون آخر رسائلي، لا أعلم لمن كنت أكتبها ولماذا خطتها بهذه اللغة، التي علمتها لابنتي وبعض من

أولادي، وأفكر في التقاعد وترك سدة الحكم لابني الأكبر، وربما أرحل عن زحام وصخب القرشية، والذهاب لقضاء ما تبقى من حياتي في الكهف الذي ولدت به زوجتي، قرب بحر الشروق الذي يحوي بداخله حطام حضارتنا البائدة، وإن كان بي شيء من قوة سأدوّن بعض ما أذكر من علوم وتاريخ أسياذ السماء وأهل الأرض قبل أن يسقط النجم، لعل أحدًا يطلع عليها ذات يوم ويعلم حقيقة صاحب الشرور والخراب، سيد الموت والنار، نرغال. باغتهما الصمت بعد فراغ هارون من القراءة، وحلت عليهما الدهشة وشيء من وجل، ونوبة ضحك هاجمت نيار العنبري وهو يقول:

- أنت مذهل يا رجل! لعلك حفيد قرشي.

هز هارون النردى رأسه نفيًا:

- لا أظن هذا!

- ما بك، لا أرى وهج السعادة في وجهك؟!

- كاتب هذه اللغائف قال إنه سيذهب إلى كهف ما على البحر ليؤرخ كل شيء. فمن الذي كتب على هذه اللغافة التي تحوي الدرع «المجد لسيد النار»؟ ومن الذي وضع مواقع النجوم؟!

أطلق نيار العنبري ضحكة مرحة ردّ بعدها:

- لا يهم ما دامت هذه اللغائف تخبرنا بمكان الرمح. كان في غابة الظلال طول هذا الوقت، كم أنا غبي، ظننت أنني سأجده بالقرب من هنا.

- كُفّ عن الضحك، وقُل لي ألم تجد أي شيء آخر مع هذه اللغائف؟

- كانت في جرة مُحكمة الغلق، ولا شيء آخر معها! ما بك يا هارون؟ حللنا الآن لغز كنز مفقود، سيمنحنا الكثير من المال والشهرة.

- ألا تعي ما قرأته عليك، إن العالم على وشك النهاية!

- لا تهول الأمر هكذا. هذه اللغائف عمرها أكثر من ألقى عام ربما، ولم يحدث شيء منذ ذلك الحين.

استشاط هارون النردى غضبًا، ونهض قائلاً:

- إن نرغال هذا حر طليق، كم مرة عليّ أن أذكر هذا! رأيتُه وجالسته وسمعت منه جانبه من الحكاية، وأكدت العرّافة منجية الأمر، وما قرأته هنا يوافق الرؤى والكوايبس التي تراودني. هذه اللغائف زادت من يقيني أنه قريب من مبتغاه، وعلينا أن نوقفه، وإلا هلك كل من على هذه الأرض.

عقد نيار العنبري حاجبيه، وأخذ يرتب كل شيء كما قاله رفيق رحلته الغاضب، لا يظنه كاذبًا أو اختلق كل هذا، ولكن إن كان وجود الرمح في غابة الظلال حقيقة، فما الذي يمنعه من تصديقه؟! الأمر يثير الخوف والرهبّة في نفسه، وهو الذي اعتاد مطاردة المخاطر والبحث وراء الأساطير. خسر الدرع الثمين، ولن يترك الرمح بعد أن علم بمكانه. أخذ يفكر بعض الوقت قبل أن يقول ببرود:

- إننا مجرد رجلين، مقامر ونجار مغامر. يمكننا اتباع حظوظنا، ونحصل على الرمح المذكور في اللغائف، وبعدها نذهب إلى السلطان الأشرف غازي في عش الثقب، ونخبره بما حدث معك وفحوى تلك النصوص.

- ماذا لو قدر للرمح أن يبقى حيث هو، أو نهلك في سبيل الحصول عليه؟! إنه ملعون ممتلئ بالشر.

- وجدت هذه اللفائف لسبب، وحصلت على الدرع أيضًا لسبب، وليس هناك أفضل من السلطان ليحمي ويصون تلك الأشياء، ويقف أمام ذلك المدعو بسيد النار...

قاطعته هارون باقتضاب ضجر:

- افعل ما تشاء، في الصباح سأرحل عائداً إلى الصقارة، ومن هناك سأذهب للبحث عن الكهف قرب القرشية، عليّ أن أعرف ما خفي من أمور، والوصول إلى ذلك اللعين نرغال.

أنهى كلماته، وعاد إلى فرشته، استلقى وأغمض عينيه، لم يطمع في النوم بل أراد إراحة بدنه، أما عقله فلم يستطع كبح جماحه من خوض دهاليز الاحتمالات. تلاعبت به الظنون، وداهمته المخاوف، لا يعلم نهاية طريقه، ولا يدري هل اختياره ما أفضى به إلى ذلك أم قدر فرض عليه؟! وفي خضم ترحاله في غابات فكره، داهمته رؤى متسارعة ومزيج مما قرأه في اللفائف، وتساءل لماذا لا يقامر هذه المرة كعادته، يقلب عملته المزيفة أو يضرب بنريده جدران الأقدار، ويجعلها تختار له كما تفعل دومًا؟! العرّافة أخبرته بأن نرده لا يخيب، وهو الذي عاش عمرًا يظن نفسه محتملاً وضيعًا.

ما الذي حدث لك يا هارون؟ سؤال تردد كثيرًا في رأسه طوال الليل، تائه في بحر متقلب تجوبه حيتان الذكريات وضواري الخوف. «خلقنا جميعًا لغاية»، هكذا قالت له سيدة ساعدها على إيجاد زوجها وخلصه من قُطَاع طريق قرب البوغاز، خجل حين وصفته بالطيب النبيل، وما النبيل في فعل الواجب؟! لطالما ظن الناس أن الغرباء مثله من ذوي النسب المجهول، ما هم إلا حفنة من الأوغاد. لقد شق طريقه في الحياة وفق مبادئ وقواعد وضعها لنفسه، أهمها ألا يأبه بما يقوله الناس عنه، ولا يهيمه إن كان من يجاوره نيران المخيم يصدقه أم لا، لكنه يعلم أن الشاب المغامر لن يبرح حتى يجد ما يريد.

ضباب خفيف غشي الأطلال، وتساقطت قطرات الندى، استيقظ نيار العنبري قبل صاحبه، أعد شراب بابونج بالليمون، ووضع على ما تبقى من جمر راكمية النار، ونهض إلى الفرس، ورخام الجدران الذائبة ينضح ببرودة الصبح. مشط جسدها بفرشاة خشنة وأسقاها، ورجع ليصب شرابه المفضل، حمل القدح الساخن، وارتشف مستمتعًا بالمذاق. ما زال رفيق سفره نائمًا، لم يستطع النوم من شخيره، كيف ينام قرير العين هكذا وهو برفقة رجل بالكاد يعرفه؟! انتفض نيار من لحظات تأمله وهو يلتفت إلى جواد صاحبه، الذي أخذ ينخر ويضرب الأرض بحوافره، منتصب الأذنين فزعًا يريد التملص من مربطه، وأصابت عدوى ثورانه فرسه المليحة المبقعة، وشعر العنبري بتيار هواء قوي كاد يسقطه. مر ظل ثقيل فوق رؤوسهم محلقة في الضباب، استيقظ هارون النردى مفزوعًا، تحسس طرف فرشته باحثًا عن سيفه، وقام متلفتًا حوله ليجد الجوادين هادئين، ونيار العنبري يقف رافعًا رأسه ينظر إلى السماء قائلاً:

- أظن أن علينا الرحيل.

- ما الذي حدث؟ ولم تركنتي نائمًا كل هذا الوقت؟!

نظر إليه نيار طويلاً، ثم شرب كل ما في القدح دفعة واحدة، وقال وهو يجمع متاعه:

- هناك شيء يترصدنا.

دار هارون في المكان متحفزًا:

- أين؟

- في السماء، رأيت ظله.

- هل ما زلت نائمًا وتحلم؟!

وضع نيار السرج على ظهر الرهوانة المتوترة، وهو يقول بجديّة:

- إن لم نخرج الآن فلن نكون بأفضل حال من الرخام الذائب.

غرقت أطلال الرخ في الشبورة، وتردد صدى وقع خُطى جواديهما يتعجلان الخروج من دروب وشعاب محاطة بالأنقاض. يشعران بأن شيئًا قد يحط عليهما من السماء ويسحقهما، يجركان أذانها يمينًا ويسارًا، وركضا لما سمعا خفقة قوية كأن سيل هواء سيضرهما، وصاح نيار في فرسه لتسرع أكثر، ولم يستوص خائل الذي سبق الريح هربًا، وفوقه هارون الذي كان ينظر إلى ظل عظيم مار فوقهما، اتسعت عيناه ذهولًا وهو يرى طائرًا ضخمًا مهيبًا، بديع الهيئة تتجانس كل درجات اللون الأحمر في ريشه، غطس في السحب بنعومة، واختفى كأنه لم يلحظ وجودهما. شعر النردي بأن قلبه يكاد يخترق صدره وأنفاسه تتلاحق، وغمرته موجة دهشة حتى غادرا الأطلال، وانقشع الضباب ولا أثر لمطاردهما أبدًا، ولم يتحدثا حتى هدأت أنفاس الجوادين بوادٍ كثيف النخيل. نزل هارون النردي، وربت على عنق جواده المتعرق:

- ما هذا الشيء؟

ردّ نيار العنبري ضاحكًا والحماسة تعتريه:

- الرخ الأحمر. ألم تصادف جمجمة لأحد صغاره في الصقارة؟

- كنت أحسب أنه انقرض منذ زمن بعيد!

- وأنا أيضًا، إنها المرة الأولى التي أشاهده فيها. إننا محظوظان يا رجل، إن استطعنا إيجاد عشه.

- لن نفعل شيئًا سوى الرحيل عن هذه الأرض الملعونة.

- إن ما رأيناه حقيقة لا جدال فيها. سمعت الكثير من الحكايات عن هذه الطيور العملاقة، وفي تلال العنقاء رأيت عظامها، هياكل كبيرة وجماجم وقشور بيضها الضخم، كان مجزرة عظمي وقعت في المكان، مئات السيوف والرماح، لجيشين اقتتلا ومعهما مخلوقات أخرى، ولم ينبج منهم أحد، وإلا لترك أثرًا أو خيرًا مما حدث. نُشوا من التاريخ، ولم تُعد لهم ذكرى، كان لم يكونوا. حتى قرأت أنت هذه النصوص، وأدركت أنك صادق وأمنت بأن هناك الكثير من أسرار عالمنا لم نكتشفه بعد...

قاطع هارون:

- أين نحن الآن؟

- لا أدري! ولكن يبدو أننا نسير في وادٍ قرب جرف الهلاك.

- هلاك!

- لا تقلق سنخرج من هنا سالمين، ولكن قُل لي، هل غيرت رأيك بشأن مرافقتي لغابة الظلال؟!

- ذهني مشوش، أفيق من كابوس لأجد الموت يخلق فوق رأسينا، فرغت زجاجة خمري بأول الرحلة، وبالكاد أدرك ما يحدث في العالم الجديد من حولي، سأمضي إلى الصقارة كما نويت.

- كما تحب، سأوصلك إلى غابة الورود هي قريبة من مقصدك.

وبينما كان العنبري يتحدث، أخذ هارون ينظر إلى النردين على كفه، قلبهما وأمعن في الرسوم عليهما، وما لبث أن رجها في كفه، وقبل أن ينفخ فيهما، قال لنفسه: «إنكما مجرد نردين مغشوشين. آتياي بما تريدان». نفخ ثلاثاً، ورماهما على الصخرة أمامه، ونهض من دون أن يرى على أي صورة استقرا. جذب لجام جواده، وتقدم عبر الوادي، ومن ورائه يصيح نيار العنبري وهو ينظر إلى النردين:

- أسد وشمس! ماذا يعني ذلك؟

لم ينطق هارون بل توقف عن المسير، وتجمدت الدماء في عروقه وهو يتطلع إلى ثلاثة رجال، يعترضون طريق مرورهما، هيئة رثة ووجوه مغبرة، أوسطهم رجل عريض الكتفين طويل القامة، أشيب يعقد جديلة طويلة خلف رأسه، له لحية كثة، وإن ضفرت أطرافها، وما زال ببياضها شيء من صبغة زرقاء، يحمل فأساً مذهبة المقبض وينظر إليها بعينين زرقاوين قاتلتين ووجه مهيب، وصاحبه الأصغر سنّاً يشدان وتري قوسيهما استعداداً للقنص. فغر نيار العنبري فاه، بينما قال هارون:

- إننا مسافران في سلام.

رمقهما المحارب العجوز، وقال بصوت أجش ولكنة شمالية:

- من أي البلاد أنتما؟

بسرعة ردّ نيار العنبري:

- أنا من العنبرية، وصاحبي هذا من الصقارة.

اقترب الرجل يؤرجح فأسه:

- وأين نحن من هذه المدن والبلدات؟

عقد هارون ونيار حواجبهما، وتبادلا النظرات، قبل أن يقول هارون:

- يبدو أننا من يجب أن يسأل، من أنتم وماذا تفعلون هنا؟

أشار الرجل إلى صاحبيه فخفضا القوسين، وأحدهما يسأل:

- هل لديكما ماء أو طعام؟

نهره العجوز بنظرة قاسية، وقال بنفس معتدة:

- أنا قاسم أصلان، قائد جيش السلطنة والوزير الأعظم لملك تلال الشمس الأشرف غازي، وهذان رجلاي مجيد وكادي، كل من تبقى من جيش قوامه خمسة آلاف محارب. شهور، وربما عام مر علينا ونحن تائهون نبحث عن سبيل للعودة إلى الزرقاء. إن استطعنا مساعدتنا فقد أمحكما الكثير من الذهب والكنوز.

قال نيار بنبرة شكّ:

- وما أدراك أنك تقول الحقيقة؟!

- من أي ديار العنبرية أنت أيها الشاب؟

- الجابرية.

- ونعم العشير، أخوال بني الأزرق، هل تعرف سمعون الجابري، وصفوان والزنداري...

- سمعون هو أبي...

- صائد الحيتان الوردية وأول من ذهب إلى أرخبيل بحر النسيان؟! صفوان خالك إذن، ما زال يطلي سفينته باللون الأزرق، وتُسَمِّيها عُقاب البحر أليس كذلك؟!

ردَّ نيار بتردد:

- كيف تعرف كل هذا؟

- عشت في ديار الجابرية فترة من الزمن. ألم يقص والدك عني شيئاً؟

تدخل هارون النردى مقاطعاً ببلاهة:

- هل أنت حقيقي؟

ضحك رفيقا العجوز، بينما لوح نيار العنبري:

- اعذر صديقي، فقد مررنا بليلة سيئة. سيدي هل لك أن تؤكد صدق كلامك أكثر؟

اقرب منه قاسم أصلان وقال:

- على ما أذكر حين قابلت أباك آخر مرة قال إن لديه ستة أولاد ربما، على كلِّ، أمك هي السيدة زبيدة وحضرت جنازة جدتك من دار الشدادية، وفي مدخل داركم يستقر تمثال فائق الجمال من الكوارتز لحوت عنبر بجناحي عُقاب، لا أنساه أبداً. إن كنت لا تصدق كل هذا، فيمكنك فقط إرشادنا إلى الطريق المؤدي إلى البوغاز أو المهديّة.

ابتسم نيار، وخفض رأسه قليلاً تحية للرجل:

- نحن بعيدون جدًّا عن كل هذه البلدات والمدن يا سيدي، ولكن يمكننا مرافقتك حتى أقرب طريق يؤدي إلى الصقارة أو المرج الأخضر.

قاطع قاسم أصلان بصوته الخشن:

- أقدر ذلك ولن أنسى فعلك هذا، أنت نسل طيب لعائلة عريقة. إن رافقتني إلى الزرقاء فسأجزل لك ولصاحبك العطاء.

لم ينطق هارون النردى بأي كلمة، تقدم المسير وترك نيار الثرثار رفقة صاحب أبيه. أيُّ مصادفة عجيبة هذه التي جمعتهم بالأسد الأزرق كما يُسمُّونه؟! لم يتخيل مظهره هكذا قطُّ، عجوز أشعث واهن تؤلمه مفاصل ركبتيه، أرهقه الهرب والتهيه، قاسمها ورفيقاه في الماء والزداد، تناوبوا على ظهرَي الجوادين، ولم يفصح نيار العنبري عن شيء مما حدث معهما، ولم يأتِ على ذكر اللفائف ولا الرمح. مسير طويل قادهما إلى طريق الوادي القديم، وفي الأفق شمالاً يرتفع جبل الحيتان، كظل قائم يجابه زحف ظلمة الليل، أقاموا مخيماً صغيراً فوق حافة تلة تشرف على بحر الرمال، سيببتون هنا، وفي الصباح ينطلق كلُّ منهم إلى طريقه. وعلى وهج النيران بدأ قاسم أصلان يحكي ما حدث له ولجيشه على ضفاف بحيرة هايدن:

- خرجت من الزرقاء في حملة تأديبية لأهل الصحراء والغابات، وانتقاماً لروح أخي الصغير راجي صائد الذئاب. أبحرنا إلى البوغاز ومنها إلى كفر البردقوش، وانطلقنا عبر خندق السراب إلى بحر الرمال، وعند طريق الوادي القديم وزعت القوات بين اثنين من رجالي لا أعلم مصيرهما، فقدنا الأدلاء من جباد البرق، الذين تُخطفوا من دون أن نجد لهم أثراً، عشرات منهم تبخروا وانقطعت الأخبار بيننا. كان عليّ مواصلة الطريق إلى مملكة الساحل، ولكننا لم نصل قطُّ.

صمت برهة، فسأله هارون النردى ببرود:

- هل كنت تنوي غزو الساحل بخمسة آلاف محارب؟!

تطلع قاسم أصلان إليه، وقال بهدوء يتناسب مع وقار مظهره:

- كان علينا حماية عاهل المملكة، يحيى بن اليمان، ولد يافع تسيطر عليه مجموعة من الخونة، ولكن مع اختفاء فرق الكشافة وتلبد السماء بالغيوم وقعنا في تيه، وأصاب رجالي وباء جعلهم واهنين، وتحت أجواء مطيرة لأيام وليالي طالبت إقامة معسكرنا، وبدأت المؤن تنفد، والعزيمة تخور، ولكنني استنهضت الهمم، وتوجهت جنوبًا على أمل الوصول إلى بحيرة، أرشدنا إليها بدوي رجال يسافر رفقة والده الكهل وأجزلت له العطاء. بلغنا صفتها مع شروق الشمس، أقمنا معسكرنا وأحطناه بمتاريس، واستمتع الرجال بضياء النهار ودفء الشمس. شقيت الخيول وجمت، وخرجت لنا من البحيرة أسماك كثيرة، تسبح على سطح الماء ولا تقاوم أيدي الجند، ملئت السلال والخوذات والدروع بأرطال من السمك، وأوقدت نار المعسكر، وبدأت رائحة الشواء تترجم الأنوف، أكل الجميع حتى انتفخت البطون. ظننا أنها هبة من الإله ومكافأة على صبرنا وحسن مقصدنا، لكنها لم تكن كذلك قط. من حسن حظي أنني لا أفضل لحم الأسماك، ولم أمس المياه الملعونة! مع انتصاف الليل استيقظت على صوت جلبة وسعال وصراخ. الجميع كانوا ينزفون من محاجر أعينهم، ويفرغون ما في بطونهم قيتًا تنن الرائحة. عمَّ الهرج والفرع، وتساقطت الخيول تباغًا بعد أن انفجرت الدماء من مقلها وأنوفها. اشتعلت النيران في الخيام القريبة من المتاريس الدفاعية، وعجلت بحصد أرواح المحتضرين. وأنا أحاول الهرب وفهم ما يحدث، رأيت البدوي الرجال ووالده يمشيان وسط السنة اللهب ولا يشتعلان. غادرت من دون أن يرياني...

قاطعته هارون النردى:

- صيف لي ذلك البدوي.

- رجل ربما تخطى عقده الثالث، أصلع له شارب أشقر كث، ووالده أعمى.

- يُدعى نرغال؟!

- لم تكن بحاجة إلى معرفة اسمه، لقد قادنا ذلك اللعين وابنه المختل إلى بحيرة مسمومة.

غمغم نيار العنبري وهو يقلب النيران بعصا:

- إن بحيرة هايدن ملعونة، والأقاويل كثيرة، لكنها ترجع إلى عصور سحيقة، يقولون إن في قاعها يرقد وحش عظيم هو من يتسبب في تسمم مائها.

عقد قاسم أصلان أصابعه وقال بأسى:

- خسرت رجالي في غمضة عين، ولأشهر رحت أجوب التلال والغابات رفقة الرجلين من فيلق الرماة، من حسن حظهما أنهما كانا يصطادان الغزلان ولم يحضرا عشاء الموت. ساعداني كثيرًا واهتما بي، وكل ما نريده هو العودة إلى الزرقاء، من دون مجد أو نصر. لم يهزمن جيش عدو وإنما بغدر وخبت رجلين، هذا ما حدث، ولم أدر كلمات أخرى أو أي موقف، سوى أننا كنا قد فقدنا الأمل حتى التقيناكما.

قال هارون النردى معقبًا:

- نصدقك أيها القائد، وأظن أن اجتماعنا في هذه الليلة لسبب، وما سأرويه عليك الآن، قد يكون ضربًا من الخيال أيضًا، ولكنه حقيقة وواقع، وأخشى أن يكون الأمر أكبر مما أظن!

أخذ النردى والعنبري يقصان على الرجل عجائب رحلتها، وأنصت قاسم أصلان، وأبدى اهتمامه لكل حرف ينطقان به، لم يكذبها أو يصدقها، وهام عقله وقلبه إلى الزرقاء، حيث يشتاقي إلى رؤية بنيه وأحفاده، سيركع تحت قدمي سلطانه طالبًا العفو على ما حاق بجيشه، وسيفعل أي شيء ليعوض ما حدث، ولكنه عاش عمرًا طويلًا بما يكفي في خدمة بني الأزرق وسلاطينهم، ويعلم أن غازي لن يغفر ذلك أبدًا.

وُلِد فجر جديد على حواف الأفق، وما لبث أن أتى ضياؤه الوردى إلى رؤوس التلال، وخبا وهج حفرة عين الشمس، وسكنت الروافع، وفرغ القاع من المنقبين والعمّال، وعاد كلُّ إلى مبيته ومضجعه، وأغلقت حظائر العبيد، وخوت الطرقات الضيقة بين الأكواخ. تراخى الحرس حول الثكنات وعلى الأسوار، ليس هناك ما يخشونه، ما دامت راية العقاب تحفق فوق الأبراج، وكانوا مخطئين. في البدء أخذتهم الدهشة وهم ينظرون إلى طرف الأفق، حيث ارتفعت رويدًا رويدًا سحابة غبار اعتلت قمم الهضاب والتلال، وتناهى إليهم وقع ديبب يهز الأرض مؤرقًا السكون، ومن مهب الجنوب سُمع دوي الأبواق، وظهرت رايات ورماح جيش عظيم لم يروا مثله من قبل، كتائب من فرسان ذوي خيول مدرعة، وفيلق لا حصر لها من المشاة حملة الرماح والدروع، ومئات الفرق من السيافة والرماة، وعربات خشبية كبيرة تجرها خيول ضخمة. ولم يكن بوسع حرس عين الشمس إلا أن ضربوا الأجراس، وأغلقوا البوابات بعوارض إضافية لدعمها، وتجمعوا متوارين خلف المتاريس ونوافذ الأبراج، وفوق البوابة الجنوبية وقف قائد حامية عين الشمس ينظر إلى بيارق وأعلام الجيش القادم نحوهم، صفراء وسماوية ويتوسطها كركدن أبيض، وتتناثر بينها عشرات من رايات سوداء تتوسطها نجمة بيضاء. لا يعلم ما عليه فعله أمام هذا العدد الكبير من القوات، عاش عمرًا هنا ولم يجرؤ أحد من قبل على تعكير صفو السلطان، وتساءل في نفسه: «ما الذي حدث ليجعل مملكة الساحل تأتي لحصارهم بغتة؟!».

أطبق الحصار على عين الشمس، قبل أن يفتن سكانها لما يحدث خارج الأسوار، لم تكّد أعينهم تنال شيئًا من نوم، حين سمعوا ضجيج الدبيب وقرع الأجراس، خرجوا هائمين إلى الدروب والطرقات، يحاولون معرفة ما يحدث، ولم يُجِبهم أحد، وانفض جمع مريدي مخمرية قبل أن يبدأ اجتماعهم، والكل فزع يحاول فهم الأوضاع. ركض جاد رفقة بعض من رجاله ناحية الأسوار، وحال الزحام دون بلوغهم البوابات، والجند يحاولون احتواء الأمر، ويطالبونهم بالعودة إلى الأكواخ. كان جاد يريد تبين ما يدور، فأمر رجاله بالانتشار وجمع الأخبار، واتجه هو إلى إحدى الروافع القريبة، وأخذ يتسلق سلالها وسقالاتها بخفة وسرعة، وقبل أن يرتقي قممها هاله ما رأت عيناه، جيش عظيم ورايات مملكة الساحل خافقة، مع نسيم صبح غريب لم تشهده من قبل الأنحاء، وهوى قلبه حين عاين الرايات السوداء، شرد وغط الكون من حوله في سكون.

يعلم جاد أن مجموعات الحرس في عين الشمس ليسوا مدربين على خوض الحروب، ولن يستطيعوا مجابهة هذه الأعداد، ولأول مرة لا يعرف ما عليه فعله، ولم يضع نفسه ورجاله في ذلك المأزق، يبدو أنه أخطأ القرار حين جاء خلفها، ولم يتبع بدر بن حمدون الذي اتضح أنه أهم وأخطر الحكماء. ومن مكانه الشاهق بين عوارض الرافعة، أخذ يجول ببصره في الأعداد الغفيرة المحاصرة لعين الشمس، وحين همَّ بالنزول رأى فارسًا يتقدم، في كامل عتاده وخوذة تخفي وجهه، رافعًا راية المهترق إينال السوداء، ويمتطي برذونًا حربيًا مدرعًا يمشي بخيلاء، مقتربًا بكل ثقة من الأسوار، ونادى بصوت قوي بلغ مسامع جاد:

- لسننا هنا لقتل أحد، ولا داعي للمقاومة، ألقوا السلاح فلم يُعَد لكم دور هنا، يمكنكم الرجول إلى الشمال أو إلى أي مكان، ما جئنا إلا لإرساء قواعد العدل ورفع الظلم، وتحرير الرقاب من السخرة والهوان.

ردَّ قائد الحامية بنبرة قوية، وإن كان يشوبها التردد والقلق:

- وماذا إن قررنا القتال؟

لكز الفارس برذونه القوي ليتقدم خطوات إلى الأمام، وهو يقول بصوته الجمهوري:

- يمكنك فعل هذا، ولكن كم ستصمد أنت ورجالك خلف هذه الأسوار البالية، أنتم منسيون هنا ولا يأبه بكم سلطانكم الجالس في عرش العُقاب، سأمنحك حتى الطهيرة لتتساور ورجالك في القرار، وكما ترى أنتم في قبضتنا، ولا سبيل إلى الهرب أو طلب عون لن يأتي، وحتى لو أتى سنكون له بالمرصاد.

مع ختام حروفه جذب لجام البرذون الحربي، الذي أخذ يدور حول نفسه مستعرضاً، ويقف على قائمته الخلفيتين مطلقاً صهيلاً هشم السكون. عاد الفارس المعتد بنفسه إلى جيشه، و صفوف الجند تهر بصيحات الاستعداد، بينما يقف قائد حامية عين الشمس جامداً فوق البوابة، حاله كحال جاد الذي أحس بأن قلبه هوى من هذا الارتفاع، نزل عن الرافعة يبحث عن رجاله وسط الزحام، كان ينوي أن ينضم إلى الحرس ويكشف هويته، محاولاً قيادتهم للدفاع قدر الإمكان، ولعله يفلح في طلب المدد من أزد القرية حيث يستقر جنده. حاول درء اللوم عن نفسه لاختياراته التي أوقعته في هذا الموقف الصعب، وهذه المرة ليست هناك خيارات أو خطط بديلة، فقط الواجب والصواب وما كان عليه فعله باكرًا. ومن بين الجموع برزت مخمرية لتخطف بصره، انتشلته من تيه أفكاره، تسير باتجاه الأسوار محاطة بزمرة من مريديها المقربين، حاول أن يتبعها، لكنهم انصهروا في زحمة الأجساد، ومرة أخرى طحنت الحيرة عقله، وشعر بعجز مرير. لم يفلح في تتبعها، وكذلك لم يستطع الوصول إلى الأسوار. أُقيمت حواجز ومتاريس منعت العبيد والمحكومين من الاحتشاد، وهو لا ييأس ولا يوقفه عائق عن واجبه المقدس، يدرك أن الصواب والخطأ مرهونان بما يستطيع فعله، وعلم أن مخمرية تجتمع مع بضعة نفر من أتباعها عند البوابة الجنوبية، فجمع رجاله وتسلاحوا برماح كانوا يجثون تحت أرضية أحد الأكواخ.

وضع جاد خطته، وقسم رجاله إلى فريقين؛ ثلاثة رجال سيحاولون الوصول إلى الجهة الشمالية، ويتحتم عليهم أن يشقوا الحصار من دون لفت الانتباه، وأن يذهبوا إلى أزد مهما كلفهم الأمر، أما هو والبقية فسيتجهون إلى حيث قائد الحامية مروراً على مخمرية قبل أن تغدر بالحرس، ولكن يبدو أن جاد ورفقته تأخروا كثيراً، بينما كانوا يعتلون الأسطح كقطيع ضوارٍ ذاهب للصيد، كانت الطرقات بين الأكواخ تحتهم ترتج من وقع أقدام الناس، يركضون إلى الساحات الفاصلة بين الأسوار، ومديتهم القائمة على حواف عين الشمس بدأت في الغليان، ومخمرية تقود حشوداً من عبيد ومحكومين، غوغاء يحطمون كل شيء في طريقهم، اقتحموا الحواجز وطحنوا من وقف في طريقهم حتى صاروا تحت الأسوار، يهدرون بضجيج ثورة عارمة، غبار وفوضى وصياح لا يتوقف، لا يعرف كيف احتشدوا بهذه السرعة! ضجيج أصواتهم بدأ يخفت ومخمرية ترتقي بقايا برج حجري قديم، تتشع بالسواد، ويجرسها جمع من الأتباع المخلصين. وقفت تنظر إلى آلاف المحتشدين أمامها، تنفست الصعداء، وانشرح قلبها مع سكونهم، نال منها خدر نشوة انتصار، وقالت

بصوت عالٍ بما يكفي ليصل إلى مسامع القريبيين من حواف الفوهة:

- العدل واجب، ومُلك بني الأزرُق زائل، واليوم هبة من الخالق عاتق رقابكم جزاء لما صبرتم، حياتكم لها قيمة والعالم أكبر من قطر هذه الحفرة، يمكنكم تعويض ما فاتكم من الحياة، وليس بينكم وبين الحرية إلا أن تُفتح هذه البوابات وتعبروها.

سرت المهمات بين الجموع يتناقلون كلماتها بينهم، وهي تتابع:

- خارج هذه الأسوار جيش عظيم أرسله الخالق لنجدتكم، وليمنحكم ما ينسيكم مرارة العيش، من أراد أن يرحل فليرحل، ومن أراد أن يبقى فعزه عزنا ما دام تحت راية الخالق.

هاج الناس، وهدرت حناجرهم بالصياح، ثورة طبختها على نار هادئة، خلال ستة أشهر ومنذ اليوم الذي وطئت فيه قدمها تلك الأرض، وهي تعرف ما تريد وإلام تسعى. كان على جاد قتلها في أول مرة رآها، وهذا ما جاء لأجله وليته فعل! نجحت خطة مدعي النبوة الذي لم يكن نداءً سهلاً، وها هم أولاء أتباعه من المؤمنين أصحاب العقيدة يحكمون حصارهم على عين الشمس، فعلها بدر بن حمدون، وجاء بجيش مملكة الساحل كما كُلف، وها هي ذي مخمرية تقف بفخر وسط قطيعها المسلح، لم تكن لتأمن أحداً على مخططها، وما كانت جلساتها الروحية وحديثها عن العدل والمحبة والسلام إلا قناعاً مزيفاً. أتقنت دورها، ونجحت في إخفاء ما كانت تخطط له. كانت تتحين تلك اللحظة منذ البداية، لم تسع إلى ثورة قد تفشل من دون دعم الجيش خارج الأسوار، وغرضهم منذ البداية هو السيطرة على عين الشمس، ولكن لماذا؟ أحاطت به نظرات لائمه، وألقى بعض رجاله الرماح الخشبية، وأمامهم تهجم الجموع على البوابات وأبراج الحرس. تسلق الغوغاء الأسوار، واجتاحوا القوات الخائفة. التفت جاد الغاضب إلى رجاله قائلاً:

- سأذهب للقضاء عليها. من كان منكم عُقاب لبتعني إلى نعيم جدنا ذي العين الزرقاء، وما أقسنا إلا على الموت في سبيل النظام وشرعية الجباسكي.

شق طريقه عبر الحشود قاصداً مخمرية، يستطيع رؤيتها بسواد ملابسها وسط الأسمال والأردية البالية، كانت في طريقها إلى البوابة الجنوبية العملاقة، تمشي مبتسمة محاطة بحرسها والراجين منها شفاعاً، وانقض مع رجاله ليثيروا الشغب حول طريقها، يتخطفون أتباعها المسلحين بمهارة وخفة، ولكن فجأة انفجر الأمر وصار أشبه بعراك، وما لبثت حُمى القتال أن تفشت في الجميع، ودائرة الفوضى اتسعت، ورجال جاد يتساقطون تباعاً، وهو يقاتل بضراوة محاولاً الوصول إليها، حتى جاءتته ضربة قوية على رقبته، فقد توازنه هنيهة شعر بالدوار وكاد يسقط، ولوح برمحه في الهواء على غير هدى، ترنح وهو يصد الضربات ولم ينجده من الغوغاء إلا تدخل مجموعة من رجالها، يعرف وجوههم جيداً، انتشلوه بسرعة ووضعوه بين ظهورهم، وفوجئ بها تقف أمامه وتمد يدها إليه لتسنده، ومن ورائها يرفع الثائرون عوارض البوابة الجنوبية، وهي تقول له بمرح:

- لا تُفت الآن، أريدك أن ترى عالمنا الجديد.

فتحت بوابات عين الشمس الأربع، وانبت الناس منها كطوفان جارف، فرحين يضحكون ويقفزون، الكثير منهم لم يروا العالم خارج الأسوار من قبل، صدموا وذهلوا وتعجبوا من الجيش المحاصر ودروع

جنده وأسلحتهم وخوذاتهم البراقة والرايات الخافقة فوق التلال، أخذتهم الرهبة وجيش مملكة الساحل يفسح بنظام وانضباط ممرات ليعبروا. ركضوا إلى الشعاب والوديان تسبقهم بهجتهم العارمة، وأمام فيلق الفرسان رفع بدر قناع خوذته البيضاء ذات القرن الذهبي، على هيئة رأس حوت الكركدن رمز مملكتهم، لم يستطع رفض هدية أبيه المبهجة من درع فخمة وبرذون حربي هائج ينفث البخار، لم يكن هناك شخص أسعد منه على الأرض، وليس سواء مع أولئك الهاربين من الجحيم، إنه أمام نبوءة وحلم يتحقق، وكل ما بناه رفقة النبي إينال والحكماء بات واقعاً، لم يتبق لهم إلا أن يخرجوا مهد الخلود الذي وعدهم به الخالق. ليت أباه كان معه لينظر صنيعه، وما أصبح عليه! قاد الجيش عبر غابة الورود ووادي جبال الأقف، تحاشى النزول مع النهر الكبير، وتفادى المرور على الصقارة حتى لا يسبقه خبره إلى أزيد وشلال الحياة. اضطر إلى قطع خندق السراب وعبور النهر من جنوب عين الشمس، ثم برز من العدم حول أسوارها، ولم يكن أمام قائد الحامية وقت للتفكير، عاجلته مخمرية بقطع رأسه وجميع جنده، وأمرت بتعليقها على الأسوار، وخرجت من البوابة بيدين ملطختين بالدماء، يتبعها جمع غفير لا تسبق خطاهم خطاها، من يؤمنون بأنها تستطيع تنظيم حياتهم ومنحهم المزيد، وليس مجرد الحرية، أشارت لهم بالتوقف ففعلوا من فورهم، وتقدمت هي وحدها إلى قائد جيش مملكة الساحل.

قطع بدر بن حمدون المسافة إليها على سهوة البرذون العفي، الذي طرق الأرض بفخر وقوة، وتمايلت الراية ذات النجمة مع حركته. وكانت مخمرية هي من اختارت لونها ورمزها يوم اجتماع الحكماء في دار أبيها، اللون الأسود هو الظلام الذي استشرى في نفوس الحكام فظلموا، والنجمة هي ضياء العقيدة بحكمائها السبعة. يذكر يوم ألقى زوجها من فوق السد، بعد أن قاومهم ورفض أن يكون مجتبي كما حاولوا أن يقنعوه، وكان ذلك سبباً في أن يرحل الحكيم نرغال غاضباً، فبقاؤه طويلاً في جسد العجوز الأعمى استنزف قواه، وتركهم يواجهون تقلبات الفكر وخيالات الأوهام، وخرج للبحث عن جسد جديد من دون أن يخبرهم، لم يعلموا أنه يئس من خوفهم وقلة إيمانهم، وجعلهم يواجهون مصائرهم التي حددها من قبل. أبوها وسياس ومرجان والنبي إينال أدى كل منهم دوره، وحققوا غاياتهم من الوجود، ووحدها مخمرية من بثت الأمل في النفوس من بعد يأس وطول انتظار، من شددت أزر الطبيب ذاكي، وألقت في قلب بدر بن حمدون رغبة في تحقيق النبوءة، وها هو ذا يقف أمامها بعتاد يليق بكونه قائد جيش الخالق. ما إن اقترب منها حتى قالت:

- كنت أعلم أنك ستأتي، ولكن ليس في هذه الأبهة.

ترجل عن برذونه، وغرس الراية بقوة في الأرض، ومن ورائه بدأت الكتائب في الانتظام لدخول عين الشمس. تقدم نحوها خطوتين، وبدا ضحكاً في الدرع الفضية، فوق قميص من زرد مطعم بالياقوت الأزرق واللؤلؤ المصفر، وضع خوذته تحت ذراعه، وقال باسمًا رغمًا عن شاربه الكث:

- تقاليد العائلة حتمت عليّ ارتداء هذه الدرع، كما أنني أحببت مظهري بها، هي وهذا البرذون الجامح.

- يحق لك هذا، ستحكي لي كيف حشدت هذا الجيش، ولكن علينا أن نبسط السيطرة على عين الشمس ومحيطها، وهناك الكثير من المحررين سينضمون إلينا.

- وماذا عن هؤلاء الذين رحلوا؟

راقبت الجموع الراحلة، وهزت رأسها قائلة:

- لا أعلم، ولكن أغلبهم سيعيثُ فسادًا في القرى والبلدات، وسيقلون خبر جيشنا الذي لم يروا مثله، وقلة منهم قد يعودون. يقع عليك الكثير يا بدر، وإني أثق بأنك ستدافع عن عين الشمس حتى نخرج مهد الخلود.

تقدم بدر متجاوزًا إياها ناظرًا إلى أسوار عين الشمس وأبراجها:

- لا تقلقي، لدينا خمسة وعشرون ألف مقاتل، وخمسة آلاف آخرون بقيادة أبي يتجهون إلى الصقارة قريبًا، وهكذا نكون ملكنا جنوب تلال الشمس.

- أخشى ألا تكفي المؤن التي قدمتم بها، إن جاء بنو الأزرق وأقاموا علينا حصارًا قويًا، ولا أدري كم سيستمر تنقيبنا.

- لدينا خط إمداد للمؤن عبر النهر. لا تقلقي، قد رتب كل شيء، ما أرجوه أن يكون الطبيب ذاكي جاهزًا في موعده.

التفتت إليه، وقالت بنبرة حزن:

- منذ أيام رأيت غيمة سوداء في السماء، وظننت أنها إشارته ولم تكن كذلك، خسرتنا أزداء مبكرًا، لو كانت لدينا لاستطعنا مهاجمة المدن والقلاع على فروع نهر التاج واسترداد أزداء.

- ما آخر أخبار المدينة؟

- أحكم بنو الأزرق قبضتهم عليها بعد رحيلنا، وأفسلوا مخطط النبي إينال. لم يأتِ السلطان وإنما أرسل نائبه، الذي قتل أبي وسياس ومرجان، وأمعن في إذلال نبينا.

قال وهو يهز رأسه:

- أذكر أن فرقة منهم تبعتنا إلى مصب النهر، واستطاعوا النيل من الحكيم مرجان وعدد كبير من المؤمنين.

- الخلود للمضحين يا بدر، وثن الإيمان واجب السداد، وها نحن أولاء نقوم بما علينا في سبيل العقيدة، وقريبًا نُكَلِّل مساعينا.

- أما زال نرغال غائبًا؟

زمت شفيتها:

- لا خبر عنه، ولم يُعَد يستجيب لندائي، لا أعلم ما حل به وكيف لروح الخالق أن تضل وتبتعد عنا هكذا.

- ربما لم يعثر على مجتبي بعد.

لوحث بيديها وهي تدعوه إلى المسير:

- لياتِ وقتما يستطيع، لن نتوقف عن تنفيذ مشيئة الخالق، وقريبًا سنحظى بمهد الخلود وسر الحياة الحقيقية.

جلس جاد على برميل قرب برج المعالجين، وحيدًا غاضبًا مهزومًا، مات رجاله، وأنقذته مخمرية حين لمحتة محاصرًا يتلقى الضربات، ظنت أنه يدافع عن موكبها ككل المريدين، ومضى اليوم سريعًا، وتبدلت حال عين الشمس. رحل الكثير من العبيد والمحكومين، وآخرون قبلوا البقاء والانضمام إلى الحكام الجدد. أنزلت آيات بني الأزرق من على الأسوار، ورفعت مكانها، وعلى الروافع العملاقة، آيات العقيدة السوداء

وحدها، أما رايات وأعلام مملكة الساحل فظلت في الخارج، حيث أقيم معسكر الجيش، ونُصبت الخيام، وبدأ الجند حفر الخنادق وإضافة المتاريس حول المدينة، ورُفعت أعمدة إيوان عظيم في الجهة الشمالية، مستقر قائد الجيوش بدر بن حمدون، الذي اكتفى بجولة داخل عين الشمس، وخرج تاركًا مخمرية تنظم كل شيء. لم يندم جاد في حياته على شيء، أكثر من تأخره في قطع رأسها! أضاع كل شيء بيديه، ويرجو أن يصل رسله إلى أزد قريبًا، لن يستطيع قتلها الآن، ولو فعل ماذا سيفيد هذا؟

كانت الاحتفالات تعم الساحات تحت الأبراج وعند البوابات، فرحين بما حصلوا عليه من فواكه وخضراوات وشراب منقوع الشعير، ولحوم ضأن وغزلان، ولم يُعد هناك أثر لبائعي لحوم الزواحف والجرذان، وأزقة المدينة وطرقاتها ساكنة تغط في الصمت. هُجرت آلاف الأكواخ إلا من الباحثين عما تركه الآخرون من أغراض. نهض جاد وأخذ يتجول بالأرجاء، وحملته قدماه إلى حافة عين الشمس، كل شيء أصابه الجمود، ربما هي المرة الأولى منذ قرون التي تتوقف فيها الروافع عن العمل. وقف ينظر إلى قاع الحفرة المشع بوهجه الذهبي الرائق، أعاد ترتيب كل ما حدث منذ البداية، وحتى اللحظة التي عزل فيها نفسه طواعية عن عالمه وكل من يعرفهم، استعاد عقله كلماتها عن العدل وأحاديثها عن السلام والمحبة، معها الكثير من الحق فيما تقول، وليس لها الحق في الغدر بنظام هو مثله. ربما ما دفعه إلى القدوم خلف مخمرية هو فضوله، أو أنه أراد أن يثبت شيئًا في نفسه، واستطاع القدوم إلى عين الشمس ورؤيتها، ما زال يذكر حوارهم مع أبيه في الليلة التي تبدلت فيها حياته، حكمته أمام السلطان هي ما دفعته إلى تلك المكانة، وهو وحده الملام على الهزيمة هنا.

- لماذا لم ترحل؟

انتفض من وقع صوت مخمرية المفاجيء، وتدارك بأسه سريعًا من دون أن تلاحظ:

- المسافة طويلة إلى مرتفعات الصقور، وأخشى أن يُقبض عليّ مرة أخرى، والأهم أنني أريد رؤية عالمك الجديد.

ابتسمت على غير عاداتها، أصبح هناك من يقتبس كلماتها. جاءت إلى جواره ورمت نظرها إلى حافة عين الشمس:

- تفتقد هدير الحياة هنا؟!

- كنت اعتدت الصخب الليلي، والآن لا شيء يعمر المكان سوى صمت مهيب، يليق بالوهج الذهبي الذي يبعث في النفس صفاءً. الجو رطب كأن الصهد كان بفعل أنفاس من عمروها.

- حُذ كفاتك من رؤيتها هادئة هكذا، من الليلة المقبلة سنعيد تشغيل الحفرة.

عقد حاجبيه، والتفت إليها مستغربًا:

- لم أفهم!

- لا تهرق بالك بالفهم، كل ما في الأمر أننا على وشك استخراج كنز عظيم من تلك النقطة في المنتصف. المُتقَّبون سينزلون إلى هناك، وكذلك نحن، وهذه المرة سنعمل ليلًا ونهارًا.

- لكن هذا مستحيل!

- لا شيء مستحيل حين يتعلق الأمر بخالقنا، من الغد سيكون هناك الكثير من الدعاة يُعلمون الناس تعاليم العقيدة الصحيحة، لتشرق القلوب بضياء الخالق.

- حسبت أنكم ستزحفون إلى آزاد.

- من قال هذا؟

- سمعت بعض الناس يتحدثون، والجميع يعلم أن بني الأزرق مرابطون هناك.

- لا ينبغي الحرب ولن نذهب إليها، بل ستأتي هي إلينا، وحتى هذا الحين، لن ندخر قوة داخل عين الشمس. قل لي، لماذا هاجمت الجموع اليوم؟!

شعر بوخزة لؤم من سؤالها، ويبدو أنها تعرف شيئاً. ردَّ بهدوء وصفاء ذهن:

- كانوا يقصدون إيداعك، أظنهم من رؤساء العقَّال وتجار العبيد، هؤلاء الموالين لبني الأزرق.

أومأت برأسها وبالكاد ابتسمت:

- أريدك على مقربة مني منذ الصباح، ستنضم إلى حرسِي الخاص، وأثق بأنك سيَّاف بارع.

رمت كلماتها المسمومة ورحلت، تركته يغرق في مستنقع الريبة. هل تعرف من هو وتلاعبه أم أنها بدأت تثق به أخيراً؟! رفع رأسه إلى السماء، وقلَّب وجهه فيها. كم يشتاق إلى رؤية زرقة ليلها ونجومها البراقة، وليس هذا الوهج الأصفر الذي يخنقه! غادر المكان إلى برج المعالجين، حيث يبني ليلته الأولى من دون رفاقه من فيلق العقبان، الذين ماتوا جميعاً ولم يبقَ سواه.

في اليوم التالي كان بين ظهور حرسها الخاص، رُحِب به، ومُنح زياً كتانياً أسود، وسيِّفاً، ودرعاً عليها نجمة بيضاء. وجد مكانه ضمن سبعة آخرين اختارهم بعناية، وجلهم كانوا معها منذ أن قدمت من آزاد، وحده المنضم حديثاً إلى صفوف نخبتها. قضى يومه الأول واقفاً على باب غرفتها رفقة أحدهم، وفي المساء خرج معها إلى إيوان بدر بن حمدون، حيث اجتمعوا لساعات، بينما ظل في الخارج بصحبة زملاء سلاحه الجدد، كان يعلم أنه تحت أعينهم ويراقبونه أينما تحرك، لذا أظهر لهم وداعته، وحرصه على النظام، وضبط الأمن، أخفى حزنه وغضبه، ولم يحاول التلصص واستراق السمع وإن كان قريباً.

وفي غضون أيام رأى ثمرة اجتماعاتها وحكيم العرش؛ أزيلت البوابة الجنوبية، ونقضت حجارة أبراجها وأسوارها، وهدمت أكواخ عدة لشق طريق عريض، وما لبث أن ضج بأصوات العمَّال وآلاتهم، وبنيت قواعد من الحجر لروافع جديدة، لم تكن بعلو مثلتها القائمة منذ زمن بني شمس ولا الشكل نفسه، وبدا كأنهم يصنعون قنطرة لتمر فوق الفوهة. ونُظمت فرق النجارة والحدادة والحفارة، ووزعت حصص من طعام حقيقي وخضر، وفاحت القدور برائحة المرق واللحم. الجميع يعمل بهمة وسعادة، لا يعلم إن كان السبب هو تحسين واقع السخرة، أم الإيثار الذي تغلغل في قلوبهم بفعل الدعاة الذين نثرتهم مخمرية في الأرجاء!

لم يتعجب من بقاء المنقَّبين، ولم يرحل أحد منهم يوم فُتحت البوابات، أناس عُرضت عليهم الحرية ورؤية عالم حرّموا منه، وفضَّلوا البقاء لخدمة روح الحكمة. شاهد جاد ما يحدث حوله ببلاد ظاهرة، وإن كان جوفه يغلي، تُحمّل إلى حافة عين الشمس تروس ضخمة وحبال قوية عليها أثر الملح والأصداف، وعربات

تجرها البغال والثيران تحمل عوارض خشبية، بدا كأنهم بينون مدينة جديدة، وما زاد حيرته هو تلك السرية التي تفرضها مخمرية على مخططاتها، تصدر الأوامر من لسانها أو بقول من بدر بن حمدون، وبطاعة عمياء ينفذ أتباعها ما يُملى عليهم.

لأيام رافقها جاد في كل أرجاء عين الشمس ومعسكر الجيش، يراقب بصمت ما حوله، ويتبين نقاط الضعف، تحين لحظة مناسبة لقتلها ولا يحظى بها، لا يدري أجبنُ أصابه أم أن لطفها ورقتها معه جعلاه يفكر مائة مرة! نظراتها تحمل معاني عدة ويجهلها كلها، كثيرًا ما كانت تتبادل معه أطراف الحديث، لكنها لم تأتِ قَطُّ على ذكر شيء مما تحطط له، لم تتخلَّ عن حذرهما، ولا تستطيع كسر جدار وقارهما، حتى وإن كان حارسها الشاب يعجبها، لم تفصح لنفسها بما يراود قلبها من مشاعر كلما رآته، وسيم كامل الرجولة، وإن كان صغير السن، يروق لها، وما يمنعها عنه إلا نبل غايتها. عليها الآن أن تصب جام تركيزها على ما تريد فعله وإنجازها. تحلم ببناء مملكة الخالق، وبسط ملكه وعدله، أن تكون عين الشمس عاصمة النور ونبع الخير للراجين العفو والخلص.

ومع انقطاع أخبار نرغال عنها، اتفقت أن تحكم هي وبدر بوصفهما ملكين، لها الكهانة وأمر الديانة، وله السياسة والحرب. أحب كلاهما حياته الجديدة والصورة التي أضحى عليها، ولن يوقفهما أحد عن مبتغاهما المجيد. الأمر ما زال في بدايته، وحتى تحين لحظة النزال الحقيقي، على الجميع أن يعملوا بإخلاص لينالوا ما وعدهم به الخالق، ولذلك دفع بدر بن حمدون بقطاع كبير من جيشه لبناء الروافع الجديدة. وفي المساء وبينما انشغل العمال في نصب السقالات وشد حبال الروافع على وهج عين الشمس الذهبي الناعم، كانت مخمرية تقف إلى جوار بدر فوق أعلى روافع الفوهة، يشاهدان مجريات العمل في قلب الحفرة، ومن حولها المدينة الجديدة الآخذة في النمو، وخارج أسوارها خيام جيش رابض كحلقة منيعة تفصلهم عن التلال. قالت وهي تشير إلى الأشغال أسفل منها:

- الليلة يكتمل بناء الرافعة الجديدة، لم أصدق أن ينتهي تركيبها في هذا الوقت القصير!

ردَّ بدر بن حمدون بتفاخر:

- إنها تصميم فريد من مهندسي الساحل، ستختصر علينا وقتًا وجهدًا.

- الآن لا ينقصنا إلا أن يفى الطبيب ذاك بنصيبه من الخطة، وأخشى أن يجبن.

عقد حاجبيه، وقال بنبرته المتينة:

- هل نحن بحاجة حقًا إلى أن يذبح كل من ذهبوا معه؟! أقصد أنني حصلت على جيشي من دون أن أريق قطرة دم واحدة، لم أكن بحاجة إلى ارتكاب مجزرة في سبيل أن يؤمن قومي. لدينا ما يكفي من الجيش ليصد أي هجوم، ولديك كل الوقت لتُثَقِّي عن مهد الخلود، وأرجو أن يفعل الطبيب ذاك الصواب كما يراه وكما فعلنا.

رتمه بظرفها وبدا عليها الضيق، كأن كلماته لم تعجبها. قالت بعد أن تنهدت:

- الالتزام بالتضحيات أسمى درجات الإيمان، وهناك دومًا مقابل لما تعتقد، والثمن بخس أمام ما ينتظرنا من مجد وعلو، وأرجو أن يتقبل الخالق دماء أبناء كبدي وعيال المؤمنين كقربان إخلاص نيتنا. سنبدأ الحفر بمناوبات عمل ليلية حتى تحل الغيوم فوق عين الشمس، كما أخبرنا النبي إنيال.

- تُرى ما الذي حاق به هو الآخر؟ كنت أتمنى أن نجتمع كلنا هنا.

- نعلم أننا مسيرونا لخدمة الخالق، ولأجل ما وعدنا به علينا العمل ليلاً ونهاراً حتى نخرج مهد الخلود، وحينها ستكون لدينا القوة والقدرة على هدم العالم، وإعادة بناء عالم جديد، شعب واحد وإله واحد، خالق الضياء ورب الحكماء السبعة، الذي كلفنا بمحو الوثنية والشرائع الباطلة، وفرض العدل على الجميع.

- سنفعل يا مخمرية، ولن تضعي تضحيات إنبال وجبران وسياس ومرجان وذاكي الذي لا نعرف ما أصابه! لم يبق سوانا، ولدنا ما يكفي لنخوض حروبنا حتى النصر، وتحقيق مملكة الخالق على أرضه.

مع قدوم الفجر دخل إلى أزدان رجلان، عرفنا نفسيهما للحرس وطلبا لقاء قائد الجيش. أجلسا قرب الإيوان المنصوب بساحة المدينة، ولم يكادا ينهيان الطعام والشراب المقدمين لهما، حتى أُذن لهما بالدخول على قائد الجيش ساري الماجوني أمير أوريجا. النعاس ما زال يربط على قسما وجبهة، وأمامه رجلان نحيلان عليهما ثياب بالية، تأكد رجاله أنها فارسان حقيقيان كما يدعيان، والآن الأمر متروك له، رماهما بنظرة متفحصة قبل أن يسألها:

- قيل لي إنكما مبعوثان من الأمير جاد الصغير، وجمنا بخبر سقوط عين الشمس بيد أعدائنا؟!

نطق أحدهما:

- نعم سيدي، خسرتنا عين الشمس، واستطعنا الخروج حين فُتحت البوابات، وأطلق سراح العبيد والأسرى. سابقنا الزمن لنأتي ونخبركم، وربما قبيل الظهيرة تظهر أعداد من الفارين في سهل نهر التاج وحول أزدان.

- مهلاً، أريدكما أن تقصا عليّ كل شيء من البداية وحتى ووقوفكما هنا.

راح الرجلان يتناوبان حكاية ما حدث، كيف أصبحوا على جيش لا حصر لتعداده، يحاصر عين الشمس من كل جانب، رافعين رايات مملكة الساحل إلى جانب رايات مدعي النبوة، التي كانت سبباً أو إشارة ليثور العبيد بتحريض من مخمرية، وكان معها فارس ثالث فقدها خلال تدافع الهاربين، سقط ودهسته الأقدام الراجية في الفرار، ولا يعلمان مصير الأمير جاد الصغير ورفاقها من فيلق العقبان، لم ينظرا وراءهما، ولم يتوقفا خلال طريقهما. يأملان في أن يتحرك الجيش من فوره إلى عين الشمس، لكن الماجوني صرفهما إلى الراحة، وأخذ قسطاً من النوم، وطلب من الحاجب أن يدعو القائد نورين، وحكمدار المدينة الجديد، ودويدار المؤن للاجتماع، وأعطى أوامره بأن تغلق أبواب المدينة، وتتأهب القوات. لم يشغل عقله بخبر جاد الصغير، فجميعهم يدفعون ثمن اندفاعه، لم يكن على الأمير اليافع أن يذهب وراء شغفه، الحرب ليست نزهة، والمخطط أكبر مما كان يظن ذلك الغر. فوق سد أزدان الشمالي اجتمع الماجوني بمساعديه ومستشاريه، تعجبوا من مكان تجمعهم هذه المرة، ووقفوا جميعاً من دون حرس حيث لا يسمعون أحد، وأفضى إليهم الماجوني بكل شيء، وأخذتهم الصدمة مما ذكر. لم يقاطعه أحد وهو يشرح خطته ووضعهم:

- أرسلت البصّاصين وجياد البرق لرصد كل شيء، وكذلك سرايا من الجند والفرسان ليؤمّنوا البلدات والقرى القريبة منا، ترك الأمير جاد الجيش تحت قيادتي، وسأتعامل كما يحتم عليّ الموقف، وبلغنا منذ شهر أن السلطان الأشرف غازي نزل بقلعة النار، وأنه سيذهب إلى الجبل الأزرق، ويعبر من هناك مخاضة نهر التاج. لن أستطيع المجازفة من دون دعم، سننتظر وصوله، وحينها يكون الأمر بين يديه.

قال نورين بفضاظته المعهودة:

- هل نبقى هنا كالجرذان المدعورة، بينما يرتع الأوغاد من الساحل في أرضنا؟! أنت تتخلى عن الأمير جاد يا ماجوني.

- لن أضحى بعشرة آلاف مقاتل في سبيل نجدة شخص وضعنا في هذا المأزق. لو كان قتلها من دون سفسطة واتخاذ خطط بديلة لم يرتب لها! إن لم يمُت فسيعود بالتأكيد، وإن لم يقتلها لا أدري حينها بأي وجه سيقابلنا، وكيف سنتقبل فشله وتسببه في خسارة عين الشمس! إن عدونا أطلق علينا موجة من آلاف من العبيد والصعاليك، وما هي إلا أيام وسيداهمون المدن والقرى، ينهبون وبيطشون ويثيرون الفوضى. تحصين بلدات وقرى نهر التاج هو أولويتنا حتى يأتي جيش السلطان.

هبت ريح باردة، وسادهم الصمت بعض الوقت قبل أن يرد نورين:

- أنت تعاندا يا ماجوني.

- بل أفعل الصواب، على أقل تقدير جيش الساحل يتجاوز العشرين لآفاً، هذا غير من انضم إليهم من العبيد. هنا سنصمد ونستطيع أن نكبدهم خسائر فادحة إن قرروا الهجوم.

تدخل حكمدار أزداد:

- لا يقصد السيد نورين شيئاً.

ردَّ الماجوني باقتضاب:

- أمامنا الكثير لنفعله هنا. قيل أن نفكر في التحرك إلى عين الشمس، نورين ستذهب على رأس قوة من ألقى رجل إلى الشرق لتأمين المصب وخليج القراصنة، خشية قدوم سفن أعدائنا من الساحل، سمعت أن لديهم حيتاناً تجر سفنهم، قد يباغتوننا بينما ننظر نحن في الاتجاه الآخر.

بدا الغضب على وجه نورين، وتدخل دويدار المؤمن:

- أوافق رأي الأمير ساري الماجوني.

انتفخت أوداج أمير أوريجيا، وأوماً برأسه إلى الرجل، ثم أخذ يحدثهم عن ضرورة الحذر وعدم الوثوق بأي شخص، لا أحد يعلم القادم وماذا يجيء ذلك النبي من مفاجآت. ستغلق بوابات المدينة، وتفتح بمواعيد ثابتة، وكذلك سيتم التحقق من الوافدين من تجار ومسافرين، وعلى سكان المدينة تحمُّل الوضع الصعب، سيفرض حظر التجوال من المغيب إلى الفجر، وتسيير عمل الميناء وفق تفتيش صارم ومراقبة كل شاردة، هم خط الدفاع الأول عن الشمال، وعليهم أن يصمدوا حتى يأتيهم جيش السلطان. في تلك الأثناء، وعلى مسافة مئات الأميال غرباً، كان هناك جيش آخر لا يعرف عنه الماجوني وبنو الأزرق شيئاً، يسير بمحاذاة خندق السراب على مهل من دون أن يثير الغبار.

مسحت سحابة رقيقة وجه بدرٍ فضي، ينير درب جيش يرتحل ببطء ونظام، يثير الرهبة والفرع بهيئة محاربيه واختلاف دروعهم وعتادهم، سبعة آلاف أو يزيدون إن حسبت الثيران عظيمة الخلفة، والقردة المقاتلة، والذئب الرهيب الذي يتقدم المعارك إن وجدت، ولا أحد يعلم ما في رأس دهب، إلا أنه راضٍ وكذلك أبوه الدرويش، الذي يضع الخطط ويرتب المفارز والكتائب، وقادهم مسيطراً على بلدات وقرى على طول خط المسير. أصبح صاحب الذئب يشكّل مع تيانا ثنائياً باهراً يخطف الأنظار، وتسبقهما أسطورة تزداد تفاصيلها بقدر مسافة نقلها. أحبه المحاربون، وأجلّه زعماء القبائل. تسلّم راية الجيش من كتيبي الذي يثق به، وعلى الرغم من كل هذا، فإنه ما زال يخشى أن يضيع هو ومن معه، يصارع الأصوات بداخله، ويفرض في النهاية واقعه، لا يقوى على أن يخذلهم، ويفعل كل ما بوسعه لتحقيق النصر واستعادة الأسرى. يسير على الخطة الكبرى التي وضعها شاهين، ولكن وفق تعديله ورؤيته، وما زال الأخير غائباً، مضى أكثر من شهر منذ أن راسلهم، حثهم على التحرك إلى الضفة الغربية للنهر الكبير، وأن يتركوا حامية في الحصن لتساعد أمينة وأهل الكفر النازحين، على أن يقابلهم على طريق العرش، أو من يصل أولاً يقيم الحصار على حصن مخلب العقاب.

فضّل الدرويش أن يعسكر وجيشه على ربوة عالية، يكسوها دغل من أشجار سرو وصنوبر معمرة، موقع قريب من حافة النهر يسهل حراسته وإخفاء جيشه، فما زال أمامهم مسير نهار ليصلوا إلى غايتهم، وفكر في البقاء هنا يومين إضافيين، وأن يجعل موقعه هذا معسكراً ثابتاً يحمي الضفة النهر الغربية، ويؤمن ظهورهم في حال حدوث طارئ. والحقيقة أن الزعيمة تيانا هي من اقترحت الأمر، وبدلاً من الراحة أمرت قواتها، فأخذوا يقطعون الأشجار في دائرة واسعة، وبدأت أولى مراحل بناء حصن الأوتاد أو كما تُسمّيه هي «قلعة الذئب»، وعلى صوت ضربات الفؤوس انضم الكثيرون إلى حفر الخنادق، والبقية شرعوا في نصب الخيام وإراحة الدواب.

وتحت شجرة مائلة قرب حافة النهر نصب سلام خيمة مبيته، وابتعد عن مضارب الجيش وصنخب جنونهم الليلي. البلهاء يقطعون الأشجار، ويشيرون ضجيجاً يُسمع على بعد أميال، لم يشاركهم في شيء، واكتفى بالبحث عن قليل من الراحة. أزال السرج عن ظهر جواده وتركه يرعى. خلع حذاءه، ومشى على الشرى الرطب، نزل إلى مياه بلغت نصف قصبة ساقه، وفوق الحصى حرك أصابعه منتعشاً ببرودتها، وضوء القمر يترقق مع الموج الناعم، انحنى وغسل وجهه وشعره، خلع قميصه وهو يتذكر يوم ذهب رفقة بياض وسعد إلى كفر البردقوش، لم يصاحب بعدهما ولا قبلهما، بات يفضل العزلة وهو الذي عاش عمره في الحانات وقاعات الغناء، صار عالماً الآن مع جيش هجين من مقاتلي غابة الظلال ذوي الدروع الغربية من جلود الحيوانات وجماجمها، وآخرين شبه عراة يحملون أقواساً طويلة وجعاب سهام طويلة، وثيران لا مثيل لها في كل أرض تلال الشمس، ومن يشبهونه قلة لا تكاد تُلحظ من رجال كفر البردقوش، البقية فضّلوا

البقاء وإعمار الأطلال، بينما هجرهم شاهين وذهب إلى البوغاز رفقة زوجته، ولا يستطيع سلام الوثوق بهذا الرجل، الذي رمى بهم إلى دائرة مفرغة من مداممة قرى وبلدات فقيرة على امتداد خندق السراب، وأين الحكمدار؟! لا أحد يعلم.

أوقد نيران خيمته، وأخذ يرتب مضجعه وجعبة سهامه، شد وتر قوسه مرارًا قبل أن يضعه جانبًا، وراح يتأمل القمر المتوهج في السماء، كم من أغنيات كان يحفظها عن البدر وضيائه الفضي، هل نسي الكلمات أم نسي من هو؟! وضع أرنبًا مسلوخًا على عصا فوقها، وجلس مسندًا ظهره إلى جذع الشجرة، حاول أن يندن أغنية لا يذكر إلا لحنها. حتى الكلمات خانت الذاكرة، كأن كل شيء يعانده للعودة لما كان عليه، المغني السكير أصبح محاربًا متمردًا على بني الأزرق! وفي خضم سكون الليل الذي لا يؤرقه سوى الخريز، لمح ذهب يقف على حافة النهر ويشرب، تذكر تلك القصة الواهية التي حكاها سعد عن قطع الذئاب، كان البرغوث مخطئًا بقدر ما هو كاذب، لم يكن هناك سوى ذئب وحيد، رفع رأسه، وانتصبت أذناه، وبقي جامدًا يحدق إلى الضفة الأخرى، بدا كأنه يرى شيئًا، ويتربص بتحركاته، وألقى هو الآخر بصره في الجهة نفسها، ولا شيء سوى عتمة ظلال تقاوم ضياء البدر، ونقيق ضفدع بعيد يجاري الخريز، ولا شيء آخر يعكر الصمت إلا الخوف في قلب سلام.

في الصباح خرج عليهم كتيبي في درع حربه، ووجه ملطخ بطلاء أبيض وأحمر، وأعلن أن نصف الجيش سيبقى مع تيانا، ليكملوا بناء المعسكر، والنصف الآخر سيذهب رفقة لحصار حصن مخلب العقاب، حصن عتيق يعمل قنطرة عبور بين ضفتي النهر، حالما يسقط في أيديهم يصبح الغرب كله تحت سيطرتهم، لن يبقى وراءهم سوى البوغاز الخائفة من أخبار اجتياحهم العظيم. امتطى جواده الملطخ بطلاء أبيض ومن دون سرج، وجال رافعًا رمحه أمام الجموع يحثهم على التقدم، ويشير الحماسة في نفوسهم بما حققوه من انتصارات، وعلى مدى شهر ونصف الشهر حظي بلحظات مجد صغيرة تقربه من تحقيق مراده، سيذكره التاريخ كأول ملك لغابة الظلال يغزو شمال بحر الرمال. بات أسطورة حية، ويلتف حوله المؤمنون بنبوءة الحوريات، بداخلهم يقين راسخ أنه المعني بقتل سيد النار، وأمدهت أخته كونوا بأربعة آلاف مقاتل استطاعت جمعهم من قبائل غابة الظلال، وهذا بعد بلوغهم خبر استعادة رمح الأجداد المقدس، وهو ما جعل بنيان جيشه يزداد متانة وقوة، يتمنى لو ترى سيرين حاله الآن، والأهم أن تكون هي بخير حال، منذ أن عرف بحملها وهو لا يتوقف عن التفكير في ابنه أو ابنته. يخشى أن يصيبه وأمّه أي مكروه، ولا يدري ما عليه أن يُسمّيه، ويرجو أن تُكَلِّم مساعيه لتحريرهما بالنجاح. يدرك قوة السلاح الذي بين يديه، ويستشعر نبضات خافضة تسري بمتنه، وشيء ينبئه بأن هذا الشيء يقوده إلى مصير محتوم.

تحركوا وفق ما أمر به كتيبي الذي أراد التعجيل ومباغطة عدوهم، خرجوا من الغابة الكثيفة يتقدمهم الكشافة، هبطوا إلى سهل عاشب منبسط يجاذي النهر، أربعة آلاف رجل، ربعهم من الخيالة وجند وقردة، يتقدمهم الدرويش وسلام وقادة الألوية حاملو رايات الظلال، ووراء قمم أشجار غابة أخرى، في الأفق يرتفع البناء الحجري العجيب. افترق عنهم ذهب مع اقترابهم من الأشجار، وأخذ يتجول على شاطئ النهر،

يلتقط رائحة ما ويتبعها كعادته، ولكن هذه المرة كان يستشعر خطرًا، والدرويش يعلم ملامح ذئبه، انسل من موقعه، وتبع خطاه باحثًا عنه، وانضم إليه سلام قائلاً:

- يا أبا الذهب مهلاً، أريد سؤالك عن شيء.

التفت إليه وهو يرخي لجام جواده قليلاً:

- ستل.

لحق به سلام، ولما صار إلى جواره سأله:

- هل تظن أن شاهين الشمسي سيفي بوعده وبأني؟

- الرجل أرسل إلينا أكثر من عشر عربات مملئة بالمؤن وكل ما يتطلب الحصن والجيش من تجهيزات الحرب، لا تقلق يا سلام، تبدل شاهين عن الحكمدار الذي كنت تعرفه، وخطته كانت معقولة، ولا تنسَ أني وضعت الكثير من التعديلات عليها، وانظر ماذا نملك الآن، لدينا تحصينات وقوات تسيطر على البلدات بطول خندق السراب.

- لكننا بحاجة إلى فرسان حقيقيين، لعلنا كما تقول نملك بلدات وقرى، لكن لم تكن هناك معارك حقيقية، وأخشى أن يميل السلطان وجيشه علينا فيمحوا أي أثر لنا.

- وهل سيمنع شاهين حدوث هذا إن جاء؟ اسمع يا سلام ما نفعله هو الصواب، وأقدر ما حل بحياتك من تغيير، لكننا جميعًا مثلك، تقلبت بنا دروب الحياة، التي فرضت علينا واقعًا ووقائع ثقيلة على قلوبنا، وبالكاد نجونا على الرغم من الكدر والهموم والأحزان التي تكالبت علينا. أتعرف ما الفارق بيننا وبين غازي؟! إنه جبان لديه الكثير ليخسره، وهو لا شيء من دون أصحابه، سيكون أكثر دعرًا من هرة سقطت في بئر، أما نحن فما يجمعنا أكثر مما يفرقنا.

- يقولون إن جيشه يتجاوز الخمسين ألفًا، وإنه اعتاد مصارعة نمور الثلوج بيديه العاريتين.

- ليقولوا عنه ما يشاءون، إنه في النهاية مجرد رجل، خائن غدر بذويه من أجل المُلك.

قال سلام بنبرة تهكم جلية:

- يبدو أنك تعرف الكثير عن غازي ابن الأزرق.

كاد الدرويش يقول شيئًا، لولا أن سمعا صراخًا وجلبة خلف آجام قريية، حثا جواديهما للمضي إلى مصدر الصوت، ومع اقترابهما سمعا زجرة ذهب، ورأياه يقبض على ساق رجل يولول رعبًا، بينما الضاري يمرغه في الوحل، وعلى مقربة رجل آخر هرع مهاجمًا بسيفه مستهدفًا الذئب، فما كان من سلام إلا أن سحب سهمًا من جعبته ورفع قوسه في سرعة ورمي، أصاب يد المهاجم ليستقط سلاحه ويخر صارخًا، بينما كان الدرويش يحملق إلى ثلاثة رجال آخرين، يقفون على مقربة منهم فوق صخور مخاضة النهر، وتوقف الزمان... عشر سنوات لم تكن كافية لتمحو صورته من الذاكرة، وللزمن تصاريفه العجيبة، ما زال يهدي إليه رؤوس الخونة تبعًا. في البدء وجد جثة راجي في الصحراء، وبعدها مزقت القردة سليمان ناب أمام عينيه، والآن كبيرهم الذي علمهم الغدر يقف أمامه الآن.

لم يكن الحظ حليف هارون منذ أن ترك نرديه وراءه في وادي الهلاك، لم يغادر إلى الصقارة بل إلى طريق قاسم أصلان، الذي أقتعه ونيار بضرورة الذهاب معه إلى عش العُقاب، وذلك بعد أن قصَّ عليه كل ما حدث وما كان من أمر اللفائف والرؤى، ووعدهما بتمويل رحلاتهما ودعمهما بالرجال والعتاد، وأيُّ وعد

هذا الذي سيتحقق أمام أنياب ومخالب ذئب رهيب لم يروا مثل ضخامته من قبل! وقع الصدمة عليهم كان عظيمًا إلى جانب جريحين، ألقوا الأسلحة وأحد أسرهم يأمرهم أن يرقدوا على بطونهم أرضًا، وتراجع الذئب لاعتقًا الدماء على فمه، مُنصاعًا لأمر الأصلع راكب الجواد الأحمر، رجل طويل كث اللحية حاد البصر لم يرفع نظره عنهم، وقاسم أصلان يقول بصوته الأَجش:

- أنتما ترتكبان خطأ فادخًا بفعلكما هذا.

دفعه سلام ليجبره على الانبطاح أرضًا:

- اصمت، وإلا جعلناكم غداءً للذئب.

وأخذ في إحكام وثاقهم جميعًا حتى الجريحين، وبعدها عاد إلى الدرويش، ومال إليه هامسًا بشيء، اكتفى بإيحاء ولم تبدل ملامحه الباردة، كانا يعلمان بهوية الرجل. رآه سلام حين زار الكفر، وكذلك خرج تحت رايته إلى بحر الرمال، أما الدرويش فيعرف جيدًا مَنْ هو، لم ينطق بكلمة وإنما سحبهم إلى طريق العودة للجيش، تعكز مصاب الساق على جريح اليد والذئب يحوم حولهم. ومع خروجهم من بين الأشجار، وجد الأسرى الخمسة جيشًا كبيرًا من البرابرة، دروعهم مكسوة بجلود الحيوانات والزواحف، يعتمدون خوذات من جماجم وريش وقرون، وتسير بينهم قردة بابون تشتهي تقطيعهم. تبادلوا النظرات، وبداخلهم تردد سؤال لا إجابة عنه، ما الذي يفعله هؤلاء هنا شمال خندق السراب؟!

مع المغيب وعلى مشارف حصن مخلب العقاب، توقف الجيش، وبدأ في إقامة حصاره وربط الأسرى الخمسة إلى الأشجار، والذئب وحده مَنْ بقي لحراستهم، وغاب آسراهم بين الجموع، وبعد مدة من الوقت جاء أحد المعالجين، وأخذ يقطب جراح الأسيرين، ولما فرغ ورحل عن المكان، قال العنبري محدثًا قاسم أصلان:

- مَنْ هؤلاء القوم؟ ولماذا لا يتحدثون معنا؟

دار المقاتل العتيد بعينه في المكان وهو يقول:

- إنهم من غابة الظلال، يبدو أن سليمان ناب وسعد فشلا في هزيمتهم. لم أظن أن لديهم القدرة على التوغل إلى هذه البقعة من أراضينا. أيُّ هوان وبلاء نزل على مملكتنا؟! أخشى أن تكون البوغاز سقطت في أيديهم. ما الذي حل في مملكتنا؟

قال هارون، وعينه لا تفارقان الذئب الجالس قبالتهم:

- أراهن أن ذلك الشيء يفهم ما تقولون.

صمتوا بعض الوقت، وخاض كلٌّ منهم حوارًا صامتًا مع نفسه، وما لبث أن نطق قاسم أصلان:

- سيأتي أحد منهم ليتفاوض معنا، ولو أرادوا قتلنا لفعلوا منذ اللحظة الأولى، لا تخبراهم بهويتكما، ولا أي شيء عن تلك الحكايات التي تنقبان وراءها، ودعًا الأمر لي.

غمغم نيار بحسرة:

- أخشى أن يتلفوا أغراضي وحقيقتي، وأن تُترك الرهوانة وسط فحولهم هجينة الدماء. اللعنة يا رجل، انظر إلى نساءهم المحاربات إنهن بضخامة سكان جبال الدب!

أخذهم الحديث، وحل الليل سريعاً وأوقدت المشاعل، ومن مربطهم شاهدوا خروج فرق الجيش للمناوشة تحت أسوار الحصن، وبينما كان أسد بني الأزرق يفكر في وسيلة لل فكاك، نهض الذئب ورفض فروه وتقدم ناحيتهم، أخذ يشم الأرض بالقرب من كل واحد منهم، حتى استقر أمام وجه العجوز، ورفع رأسه تجاهه، وأذناه منتصبان، كشر مبرراً أنيابه وحمرة عينيه تتأجج، زجر كأنه يقول: «إياك أن تمضي فيما تفكر!»، ولعل هارون النردي كان محقاً، والذئب يعلم ما بدواخلهم، استدار تاركاً إياهم، وشق طريقه بين الخيام، وبعد ساعات سمعوا ضحكات الجند العائدين من المعركة، محاطين بصيحات فرح.

احتفل رجال كتيبي بمباغتتهم للعدو، اعتاد فعل هذا في الليلة الأولى لأي حصار يخوضه، يربكهم ويكشف نقاط ضعفهم، والأهم من ذلك يثير الخوف فيهم، وقردة البابون سلاحه المفضل لفعل ذلك، تتسلق الأسوار ولا يقف أمامها عائق، مزودة بدروع خفيفة وخوذات من ريش تجعلها أكثر رعباً. قاتلوا بشراسة وألقوا الجند من فوق الأسوار، وما لبثوا أن عادوا ومعهم كل رايات بني الأزرق، التي لم يبقَ منها شيء على الأسوار والأبراج، وكذلك غنموا بضع دروع وخوذات من ضحاياهم، بينما أغارت فرقة ثانية من المقاتلين على القنطرة الخشبية من الماء، سبحوا تحتها وتعلقوا بقواعدها، وحاولوا فصل الجسر عن الحصن، ولكن جند الحامية استطاعوا إرغامهم على التقهقر، والقفز في الماء كان السبيل الوحيد للنجاة، أما الفرقة الثالثة فاستطاعت السيطرة على البرج الأصغر على الضفة الشرقية، وبذلك أحكم سيد الرمح الفضي حصاره وأتمه.

عمت الفرحة أرجاء المعسكر، وأمر كتيبي بتسيير دوريات في الأرجاء، وكذلك إعلام القائدة تيانا وبقية الجيش بما حققوه. وفي خيمة القيادة اجتمع بالدرويش وسلام طويلاً، تناولوا العشاء معاً، وتشاوروا في أمر الحصار، وأخبر الدرويش وسلام كتيبي بحقيقة أسيرهم الثمين، فاكتفى بالإنصات حتى انتهيا من حكايتهما، وبعدها نهض واعتمر تاج الأنياب خاصته، وحمل رمحه قائلاً:

- اتبعاني.

في زمرة من رجاله جاء ملك جيش البرابرة، محاطاً بصفين من حملة المشاعل، تعجبوا من هيئته بتاجه المصنوع من العظام والأنياب، وقناع الطلاء الأبيض والأحمر على وجهه زاده غرابة، ولكن ما أخذ عيني هارون النردي وجعل قلبه ينتفض، كان الرمح الذي يحملة وهو يتقدم نحوهم. استقر به المقام أمام قاسم أصلان، وأخذ يتفحص ملامحه على ضوء المشاعل، قائلاً بلهجة ركيكة:

- أنت من يطلقون عليه الأسد الأزرق؟

ردَّ الأشيب بفخر:

- شهرتي تسبقني دوماً، نعم هو أنا، قاسم أصلان، الوزير الأعظم لسultan بني الأزرق.

- بل أنت لا شيء، مجرد أسير لديّ، أنا ملك غابة الطلال وحارس الرمح الفضي.

ابتسم نيار العنبري، وتبادل النظرات مع هارون النردي، وكتيبي يتابع:

- أنت من منحت الإذن لرجالك بغزونا وإحراق التل الدموي، داهتمت بلداتنا وقرانا وسفكتم دماء الأبرياء من دون رحمة. قتلتم الرجال والعجائز وسبيتم النساء والأطفال، ونزل الخراب على كل بقعة مررتم بها. ارتكب رجالك فظائع، وأحرقوا حياتنا وهم يقهقهون جاملين رايتك. تحدثني نفسي بقتلك الآن، وما يمنعي عنك إلا أن زوجتي وأهلي لدى سلطانك، وأرجو أن تكون أنت ذا قيمة بين أهلك.

ردَّ قاسم أصلان باقتضاب:

- دوّمًا هناك خسائر في الحروب، ولكن يمكننا عقد اتفاق والتوصل إلى ترضية مناسبة.

- سنرى ذلك، ولكن لديّ قلعة صغيرة أنزلت عنها رايات قومك، وأنوي في الصباح رفع خاصتي فوقها. لا تفكروا في الهرب، وحوشي المفترسة جائعة، وتحيط بكم وهي صيادة ماهرة، وسبق لها أن تذوقت رَجُلَك، سليمان.

ألقي كتيبي كلماته، ورحل عن المكان رفقة أعوانه، وتركهم عالقين في وحل الاحتمالات. أخذ قاسم أصلان يستعيد كلماته، مات سليمان ناب وفق كلام الرجل، وما زالت أجزاء كثيرة من القصة غائبة. على كل، أبدى المحارب البربري استعدادة للتفاوض، وهذا شيء جيد. انتشله من غابات أفكاره صوت نيار العنبري الذي قال محدثًا هارون:

- هل هذا هو الرمح الأسطوري الذي كانت تملكه الحوريات؟!

- هو كذلك.

- لكنه لا يضيء كما قلت إنك رأيتَه في أحلامك، لعله نسخة مقلدة.

- لم أذكر أنه يضيء.

صاح فيهما قاسم أصلان بغلظة:

- توقفا عن الثرثرة، أظن أنكما إن تحدثتما عن تلك الخرافات سيصدقكما الرجل؟

في تلك اللحظة أدرك هارون النردي أن الشيء الوحيد الذي يأبه به قاسم أصلان، هو نفسه وليس كما ظنًا حين أخبرهما بتصديقه لما قَصَّأ عليه. أثر الصمت وهو يفكر في كيفية الخروج من هذا المأزق، فالرجل قد يضحى بهما في أي لحظة.

في تلك الأثناء كان الدرويش يدخل خيمته، خلع حذاءه واستلقى وهو ينفض عن رأسه أصوات الانتقام بداخله، لم يستطع أن يواجه قاسم أصلان بحقيقته، ولا يستطيع قتله وإلا هُشمت آمال التفاوض، التي ارتفعت مع أسر الأسد العجوز. تهاوت أفكاره وخيالاته حين دخل سلام الخيمة، وألقى حقيبتين جلديتين وفأسًا كبيرة في الزاوية، وأخذ يفك أحزمة درعه قائلاً باقتضاب:

- بنوي كتيبي مهاجمة الحصن في الصباح، ألا تقنعه بأن ينتظر المدد من تيانا أو أن يأتي شاهين؟!

- إنه متهور، لكن يعرف كيف يقود، سيسقط الحصن بالقتال أو بغيره، لا تقلق. قُل لي، هل هذه أغراض الأسرى؟

- نعم، أودعت جواديهما في المربط.

استلقى سلام، ونهض الدرويش، وأخذ يعبث بالحقيبتين، إحداهما من جلد الحوت المدبوغ، مرت سنون منذ أن رأى واحدة، مرتبة تحوي لفائف وبلورة للرؤية عبر المسافات البعيدة، وعلبة تحوي قوارير صغيرة بها أنواع مختلفة من ترياق السموم، وخرائط كثيرة. والأخرى من جلد الماعز، بسيطة تحوي خنجراً وجراباً سرياً

به قدر من القطع الفضية، وعلبة صغيرة بها نوع من المراهم، وتلك الفأس يعرفها جيدًا، سلاح قاسم أصلان المفضل، يتذكره في مباريات المجالدة، ولطالما اعتبره فارسًا نبيلًا، ولم يكن يعلم أنه منغمس في الخيانة. لا يعلم أهو الذي خطط لغازي كل شيء أم فقط شارك في الانقلاب وفق هواه؟! لا يفرق، إنه قاتل وخائن لقسمه وعهوده، ونالت من صدره ذكرى موت ولده وزوجته وأمه وإخوته، حين أمسكوه وجعلوه ينظر إلى دناءة فعلهم، وتملصه وقتاله لهم ومحاولته طعن غازي النذل بين عينيه.

هرب من الذكرى بأن أخذ إحدى اللفائف وفتحها، عقد حاجبيه وهو ينظر إلى الرموز الغريبة، طلاس سحرية هذه أم لغة قديمة؟! أخذ واحدة أخرى وفردها أمامه، واصطدمت عيناه برسم للرمح، بكامل تفاصيله، وإن كانت النقوش محوطة من على اللفافة. نهض وركب نعله إلى حيث يقبع الأسرى، تعجبوا من قدومه في ذلك الوقت، ووقف على رؤوسهم سائلًا:

- من صاحب اللفائف المكتوبة بلغة غريبة؟!

قال نيار مسرعًا:

- أنا.

- أساحر أم مشعوذ أنت؟

- لو كنت كذلك لأحرقتكم جميعًا بشهب تتساقط من السماء! أنا أضحك معك، إنها دعابة ثقيلة أعلم.

- تعرف فحواها؟

تدخل هارون النردى قائلًا:

- نعم، ولدنا الكثير من الأشياء التي تود سماعها، وشيء ربما يهمك.

تطلع إليهما أبو الذهب بعض الوقت، ونقل بصره بعد ذلك إلى قاسم أصلان قائلًا:

- وماذا عن سيدكما؟! يعرف هذه الأمور أيضًا؟

قال نيار بسرعة:

- لسنا سوى فارسين متجولين التقيا الرجل، وقدمنا له العون من دون أن نعرف من هو.

ردَّ الدرويش:

- لا أصدقك يا هذا.

قال هارون:

- يمكنك سؤاله، ولا أظن أن من في مقامه يكذب!

تردد صدى ضحكة ساخرة بداخل الدرويش، ظل ينظر إلى الأسد الأسير، وفي عينيه انعكست صورة من الماضي: سيوف تقطر دمًا، وجثث متناثرة، وغازي وزمرته يذبحون بقية عائلته. نفض الذكريات عن عقله، وقبل أن يقدم على فك وثاقهما، برز ذهب من بين الشجيرات ليفزعهم، ويذكرهم أن لا جدوى من الفرار.

أفزعهم مجيئه، وفروه الذهبي يبرق بفعل وهج المشاعل، اقترب من هارون النردى ونيار العنبري، والأخير يكتم أنفاسه خشية ألا تروق للضاري. حل الدرويش وثاقهما ليتحررا من حبال الليف الخشنة أخيراً، وقام هارون يقطع ظهره ورقبته وهو ينظر إلى وجه قاسم أصلان الغاضب من فعلهما:

- عدراً سيدنا القائد، لدينا لقاء عمل.

رحلوا وتركوا ذهب رفقة العجوز ورجليه الجريجين. كان ناقماً ولكنه متفائل بما قد يفعلانه، ولتمض الأيام كما تريد، فلن تكون أسوأ من سابقتها. أخذ يتطلع إلى الذئب وأعجبتة مهابته، ولكن من صاحبه الغامض؟ لعل هو من قتل راجي ذات يوم، إن وجهه مألوف، ولا يدري أين رآه من قبل، يختلف مظهره وبعض الرجال عن بقية آسريهم، ويبدو أن له قيمة وقدراً بينهم. لعن في سره الجبانين اللذين هرعا للتذلل له. غيبان يظنان أنه قد يصدق خرافاتهما التي لم يكفأ عن سردها عليه طوال الطريق إلى هذا الفخ. لم يظن يوماً أن يحدث معه كل هذا، أو أن يتزعزع ملك سلطانه، ولكن أين غازي الآن؟ وهل يعلم بما يدور في تلك الأنحاء؟

وبينما كان قاسم أصلان غارقاً في مستنقعات أمانيه وأفكاره، كان هارون النردى ونيار العنبري يجلسان أمام أبي الذهب وبينهما الخرائط واللفائف، سألهما عن هويتهما وسبب ترحلها مع وزير بني الأزرق، فعرف كلاهما نفسه قبل البدء في حوار طويل استمر حتى فجر اليوم الجديد. تعجب الدرويش مما سمع! لم يصدقها ولم يكذب قولها الذي يخدم نبوءة الرمح الفضي، وسيد النار، الذي يُسمّيانه «نرغال جالب الظلام والموت»، مخلوق يفيض قلبه بالحق والسواد لكل الأحياء، وينوي هلاك الأرض ومن فيها بمجرد أن يتحرر من سجنه. شعر بالكثير من المبالغة في كلماتها، وأعاد هارون النردى قراءة اللفائف مرة أخرى، وهو ما زاد حيرته وشكوكه حول الأمر. شرد وأفاق على صوت نيار العنبري يسأله:

- ما الذي جاء بجيشكم إلى هنا؟ ولماذا تهاجمون سلطنتنا؟

لم يُجبه الدرويش، بل اكتفى بالنظر إليهما، تكالبت الهواجس على عقله، يخشى أن يكونا جاسوسين، وأن كل ما يقولانه مجرد اختلاق وخطة للهرب، غادر الخيمة أمراً سلام أن تُشدد عليها الحراسة، حتى ينظر الملك كتيبي في أمرهما. تجول بين الخيام حتى قادته قدماه إلى حيث رُبط الأسرى، وقف على مقربة من قاسم أصلان النائم وهو مربوط في شجرة قريبة، وقف يتطلع إليه طويلاً، ونفسه تحدته باقتلاع رأسه، وإرساله إلى عش العقاب ليرى غازي صنيعه بالخونة، ولكنه بحاجة إلى الرجل سليماً معافى لأجل كتيبي، ولأجل إنهاء الحرب.

باكراً باغتهم رماة حصن مخلب العقاب، مكانهم العلي وأقواسهم القوية سمحت لهم بإطلاق وابل من السهام على جيش غابة الظلال، وخرجت فرقة مشاة حاولت استعادة طابية الضفة الشرقية من النهر، وأثار ذلك الهجوم الحماسة في روح كتيبي، وكذلك الغضب، فخرج على رأس قواته لمهاجمة الحصن المنيع، وتحت

الدروع الطويلة حاول رجاله تثبيت جبال وخطاطيف في البوابة، ولكن المدافعين كانوا أشد شراسة ورغبة في الحياة، ألقوا الحجارة ودلاء من زيت على المهاجمين، ومرة أخرى شاهد ملك غابة الظلال رجاله يحترقون، كُتب عليه رؤية النيران تلتهم جنده وأهله، ظن أن أعداد مقاتليه والمعارك التي خاضوها كافية لأن يجابهوا جند بني الأزرق المدرب والمتحصن على حافة نهر جارٍ. قاتل الطرفان بضراوة، وتفجرت الدماء، وتناثرت الأشلاء، أسقطت السلام عن الجدران، وارتفعت أعمدة الدخان، هدير المعركة لم يتوقف طوال النهار، وكاد كتيبي ينجح في بلوغ باحة الحصن، يؤمن بالنصر ويبث في نفوس من حوله البسالة والثبات، وشجاعة الرجال معدية، لكنها من دون جدوى أمام تلك الجدران.

مع المغيب تراجع كتيبي وجنده إلى معسكر الحصار، وسحب كل فريق جرحاه وقتلاه بعيداً عن باحة القتال. لم يمضِ الهجوم كما أراد كتيبي، وأصيب في كتفه بجرح سطحي. كان الحصن أول اختبار حرب حقيقية له، يختلف الأمر عن مدهامة القرى ومباغطة البلدات الصغيرة. عاد إلى خيمته، وأخذ يخلع درعه، والمعالج يقف منتظراً الإذن بتطبيب جرحه، ولما بدأ في مسح الكتف بالماء جاء أحد الجند يستأذن دخول الدرويش، سمح له ولم تمضِ لحظات حتى كان صاحب الذئب يقف أمامه قائلاً:

- أبلينم بلاءً حسناً اليوم؟

- لا لم نفعل، يبدو أننا بحاجة إلى استدعاء تيانا وبقية الجيش. إنهم في منعة منا.

- علينا أن نبقي الحصار وندعم قواتنا على الضفة الشرقية حتى يصيب جند بني الأزرق الجوع وفقدان الأمل.

- ألا تنظر حولك يا أبا الذهب، إن النهر يجري من تحتهم ويمدهم بالماء والأسماك، وأخشى أن يأتي إليهم مدد أو يباغتونا إن تراخينا كما فعل ذلك البرغوث بنا في كفر البردقوش.

اقترب الدرويش منه، وقال بينما المعالج ينهي تقطيب جرحه:

- هناك شيء حدث ليلة أمس، وأظن أن عليك النظر في الأمر.

أشار كتيبي للمعالج بأن يتوقف، مسح الرجل الجرح بمرهم أحمر اللون، وما إن غادر حتى قال للدرويش:

- ما الذي حدث؟

- رجلاً من الأسرى الخمسة لديهما رواية أخرى عن سيد النار، يمكنك سماعهما، والأمر متروك لك لتقرر وتنظر صدق ما يقولان، خصوصاً أن لديهما لفائف عتيقة عليها رسوم لرمح أجدادك، وأحدهما يقول إنه رأى الكثير من الرؤى، وجميعها لا تنذر بخير أبداً.

بدا الضيق على وجه كتيبي، وقال بحنق:

- وهل تصدقهما يا أبا الذهب؟! ماذا لو كانت خدعة من ذلك المدعو بالأسد الأزرق؟! كل ما يهمني الآن هو فتح ذلك الحصن، وبعدها تتفاوض على تسليم الرجل مقابل زوجتي وبقية الأسرى.

قبل أن يتم كلماته سمع دوي بوق، حمل سيد الرمح سلاحه، وخرج يتبعه الدرويش، وانضم إليهما سلام. شقوا صفوف المتأهبين بخطى واسعة، الجميع يستعد لمواجهة ما قد يخرج من بين تلك الأشجار، ومرة أخرى سُمع دوي البوق من مسافة قريبة، وبرزت نواصي خيول يعلوها فرسان يرفعون رايات بيضاء،

وتوسطها شمس ذهبية.

ليست هناك لحظة أسعد من أن تسير منتصرًا وسط أولئك الذين شككوا بك وظنوا فيك سوءًا. شد شاهين بن عز الدين ظهره مفتخرًا بما حققه واستطاع فعله. تهادى جواده المدرع بصفائح نحاسية رقيقة لامعة مصقولة، تليق ببياض جلده وهو على صهوته رافعًا رأسه ينظر إلى مُستقبليه بابتسامة عريضة. دخل ساحة المعسكر على ضوء المشاعل، ومن ورائه فرسان في حلل من بهاء، كأن بني شمس بُعثوا من جديد، يعتمرون عمام بيضاء لُفَّت حول خوذات مذهبة، جميعهم سواء، ولا تختلف درع عن درع، وإن تباينت ألوان خيولهم القوية، ووسط غبطة وذهول مقاتلي غابة الظلال أوقف شاهين جمعه، جاء في الموعد وإن تأخر يومين، أحب دخوله كالفاتحين وإثباته لخلفائه مرة أخرى أنه ليس بالرجل الهين.

دومًا لديه خطط بديلة وإن كانت جنونية، تليق بقلبه الذي لا يعرف معنى لليأس، خرج قبل ما يناهز ثلاثة أشهر قاصدًا البوغاز، حاملاً سيف أجداده ومصطحبًا حارسين وزوجته السابقة، التي لم يعاتبها ولا دار بينهما أي حديث على طريق السفر. حاولت رقية أن تتجاذب أطراف الحديث معه، لكنه لم يأبه بها، وعاملها كما يقتضي الأمر. جفاؤه هو ما زاد حسرتها على ما مضى، مسافران غريبان بعيدان عن بعضهما، من السهل عليه أن يقتلها، لكنه أراد هزيمة خوفه منها، وليس هناك عرفان أنبل من أن يعيدها إلى دار أهلها كما أخذها أول مرة، على الرغم من كل ما فعلته، لأجل العشرة التي لم تُصنّها، وهو أيضًا لم يكن مثاليًا، ولا وقت لديه ليلوم نفسه. كانت أكبر أحلامه، وأضحى يخشاها حتى اللحظة التي أوصلها إلى عتبة دار أبيها. شكرته باقتضاب، ولا تعلم أن أثرها ما زال في قلبه ساكنًا، وأنه أراد احتضانها مرة أخيرة ولم تطاوعه نفسه، اكتفى بالمضي قُدّمًا، ووضعها وراءه مع كل ذكرى بينهما.

نزل في خان قريب من الميناء، ولثلاثة أيام يصطاد الأخبار عن الزرقاء والسلطان من ألسنة البحارة والمسافرين، وعلى الرغم من حالة التأهب القصوى في المدينة نسي الناس أمر حريق كفر البردقوش، وفي اليوم الرابع ذهب إلى دار العوائد والمكوس، جمع كل صكوك ملكيته لقصور وضياع ومخازن وصوامع، وقصد أحد المرابين من سادة البوغاز، وقد جمعتهما مصالح عمل كثيرة من قبل، ولم يكن من الصعب إقناعه بأن يمدّه بما يريد من مال، وفي المقابل سيرهن كل أملاكه لديه، وافق الجشع شريطة أن يعرف سبب جمعه لكل هذا القدر من الذهب والفضة، تردد شاهين في الإفصاح عن خططه لرجل يثمن كل شيء، يعلم أنه قادر على الغدر به إن عُرض عليه ثمن أعلى، تلك محاولته الأخيرة وعليه أن يعتنم رياحه، ولشيء في نفسه قرر سليل بني شمس أن يفصح عن قدر مما يريد.

يريد جمع ألفين من مرتزقة الحافة والمهدية إن استطاع، لم يفصح عن كل شيء، لكن الرجل كان سخيًا، ووعدّه بأن يمدّه بثلاثة آلاف محارب، وأن يتكفل بصنع الدروع والرايات وكل ما يلزم الجيش الصغير، ويريد في المقابل ثلث الغنائم، وأن يكون له أتباع يحصون كل شيء، ولما سأله شاهين لم يقوم بهذا، أجب المراهبي السمين:

- إن كنت تنوي أن تتوج ملكًا، فليَمَ لا أكون وزيرك الأول، أو لنقل أمين خزانك!

- وإن هزمت؟!!

- أنا أول جلاديك، لن أكون الخاسر على كل حال، يمكنني منحك ما تريد، وإن وافقت الآن أستطيع وضع البوغاز على الجياد في حرك، والحرص على تزويدك بكل ما تريد. السلطان يخوض حربًا في آزاد، والأخبار تقول إن الأمور معقدة هناك، وبنو الأزرق يتخطون، يمكننا حصد مغنم لا حصر لها معًا.

يومها خرج شاهين مبهجًا، شعر بنسيم البحر، ورائحة اليود تملأ صدره. حصل على ما يريد وأكثر، حليف جديد قد يكون أسوأ من عرفهم يومًا، ولكن لا بأس على من اعتاد أن يضع روحه على المحك، لن يهديه الزمن فرصة أجود وأفضل من هذه. وفي غضون شهر ونصف الشهر استطاع أن يجمع جيشًا من مرتزقة فرسان الحافة، الذين توافدوا فرادى وجماعات لالتحاق بمعسكره المخفي في الأحرش بين البوغاز والمهدية، وجاءته الدروع والرايات على دفعات، ظن أنه يحلم وهو يرى فرسانه يتجهزون.

وقبل موعد رحيله للانضمام إلى جيش غابة الظلال، عاد إلى البوغاز واشترى مؤنًا، وما يلزم الحصن من أغراض وعتاد، وزار حليفه المرابي ليطلع عليه ويناقش معه جديد الأمور، وطلب منه أن يعتق رقاب الأسرى الذين باعهم سعد في المدينة، وفي المساء ذهب إلى دار رقية، ووضع على عتبة بابها صندوقًا، ثم طرق ثلاثًا، وبخفة توارى بين الظلال، ورآها تطل برأسها، وتبحث عن الطارق، وما لبثت أن حملت الصندوق، وأغلقت الباب وراءها.

سهرة صاخبة أقيمت في معسكر الحصار، احتفلوا بقدوم الفرسان ذوي الدروع اللامعة، على وقع قرع الطبول وقذائف مجانيق مشتعلة، دفع كتيبي بهجوم ليلي عنيف نجحت فيه قردة البابون في إنزال الرعب بقلوب المحاصرين، أراد إرهابهم وإنهاك قواهم، لكنهم استبسوا وقاتلوا بضراوة مدافعين عن مخلب العقاب. وفي تلك الأثناء وفي خيمة القيادة جلس شاهين يقص عليهم ما دار معه في البوغاز، وكيف حصل على جيشه، وأطلعوه على البلدات والقرى التي سيطروا عليها، وصدح حين علم بأسرهم لقاسم أصلان، الذي تباهى سلام أنه من أحكم وثاق الأسد العجوز، وقص عليهم الدرويش حكاية الفارسين اللذين يملكان اللفائف العتيقة، وضرورة أن يلتقيهما وينظر في قولهما. وفي أثناء تناول العشاء قال كتيبي وهو يمسك فخذ ضأن:

- في الغد نهاجم الحصن بكل قواتنا، سنتصل تيانا رقيقة من تبقى لدينا من قوات، بالإضافة إلى فرسانك الأقوياء، وأظن أنهم لن يصمدوا أمامنا أكثر من هذا، وبعدها نطلب مبادلة الأسرى مع سلطان بني الأزرق.

توقف شاهين عن المضغ، ونظر إليه قائلاً:

- يمكننا أن نجد سبيلاً آخر لدخول الحصن، من دون أن نفقد مزيدًا من المقاتلين.

ردّ كتيبي ساخرًا:

- وكيف هذا؟! نهدبهم وردًا ولحوم طرائد!

- من الجيد أنك أتيت على ذكر الطرائد، لدينا طعام من الصعب أن يتجاهله صيدنا.

سأله الدرويش:

- ما الذي تفكر فيه؟!

- في البداية علينا دعم الفرقة التي تسيطر على الطابية الشرقية، إحكام الحصار هو ما يجب علينا فعله الآن، وبعدها نرمي طُعْمنا وننتظر. في الصباح تصل بقية قواتي، وسأستعرض بها أمام بوابات مِخْلَب العُقَاب، ليعلموا أنه ما زال لدينا الكثير في جعبتنا، ولا أظن أننا بحاجة إلى طلب المدد من تيانا، دعوها تُقِم الحصن الذي تنشُد لعله يكون ملاذنا إن لم تفلح مساعينا.

أثارت جملته الأخيرة في نفوسهم شيئاً من خوف، والعجيب أنه أخذ يكمل طعامه كأنه لم يُلقِ حجراً على قلوبهم! النصر وارد، والهزيمة أيضاً، وما الضير أن يحاول الرجل فتح الحصن من دون خسائر، كما يقول، وليس عليهم إلا المحاولة بكل السبل. كل واحد منهم فسّر قول شاهين كما يريد، واجتمعوا على أن يثقوا به وهو الذي وضع أساس خططهم، وصدق الموعد معهم، وجاء بمدد حقيقي وجيش يحمل رايات الشمس. انتهوا من العشاء وجلسة السمر، وقام كلٌّ منهم إلى مضجعه، إلا شاهين الذي قرر زيارة الأسير الثمين، وهناك التقى ذهب المرابط على الحراسة، ابتسم لرؤيته، ونهض الذئب واقترب منه يتشمم رائحته. قطع قاسم أصلاّن المشهد بصوته الأَجَش:

- شاهين بن عز الدين الشمسي! تليق بك هذه الدر.

- من الجيد أنك تتذكرني أيها المبجل.

- هناك وجوه لا تُنسى، وأنت أحدها. لا أنكر أنني متفاجئ بطلتك هذه، لم تكن حتى آخر الوجوه التي توقعت رؤيتها. كنت على يقين أنك خائن أو تخفي شيئاً، وصدق حدسي، هل جئت لتقتلني أم لتتنشئ وتشمّت؟!

- في الحقيقة لم أستطع ترويض فضولي حين علمت أنك هنا، ولو أردت قتلك لفعلتها وأنت في ضيافتي بكفر البردقوش، أما التنشئ والشماتة فليسا من سمت الرجال، وإن كان الأمر يثير السخرية، فمن يصدق أن الأسد الأزرق مربوط بحبال الليف كالبعال إلى جذع شجرة!

- نوابب الدهر لا ترحم أحداً، ولو كنت مكانك لخشيت مثل مصيري.

- وأيّ مصير تظن أنك ملاقيه؟! ما جئت إلا لنجدتك مما قد يفعله بك هؤلاء الهمج، يفكر زعيمهم في قطع رأسك وإرساله إلى غازي.

- أولست زعيمهم؟!

- الأمر معقد، لكنني أفصّل أن أطلق عليهم حلفاء، ولكل منا غاية. أتعرف ما زلت أذكر كم تباهيت بتعداد جيشك وتجهيزات فرسانك وجندك، وعطرسنك وتعاملك بأنفة وكبر في داري.

أيقظت ضحكات قاسم أصلاّن المجلجلة رفيقي أسره، وقال وهو ينظر إلى وجه شاهين:

- دع عنك الذكريات إن كانت تؤلمك، وأخبرني ما الذي تريده أنت وأصدقاؤك البرابرة، أن أشفع لكم لدى السلطان على ما اقترفتموه من خيانة وغدر ومهاجمة أراضينا؟!

- أراضيكم؟! هي الجبال الوعرة شمال الجبل الأزرق، وليست سهول وادي النهر الكبير، ولا تلال الشمس ومجرى نهر التاج. لقد عانى الناس تحت حكم سلطانك الغارق في وحل ازاد، وفقّد السيطرة على البوغاز وكل الأراضي غرب النهر الكبير وشمال خندق السراب. إن ملككم يتلاشى أيها القائد، لم يبق لبني الأزرق سوى أيام معدودات، وعليك أن تتعامل مع واقعك الجديد.

أطال قاسم أصلاّن النظر إلى وجه شاهين، ولم يُبِد أي ردة فعل، ظل جامداً برهة ومسح بعدها شاربه الكث بسبابته قائلاً:

- إنه واقع مؤقت، وإن لم أمت بأيديكم فستكونون ضحاياي.

- يمكنني فك وناقك الآن، ولنتر كم خطوة ستقطعها، قبل أن يمزق ذهب حنجرتك، أو يقرر بطنك، ويتلذذ بقضم لحمك حيّاً.

فتح الذئب الرابض بينهما فمه متثائبًا، كأنه يريه طول أنيابه اللامعة، وشاهين يتابع:

- أريد مخلب العُقاب.

- اذهب واحصل عليه يا ابن بني شمس، أو من الأفضل أن تذهب للنوم ربما تحصل عليه في أحلامك!

- أنت رجل نظام مجل بين قومك، ولست أقل من رفيقك المخبولين، اختارا الحياة مقابل خرافة وأسطورة وبضع لفائف وطلاسم. لو كنت مكانك لفكرت في التفاوض، وقد فعلت من قبل ونجح الأمر، انظر أين أنا الآن. وهما أيضًا بنعمان الآن بالراحة والطعام ونوم هانئ، وأنت ملقى هنا في العراء، وسأذهب لأخذ قسط من النوم، بينما ستبقى أنت يقظًا للتفكير والتدبر، وما أعلمه عنك أنك رجل حكيم، وخسارة جيش قوامه خمسة آلاف محارب ليست بالشيء الهين، ولن يقبلها سلطانك تحت أي مُسمّى. ليلة سعيدة أيها المبجل!

ترك قاسم أصلان يصارع أفكارًا تكالبت عليه. رأى الرجل في عامه الأخير ما لم يكن يتخيله طوال عمره المديد. رفع رأسه، وتطلع إلى القمر المار فوق الأشجار الكثيفة مزيجًا الظلال عن حصن مخلب العُقاب، أخذ يتطلع إليه وهو يفكر في حياته ومجراها؛ أبنائه، وزوجاته، وكل شيء تركه وراءه، كأنه كُتب عليه أن يموت في رحلته هذه مئات المرات. حين خرج من الزرقاء ظن أن رحلته سهلة، وهو الذي لم يُهزم في أي معركة من قبل. فاضت آبار الذكرى بروحه، وتجسد أمامه الكثير من المواقف التي عاشها، خدم ثلاثة ملوك من بني الأزرق، وإن حظي في عهد آخرهم بالمكانة التي يستحق، هو الذي مكّن غازي من العرش، كيف لا وهو ابن أخته الوحيدة. عشر سنوات مرت على فعله، يوم ماتت العقبان الزرقاء ببهو عش العُقاب، وطئت قدماه على برك دماء النساء والأطفال. هل يدفع ثمن آثامه بالتيه وخسارة رجاله والآن بالأسر والمذلة؟! وكل دين واجب السداد. عليه أن يقبل واقعه الجديد، أو يجد سبيلًا ليتحرر من تلك الأغلال.

صباح اليوم التالي كُلف سلام بأن يقود فرقتين من مقاتلي غابة الظلال. كان عليه عبور النهر عبر مخاضة تقع على بُعد أميال شمال الحصن، أن يلتف ويدعم القوات المسيطرة على الطابية الشرقية، وأمام مخلب العُقاب حل السكون والترقب حتى قبل الظهيرة، وما إن انتصف النهار حتى اصطف المحاربون المتوحشون، ووراءهم ومن بين جذوع الأشجار بدأت الخيالة تخرج رويدًا رويدًا. كان حضورهم لأرض المعركة مفاجئًا للمحاصرين، الذين تعجبوا من الرايات ذات الشمس الذهبية، ومظهر الفرسان ذوي الدروع والعباءات البيضاء. دُفعت مقاليع خشبية بدائية لتأخذ وضع الاستعداد، الأعداد غفيرة، وما زالت الخيول المدرعة تتوافد خروجًا من الغابات، ودوت الأبواق بعد طول انتظار لكن ليس للهجوم، وإنما لتعلن قدوم ملك غابة الظلال ورفقته.

تقدم الذئب الضخم موكب القادة، ومحممت الخيول وانتصبت آذانها، وسرى التوتر بين الصفوف، وعلت الهمهمات وهم ينظرون إلى السائر خلف الموكب، فارس عجوز في درع رثة يحمل راية بني الأزرق، وعلى مسافة قريبة خلفه رجلان يعاون أحدهما الآخر على المسير، ومن بين صفوف الفرسان والمحاربين برز كتيبي وشاهين والدرويش، وقف كلٌّ منهم على رأس قواته، ومع توقف حامل الراية أمام بوابة الحصن، غمر السكون المكان، فقطق الهواء ما عبث بالرايات، ورفع ذهب رأسه ورمق الحصن ودار على عقبيه، وعاد ليقف بجوار أبيه أمام المشاة من حملة الرماح، ولا شيء أقسى على قاسم أصلان من قهر الرجال الذي

أصابه. أيّ إذلال هذا الذي يتعرض له؟! لكنه اختياره على كل حال، اشترى ثقة أعدائه بحصن مخلب العقاب. اتفاه مع شاهين بن عز الدين تضمن هدنة من بعد حصولهم على الحصن، إنها وقت كافٍ ليحاولوا فيه استرجاع الأسرى بالتفاوض، أخفوا عنه خبر أن السلطان في طريقه إلى أزد، والرجل كان ليوافق على أي شيء بعد ما لاقاه خلال شهور طويلة. استجمع قواه بعد أن جال ببصره في الجيش الرابض وراءه، ونادى في الجند المختبئين خلف البوابة والأسوار بصوت أجش جهوري:

- أنا الأسد الأزرق قاسم أصلان أمير جبل الثلج والوزير الأعظم للسلطان الأشرف غازي.

ردّ عليه صوت قوي من وراء الجدار:

- وما أدانا أنك من تدعي؟! -

- من السائل؟ جندل بن ميمون أم زيد بن محزر؟! -

أطل من فوق السور رجل يعتمر خوذة تحفي ملامحه، وما لبث أن عاد إلى الورا وغاب بعض الوقت، ثم برز رجل آخر نحيل لا يرتدي درعاً، أخذ ينظر بعض الوقت، وبعدها قال بصوت حاد:

- المبجل قاسم أصلان! ما الذي تفعله مع هؤلاء البرابرة؟! -

- قصة طويلة لأروها وأنا واقف هنا على الباب! -

أطال الرجل الصمت، قبل أن يعود إلى داخل حصنه. مر بعض الوقت لعبت فيه الظنون بعقول المئات ممن يحضرون المشهد، وسمع صوت صرير جنازير البوابة تفتح، لم يلتفت الأسد العجوز وهو يتجه ورفيقاه إلى باب ينفرج مصرعاه، ليكشف عن حشد من المشاة يتقدمهم رجل يحمل عقاباً على ساعده، ما إن رآه قاسم أصلان حتى ابتسم. وجه قديم مألوف يراه أخيراً من بعد رحلة شقائه. قال وهو يقترب من الرجل الضخم:

- جندل، إنها المرة الأولى التي أفرح فيها برؤيتك، حين رأيت زيد حسبت أنك مت.

عقد جندل حاجبيه، وتطلع إليه بدهشة جلية:

- ماذا حل بك أيها المبجل؟ -

توقف المحارب العجوز أمام معاونه القديم، وغرس الراية في الأرض، قائلاً بجديته المعهودة وصوته الأَجش:

- مُرّجالك أن يلقوا أسلحتهم ويستعدوا للخروج شرقاً، لم يُعد لنا مقام هنا! مخلب العقاب أصبح له حكام جدد.

- سيدي، كيف هذا؟ يمكننا الصمود لأشهر مقبلة حتى يأتي المدد.

- هذا أمر، وعليك طاعتي من دون نقاش.

- أريد تفسيراً لكل ما يحدث. لِمَ أطيع أمرك وأنت أسير لدى أعدائنا؟! -

اقترب منه قاسم أصلان، وعقد حاجبيه الكثين، وقال بنبرة مشحودة:

- ليست في يدي أغلال، وإنما راية حصنك أيها القائد. احملها واذهب إلى السلطان في الزرقاء، وأخبره بما حدث، وأن هؤلاء القوم لا يريدون إلا ذوبهم الأسرى الذين أخذهم سعد معه إلى العاصمة. عليك أن تعي يا جندي أنها قد تكون فرصتك الأخيرة للنجاة، هؤلاء القوم لديهم أضعاف هذه الأعداد التي تراها أمامك، وتكفيك أربعة أيام من القتال أمامهم.

- السلطان في طريقه إلى أزداد لقمع المتمردين هناك.

- إذن قصرت المسافة عليك. والآن خذ رجالك وهذه الراية، اذهبوا وأخبروا السلطان بأنني قمت بما يتحتم عليّ فعله.

وبينما يتحدثان دخل الجريمان الحصن، ومن بعيد يراقب جيش غابة الظلال ما يحدث، وما إن رأى شاهين قائد الحامية ينحني ويتلقف الراية من قاسم أصلان والجريمان يعبران البوابة إلى الداخل، حتى امتطى جواده، وقال للدرويش وكتيميبي ضاحكًا:

- انتصار ساحق من دون أي خسارة في الأرواح أو العتاد أو الأسرى. مرحبًا بكم في مخلب العقاب.

مع آخر حروفه لكز جواده الذي صهل، وراح يتقدم بخطوات خفيفة متبخترة، ومن ورائه بدأ فرسان الشمس التحرك خلف سيدهم إلى بوابة الحصن وسط ذهول لم يخلُ من الفرحة لدى جيش حلفائه من غابة الظلال.

فوق أسنة الرماح ورايات وأعلام بني الأزرق، حلق ذو العرف باسطاً جناحيه العظيمين، إذناً لسرب كبير من العقبان المقاتلة بالارتفاع إلى جواره، خفقات أجنحتها أثارت الهواء، وبددت الغبار لتكشف عن جيش عظيم يبلغ ديب مسيره أعالي السماء، حيث أطلق قائد الطير نقيضه العالي، وكذلك فعل سربه المحلق فوق خمسين ألفاً من الجند والعربات والخيول والفرسان، وأقفاص تحوي دبة، وأبراج وآلات حصار. لم يعبر جيش كهذا نهر التاج منذ غزو جاد الكبير، وهذه المرة أيضاً كان الزحف مقدساً. التحق به كل عشائر وقبائل الشمال من الزرقاء وحتى جبال الدب، مروراً بعائلات بستان الجياد والجبل الأزرق والعنبرية، ولا شرف يضاهي المسير تحت راية السلطان الأشرف غازي بن رضوان الأعرج بن جاد ذي العين الزرقاء. قبل أشهر خرج من المرقد على رأس قواته قاصداً قلعة النار، لبث في كنفها بضعة أيام، وخرج بعدها إلى الجبل الأزرق في رحلة أشبه بنزهة.

وفي طريقه إلى مستنقع الجميلات جاءته رسالة من أزد. أمر جلال لم تشهده الأرض من قبل، جعله يغير وجهة جيشه على الفور ولا يتمهل، سقطت عين الشمس بيد مملكة الساحل، هذا ما استشرى على ألسنة الجند، ولم ينطق غازي بكلمة ولم يستشير أحداً. وطوال الطريق يبث قادة المفاوز والكتائب في رجالهم قسم السلطان بأنه سيمحو مملكة الساحل من الأرض والتاريخ. ينظر إلى جيشه العظيم، ويتذكر نصيحة زوجته وهي تودعه:

- غازي، لا تدع كبرياءك وغضبك يحطمان ما تطمح إليه، أنت الأقوى والأعظم بين ملوك الأرض جميعاً، افعل ما تراه صواباً، وتذكر أن العدل وحده ما سيحملك محبوباً مطاعاً بين رعاباك. وإنهم ليضحون فداك إن فزت بقلوبهم التي تؤمن بأن ما تفعله لأجلهم هو عين الصواب.

وعلى درب نُصحها تماشى مع الأمور بهدوء وروية، ومنذ أن خرج من قصره كان بشوشاً مع الجند وبيازحهم، يتدرب معهم بفأسيه، ويتشارك معهم عراكاً هو الفائز فيه دوماً، مَنْ يستطيع أن يصرع السلطان! إنه أسطورتهم الحية ذو الدم النقي السليل الأخير من عائلة مقدسة، مقاتل مشدود القامة لا يقوى عليه أحد، يقول المتملقون إنه يشبه جاد المعظم في شبابه، لا يفرقها إلا الندوب الزرقاء التي تجعل من غازي أكثر عظمة وهيبة من سلفه المقدس، وعباءة من فرو نمر الثلوج على كتفيه تثبت ذلك. مر السلطان بالبلدات، وحيّاه العامة، وابتهج لرؤيته الخاصة، وكلما مر بقرية خرج إليه أهلها حاملين جريد النخل والورد، ويقدمون ما بين أيديهم من هدايا ومؤن لجيش سلطانهم العظيم عن طيب خاطر، للمرة الأولى في حياتهم البائسة يرون سلطانهم الأشرف الذي جاء ليحميهم من الرعاع الهارين من عين الشمس، الذين انتشروا جنوب نهر التاج يثيرون الرعب في نفوس البسطاء، ويعيشون فساداً من دون رادع، والآن جاءهم عُقاب بني الأزرق الكاسر. أحب تلك الهتافات باسمه، وجواده الحربي يتبختر بينهم، ووقرت في نفسه ثقة كان يفتقدها منذ رحيل أصحابه.

شعر السلطان بالفخر وهو ينظر إلى الناس يتهافتون حوله، ويلقي لهم الهبات على جانبي الطريق، ولم يتوقف عن المسير متقدمًا رجاله، حتى بلغ وادي الفجر. عليه درع فضية مطعمة بالياقوت الأزرق، وخوذة العُقاب يعلوها تاج حرب فريد وقديم، ويمتطي جواد حرب ضخمًا أسود كالليل، ومغطى بدروع متينة، يحمم، ولا يقف ساكنًا أبدًا، طارقًا الأرض بحوافره. ووراءه حرسه الملكي والفرسان الصقارون، رعاة الطيور الجارحة المحلقة فوقهم في السماء. أدار غازي كل شيء بنفسه، دارسًا تضاريس الأرض حوله، وسيّر جياد البرق لتسبقه، وتستطلع له الأخبار، واختار إقامة معسكره على مشارف الوادي، الذي يقع بين تلال الشمس وأطلال الزهرة، سهل عاشب يسهل فيه إقامة الخنادق والمتاريس، وبناء أبراج حراسة فوق التلال العالية ورائه. ما إن استقر به المقام حتى وجّه فرسانه وقادة الكتائب إلى مواقعهم، وأرسل إلى أزيد طالبًا قدوم القائدين الماجوني ونورين.

غربت الشمس، وتركت ورائها سماءً مصبوغة بشفق برتقالي. ووسط الزخم والحركة الدائمة لبناء معسكر جيش السلطان، كان سعد بعيدًا عن قلب الجيش، ترقى سريعًا ليصبح نائب فرقة دعم الحرس الملكي، ومن حسن حظه أن يفاجئ الموت قائد الفرقة، مات الرجل في فراشه في أثناء نومه عند قلعة النار، وآلت الأمور إلى البرغوث الذي أحب مهامه ومنصبه، وضح من خبث نرغال الذي يوسوس له بأنه يستحق مكانة أكبر بكثير من كونه فارسًا يؤمّن مؤخرة جيش بني الأزرق. وطوال الطريق من الزرقاء إلى وادي الفجر، كان نرغال رفيقًا مزعجًا وثرثارًا، ينصت له سعد من دون أن يفعل ما يمليه عليه، والآن بعد أن علم بأمر جيش الساحل وسمع شهادات الفارين من هناك، أضحى صاحب الصوت بداخله أكثر جنونًا ورغبة في الذهاب إلى عين الشمس، فقد نجح أتباعه في السيطرة عليها كما يقول، ولعلمهم بدأوا الحفر الآن لإخراج جسده. أخذته الحماسة، وقال لمضيفه بينما يسن أحد خنجره على حافة النهر:

- إنها فرصتنا الآن يا سعد، كل ما عليك فعله هو أن تسرق الدرع، ونذهب إلى عين الشمس. بدر بن حمدون ومخمربة بنت جبران في انتظارنا.

توقف سعد عما يفعل، ودار ببصره في أرجاء المعسكر وهو يقول محدثًا نرغال:

- ألم تُقل إنهم ليسوا سوى أغبياء يسيرون وفق أهوائهم وليسوا كما علمتهم وطننت بهم؟! ثم إن الدرع لا تفارق سرج السلطان. - نقتله.

- لن أفعل، على الأقل ليس علي طريقتك، حتى وإن كنت قائد فرقة الدعم الآن. ترتيب القيادة في الحرس الملكي يمنعني من الاقتراب منه، إن دخلت دائرته أصبحت هدفًا سائنًا لحرس الكستناء خاصته. لا أنوي الموت مرة أخرى!

- سعد، ليس هذا وقت عناد، ولا تنسَ العهد الذي بيننا.

- عين الشمس على بعد فراسخ قليلة، وبممكنك الآن الخروج من جسدي والرحيل إلى حيث تريد. هيّا اذهب وابحث عن محتصر جديد لتراوده عن جسده.

- على الرغم من كل ما أربتك إياه وفعلته لأجلك، فإنك ما زلت تمتطي العناد، وتأخذ كل نصائحي على محمل الهزل.

- ما الذي فعلته من أجلي؟! لا شيء سوى الثرثرة وإرهاق عقلي، أشعر بثقل خطاي كأني أحمل فوق كنفني جيلًا، أكذبك وأصدقك. والحقيقة التي خلصت لها أنك مجرد صوت بداخلي، وما الرؤى التي تراودني إلا أضغاث أحلام، وما تتلوه من قصص الأولين إلا أساطير، وما أكثرها في الأرض! ما أنت إلا أنا.

تبدلت نبرة نرغال لتصبح أكثر عمقاً ورهبة في نفس سعد، الذي لم يلحظ انعكاس صورته على صفحة الماء:

- أنا من بعثتك من الموت، وأنا القادر على فنانك.

على الرغم من القشعريرة التي لمست سعد، فإنه قال وهو يمسح نصله المسنون بالزيت:

- إن كانت لديك القدرة على إحياء الموتى، وفعل ما هو أكثر من هذا، فيمكننا أن نفترق الآن. لماذا لا أسمع صوتك، لا تقوى؟! حسناً يمكنك الصمت، ودعني أفعل ما أريد وقتما أريد.

- أنت تهدر الوقت يا سعد. إن حكمائي هناك داخل عين الشمس، وسيرحبون بقدمك حين يعلمون أنك المجتنبى. ستحظى بقدرك الحقيقي، وتُنصب ملكاً عليهم، وأحصل أنا على جسدي. هيّا فم وأشعل النيران في هذا المعسكر اللعين، واجعل ابن الأزرق يُهزم قبل أن يخوض حربه.

- لن أفعل شيئاً حتى أتأكد مما أنت عليه، وما تستطيع منحي إياه واقع لا محض وعود وخيالات، وتوقف عن الحديث معي خلال النهار أو أمام الناس، ستصينني بالجنون، وإن فقدت عقلي فلن أفيدك ربما.

في تلك اللحظة أيقن نرغال أن سعد استجمع قواه وتحدها، بل ويعلم جيداً ضعفه الشديد، وأنه خياره الوحيد، إن خرج من جسده في هذه الحالة قد تتبخر روحه إلى الأبد، وإنقاذه لذلك اللعين كلفه الرمق المتبقي من قوته، لم يعد يسمع صلوات المؤمنين، ولا يستطيع معرفة ما يحدث مع حكمائه أو التواصل معهم، كما فعل من قبل وهو في جسد العجوز، لا يدري السبب، لكن يبدو أنه كان مخطئاً في الحكم عليهم، كما أخطأ في اختيار البرغوث، كأن الحبس كُتب عليه، جسده في جوف عين الشمس، وروحه داخل أخبث مخلوقات تلك الأرض اللعينة!

ظل نرغال صامتاً يرقب العالم من عيني سعد الذي لو نظر إلى ماء النهر لرأى حقيقته. نهض سعد واضعاً خنجره بغمديهما، وراح يتفحص جاهزية رجاله ويوصيهم باليقظة، واتجه إلى ميسرة المعسكر، حيث خيام وسرادق الحرس الملكي، لا يريد أن يخسر منصبه الجديد أو يضحى بحياته لأجل صوت بداخله، لا ينكر أنه يشعر بقليل من القوة، إلا أن التعلق بالأوهام قتل بطيء. انتهى من اجتماع قاداته، وخرج يفكر في توجيهاتهم له بتسيير دوريات على طول امتداد الجيش مع نهر التاج، ليس هذا ما كان يتمناه، وشعر بأنه يُبعد عن قصد، لكنه ألقى كل الأفكار وراءه حين وجد السائس ومساعدته بالقرب من إيوان السلطان يفكان سرج الجواد الملكي ودروعه، ومن بين الأشياء التي وضعها جانباً درع السلطان، ما جعل نرغال يقول بداخله:

- ها هي ذي الدرع، يمكنك لمسها بطرف أصابعك لتصدقني، لن تخسر شيئاً، وستعرف كم أنت محطوط باختياري لك!

فكر سعد، وتقدم إلى حيث يقف مساعد السائس، وقال:

- عنك هذه سأحملها إلى إيوان السلطان.

لم يمانع الشاب الذي يعرف مقام سعد بين الفرسان، ساق جواد السلطان إلى مربطه، وبقي البرغوث واقفاً يرمق القرص الموضوع داخل حامل من جلد الحيتان القاسي، سطحه الناعم المصقول يلمع عاكساً وهج مشاعل المعسكر، ولا أحد يعلم ما في نفس السلطان لحمل ذلك الشيء معه، وكثيرون من الفرسان يظنون أنه حلية للسرج. تردد سعد كثيراً في لمس الدرع، وترك نرغال لجام فضوله، وأوحى إليه بأن يقرب أنامله،

وبتردد وخوف جلي لمس حوافها، وعندما جذبها إليه بقوة أشعت بوهج خفيف تبدلت فيه الألوان على النقوش المحفورة بها، وأخذ قوامها ينصهر ببرودة على كف سعد ومعصمه. جحظت عيناه وتلجم لسانه، والدرع تتشكل بسرعة على هيئة أربطة، أحاطت ذراعه كدرع حرب خفيفة. تسارعت أنفاسه، وتلفت حوله ليرى إن كان أحد يلحظ ما يحدث، شعر كأن نيراناً تجري في عروقه، وتجتاح جسده، وقوة تسري في أوصاله وعضلاته. أخذته رجفة دهشة وعجب شاهقاً، و نرغال يضحك بداخله قائلاً:

- هل آمنت الآن بما أستطيع منكم إياه!؟

قلَّب سعد الدرع الحربية المعلقة بمعصمه، درعاً متينة أخف من الريشة، لا يشعر بثقلها على الرغم من هيئتها التي توحي بعكس ذلك. تابع نرغال حديثه بنبرة علو وتكبير:

- رأيت يا سعد مقدار القوة التي بداخلك، هذا لا يضاهاى ما ينتظرك من طاقة الخلود الباهرة، لن يستطيع أحد هزيمتك، حتى الموت لن يقوى على مجاهبتك. أصغ إليّ، وسأمنحك كل ما ترنو إليه.

بالكاد رفع سعد المذهول بصره عن الدرع المعلقة بيسراه، حين قطع صمتها صوت جان الصقار قادمًا من ورائه:

- ما الذي تفعله هنا!؟

على الرغم من توتره فإن سعد استطاع أن يخلع الدرع عن ذراعه من دون أن يلحظ الصقار، والحقيقة أن نرغال هو من أفلت أربطتها بنعومة وسرعة. استدار سعد حاملاً الدرع بين يديه وهو يخفض رأسه قائلاً:

- كنت في طريقى إلى موقع فرقتي حين رأيت غرض جلالة السلطان ملقى وقد نسيه السائس والخدم.

نظر إليه راعي طير السلطان وزمرته من الحرس والأمراء، وهز رأسه ومضى من دون أن ينطق كلمة أخرى، وقدم أحد الخدم ليأخذ الدرع من يد سعد، الذي بقي جامداً ينظر إليها، والصوت بداخله يقول بخبث:

- كان الأمر يستحق المخاطرة، وأفهم خوفك من التعجل وقتل السلطان، إنهم لا يثقون بك حتى وإن كنت تضع على كتفك عباءة قرمزية وترتدي الدرع نفسها.

غمغم سعد الذي حاول أن يفيق من خيالاته وهو يتحرك إلى وجهته:

- صدقتني الآن! لو تعاملنا مع الأمر بتسرع وغباء سبُغرس ألف خنجر جسدي، حتى لو كانت بيدي تلك الدرع السحرية، ولن نستطيع حينها حماية نفسك من الفناء والموت معي!

يعلم نرغال ما يرمي إليه مضيفه، لذا فضَّل الصمت طويلاً، وتركه وحيداً يستمتع بوقته بين رفاقه من فرسان الحرس الملكي، وجال هو في دروب نفسه، يشتاقي إلى تحرير جسده من الزنزانة الضيقة الغارقة في اللحم، لا يصدق أنه قد صار قريباً بعد آلاف السنين من نفيه، ما الذي لا يجعله ينتظر بضعة أيام هي لا شيء في مائة عام تنقلها بين أجساد البشر والطير والقوارض، لعل مخمرية وجيشها يحفرون عين الشمس الآن. يشعر بالحماسة كلما تخيل اللحظة التي يطلق فيها عنان قوته وقسوته، ويفني هذا العالم البائس، ويعيد بناءه

من جديد، ويضع نظامه وميزان عدله بين الناس، وبعدها يعرج إلى السديم حيث عالمه هو، ويستعيد ما كان له من أيدي إشيكيجال وإخوته المخثنين، ولن يحدث شيء من كل هذا إلا بحصوله على كيانه الحقيقي، وهذا ما لا يعيه عقل فانٍ وضيع مثل سعد.

يجلس البرغوث متكئاً على وسادة بين المتحلقين حول نار المخيم، بعد أن سيرَ دورياته وأتم مهامه، يحاول أخذ قسط من الاسترخاء، يأكل ثمرة تفاح، وينصت لأحاديث الفرسان رفيعي النسب، منمقين يصلحون للاستعراضات العسكرية أكثر منهم مقاتلين، يتحدثون عن النساء والصيد وقاعات ضيافة عائلاتهم، وليالي السمر الصيفية في قصور أوريجا ومستنقع الجميلات. كانوا صنفاً آخر من الناس غير الذين عاش معهم عمره، حاول ألا يظهر كجزء في حظيرة خيول نبيلة، أخذ يتعلم حركاتهم وسكناتهم، حتى لسانه الذي لا ينطق كثيراً راح يعود على لهجتهم، ويروق له أنه أعلى رتبة ممن هم أعلى نسباً وحسباً، يستحق هذه المكانة وهو الذي خاض حياة أشرس، وأكثر قسوة من حياتهم المنعمة، ولكنه تعلم منهم أساليب الانضباط والدقة العسكرية، وحصل بترقيته عليهم حرية الحركة في كثير من الأحيان، وكلما كاد ينسى أمر نرغال تذكر أن الأخير يكمن بداخله، يرصد خطاه ويسمع خباياه، يريد تصديقه، وتأبى نفسه إلا أن تعارضه، لا يدري لم بُعثت في نفسه الرغبة في حمل الدرع مجدداً، إنها هناك في إيوان السلطان المحاط بحراسة شديدة التعقيد، وراودته تلك القشعريرة التي شعر بها حين تعلق الدرع السحرية بيده، وبينما سعد غارق في أحلام يقظة يخوض فيها معركة حاملاً الدرع، كان نرغال في ركن مظلم بقلبه يكتفم ضحكاته.

مع شروق الشمس دوى بوق وتكرر، ليوظ من بقي نائماً، وليعلن وصول القائدين ساري الماجوني ونورين أمير بستان الجياد. اصطفت فرقة دعم الحرس الملكي، وعلى رأسهم سعد لاستقبالهما، وجاء القائدين بسمو وغرور يليق بمقامهما، وتتبعهما فرقة من الفرسان. رحب بهما ولم يعيراه اهتماماً، اكتفى نورين بتفحصه، أما الماجوني فحث جواده ليمضي إلى حيث يرتفع إيوان السلطان فوق ربوة تتوسط معسكر الجيش. عندها شعر سعد بالصغر إلى جوارهما، ونمت في داخله رغبة في قتلها، لا يعلم إن كانت من نفسه أم تسبب فيها نرغال! أصبح مشوشاً بعد ما حدث بالأمس، ما زال مشهد الدرع على ذراعه لا يفارقه. توقف الركب عند إيوان السلطان الذي يعلو قمته تمثال لعقاب فضي فاتحاً جناحيه، واستقبل القائدين جان الصقار بترحاب وحفاوة، وقادهما إلى داخل الإيوان حيث ينتظرهما السلطان الأشرف غازي، وهنا تنتهي حدود عمل سعد وزمرته من فرقة الدعم. جذب بغيظ وحنق لجام جواده ليستدير عائداً إلى موقعه من المعسكر، كم أراد أن يكون حاضراً في اجتماعهم، ولكن هيهات ما زال وضيع الشأن، حارس مؤخراتهم كما ينعت نرغال، وليس له مكان بين أمراء وقادة غازي المقربين.

قليلون من حضروا ذلك الاجتماع في إيوان السلطان، الذي أحيط بعشرات من الحرس الملكي الذين تكاتفوا وتراصوا في عدة دوائر حول الإيوان، يحملون دروعهم الطويلة المطلية باللون الأزرق، ويزينها وسم العقاب، وفي الداخل جلس غازي على عرش من الفضة الخالصة، وعلى رأسه تاج حربه الفريد الذي كان

يومًا ملكًا لجاد المعظم. بدأ أنيقًا مهيبًا في درعه الخفيفة اللامعة ولحيته المضفرة والمصبوغة بحنة زرقاء. بعد تقديم التحيات وكلمات الود والتبجيل، جلس الماجوني ونورين إلى جوار بقية أمراء الحرب حول مجسم لخريطة عين الشمس ومحيطها، حفرة محاطة بمدينة وسور قديم، وحولها وُضعت قطع خشبية لحيثان باللونين الأصفر والسماوي، وسألهم السلطان وهو يجول في وجوههم:

- ما الوضع الذي بين أيدينا؟

نهض الماجوني، وأمسك قطعًا من الفضة على هيئة عقبان، حركها على الخريطة وتابع:

- قبل أسابيع جاءنا خبر أن جيشًا عظيمًا لمملكة الساحل هاجم عين الشمس، جاء من الجنوب وقتل كل رجال الحامية هناك، وعلقوا رؤوسهم على أسوارها. الكشافة وحياد البرق والفرسان من فيلق العقبان جميعهم يجزمون بأن عدونا يملك ما بين خمسة وعشرين إلى ثلاثين ألف مقاتل، هذا غير من بقي من العبيد والمحكومين معهم. إنهم يتحصنون، ويحيطون بعين الشمس كحلقة دفاع قوية من ورائها الأسوار والأبراج، كذلك انتهوا من بناء متاريس وخنادق دفاعية أمام كل تلك الحشود، ويقال لديهم ستة من المجانيق؛ ثلاثة منها نُصبت فوق أبراج سور عين الشمس، وكذلك معهم كتيبة أو أكثر من حملة البنادق.

بدأ الضيق على وجه غازي، وهو يتذكر بنادقه التي سُرقت في بحر الرمال. نفص الذكرى عن رأسه، وسأل الماجوني:

- تقول إن أعدادهم كبيرة، ما الذي منعهم من التقدم إلى آزاد أو الاستيلاء على القلاع والبلدات القريبة من نهر التاج؟!

- من قبضنا عليهم من العبيد الفارين يقولون إن السيدة عرضت على الناس البقاء ومساعدتها، أو الذهاب من دون عودة، وإنهم يحصنون عين الشمس كما لو أنها ملاذهم الأخير.

- لم أكن أعلم أن مملكة الساحل تقودها سيدة!

تدخل نورين بفضافة:

- مولاي، إنها ليست من الساحل، تلك مخمربة بنت جبران الأزادي، واحدة ممن يطلق عليهم الحكماء السبعة لمدعي النبوة إينال بن أنو. وساري الماجوني نسي أن يذكر أنهم يعيدون بناء روافع جديدة.

زَمَّ السلطان شفتيه، وهز رأسه قائلاً:

- تحالف بين الخونة لسرقة ثرواتنا.

أجاب الماجوني وهو يهز رأسه نفيًا:

- في الحقيقة هم كيان واحد، من يقود جيش الساحل هو بدر بن حمدون ألواندي، وهو أيضًا أحد هؤلاء الحكماء. أفلت هو ومخمربة من بين مخالف الأمير جاد الصغير، الذي وردنا من رجاله أنه ضِعَّ فرضًا كثيرة لقتلها، وقضى محاربان شجاعان نحيما، فداءً لخطة فاشلة كلفتنا الكثير، ولا نعرف مصيره إن كان قتل أو...

قاطعه السلطان بنبرة حزم، وهو ينهض عن عرشه، ويتجه إلى الخريطة في الوسط:

- لست قلقًا عليه، يستطيع جاد تدبر أمره وإيجاد سبيله إلى الغاية التي ينشد. إنه من الجلود نفسه الذي خلقنا منه، وإنه لأشد صلابة. والآن أعبروني انتباهكم، إننا أمام معركة فارقة في مصير أمتنا، تعرفون أنني أرسلت إلى مملكة الساحل جيشًا قوامه خمسة آلاف محارب يقودهم الميجل قاسم أضلان، ولكن لا خبر عنهم، ويبدو أن مهمتهم فشلت، ونال الموت منهم، وإلا لما كان عدونا يتقدم إلى أراضينا ويعيث فيها فسادًا، وإن كانوا يريدون عين الشمس، فلن نخرجهم منها وسنلقبهم إلى قاعها. ماجوني أنت ونورين لديكما ثلاث ليال، وفي الفجر الرابع تتحركان بكامل قواتكما، عبر الممر الشرقي لتلال الشمس، أتما جناحي الأيسر، لا تتعجلا بالهجوم، فقط أريد أن يحشد العدو قواته لمجابهتكم، وبعدها يُفاجأ بقدمي على رأس الجيش عبر وادي الفجر، وما إن نحدد الأبراج التي تحوي آلاتهم سنطلق عليها غضبنا، وحينها نكون قد التحمنا معهم، ولا تستطيع نبالتهم وآلاتهم رمينا، وكل ما علينا هو أن نحمل عليهم، ونفتح ثغرة بفعل موجة هجومنا الجارف، سنهبط على رؤوسهم كالشهب.

أما جناحي الأيمن فسيكون جان الصقار، هو أمير الميمنة، لن يتحرك أحد إلا بأمره المباشر، وسيشكل بقوات المشاة ومحاربي جبال الدب مساندة لي. إن نجحت خطتنا واستطعنا إنهاك قواتهم، فسأتم الأمر باجتياح دفاعاتهم الغربية، بينما يبقى جان والمشاة ومعهم الرماة لتأمين ظهورنا وبناء معسكر الحصار، حينها سنكون قد أطيننا عليهم من الشمال والشرق والغرب، أما الجنوب فمعيهم حتى الآن، لكنني أرسلت جواسيس وجياد برق لاستطلاع الأمر. لا يعلم بأمر هذه الخطة سوى نحن وذو العرف، حتى رجالكم وخيولكم يجب ألا يعرفوا وجهة كل منا وما اتفقنا عليه. إن استطعنا هزيمتهم ودرهمهم، أقسم إننا سنخوض فيها حتى تتروي سيوفنا، وتتوغل خيولنا في مياه بحر الساحل، وفي حالة حدوث خلل بالخطة لا تتراجعوا إلا بأمرى ووفق رأيي أنا. لا تريد فراژًا، وإنما عودة إلى المعسكر بنظام، حتى لا ينقلب الوضع علينا. لترتب صفوفنا وتر ما علينا فعله، لكننا لن نترك لهم موطن قدم على أرضنا.

أخذ غازي يشرح لهم تفاصيل خطته، التي لم يستطع أحد التعديل عليها، وحين سأله عن أي مشورة أو نصيحة خيبت أفواههم، لم ينطق أحدهم بشيء سوى مباركة ما وضعه بين أيديهم من أفكار وترتيب الفيالق والكتائب. تمنى لو أن قيادار كان إلى جواره، فهو الوحيد الذي كان له رأي بعد أصحابه، وودع قيادته قبل مغيب الشمس. خرجوا في عجلة من أمرهم كما جاءوا، وبقي وحده أمام الإيوان ينظر إلى وادي الفجر المنبسط أمامه، ساحة مثالية للقتال: هواء عليل، وأرض خصبة عاشبة، تحدها من الغرب مرتفعات جرداء تفصل الوادي عن أطلال الزاهرة. يكاد يرى في الأفق ظلال هامات تماثيل ملوك الشمس الغابرين، يتذكر كل القصص عن جاد المعظم الذي جاء إلى تلك الأنحاء فاتحًا.

مسح الأفق بعينه حتى بلغ الشرق، حيث ترتفع تلال الشمس، ومن ورائها عينها الشهيرة، التي لا يفصله عنها إلا أيام ويستعيدها، ليثبت ملكه الذي كاد ينسل من تحته. كان شاردًا حين التقطت أذناه صوتًا وراءه، والتفت ليجد ذا العرف يمشي باتجاهه، ابتسم ومد ذراعه من دون قفاز، فما كان من العُقاب إلا أن فتح جناحيه وقفز من الأرض إليه، داعبه الطائر بمنقاره، ومسح رأسه الضخم بصدر سلطانه، الذي ضحك قائلاً:

- انشغل الصقار عنك بمهامه الجديدة، سامحه أنا من أوكلت إليه الأمر، أتدري على الرغم من أنني أملك كل هذا الجيش الرابض على حواف الوادي، فأنتي لا أثق إلا ببضعة نفر منهم: جان وأنت يا ذا العرف. يوم الملحمة قريب، وأريدك في سمانها تقود سربك المقاتل وتربهم أنا أسياذ الأرض والسماء. سنتشد في بطولتنا الأعاني، وبعد النصر سأزين قمم الجبال بتماثيل لي ولك أضخم من تلك التي لجاد المعظم، لتبقى شاهدة على ما كنا عليه من قوة ومجد وعلو، وحتى ذلك الحين طرب يا صديقي عاليًا، اذهب للصيد، وارقب ساعة الوعى، أعلم أنك لا تخلف موعدًا.

أطلق السلطان عُقابه الذي ضرب الهواء بجناحيه الكبيرين، طار كما أمره سلطانه، وارتقى درج السماء بعنفوان، شهير والأعين تعرفه وتتفاءل به نفوس الجند، تميزه أساوره الفضية اللامعة حول ساقه وريش عرفه المنتصب على الدوام. عُقاب رمادي كأنه فقس من غيمة داكنة، سلالة نبيلة توارثها أبناء جاد المعظم، وقاموا على أمر تفرنجها ورعايتها، مباركة هي بنص الجاباسكي الذي يذكر أن العالم خلق من ريشة عُقاب السديم المقدس، وأنه من أهدى هذه السلالة المحاربة من العقبان إلى بني الأزرق، الذين تفننوا في تدريبها وتعليمها كل شيء من الصيد وحتى القتال، ومحظور على العامة والنبلاء اقتناؤها، يقولون إن أرواحها قرائن أصحابها، وذو العرف يعرف ما في نفس صاحبه وما يبتغيه، لذا انساب مع تيار هواء دافئ باسطًا جناحيه في الأعلى، والشمس الغاربة عن يمينه تحيل أطراف السماء إلى حمرة أرجوانية بديعة. ارتفع حتى صارت التلال والجبال ضئيلة تحته، وأمامه على بعد أميال نظر إلى عين الشمس، بلغها وقد ودّعت أختها الأفق، حط على قمة صخرية مستترًا بالظلال، استراح وعيناه تجوبان أرجاء المكان، وحواف الحفرة تتوهج رويدًا رويدًا، بدت له كأن خسفًا وقع بمنتصف المدينة الدائرية، حصينة هي بخطّي دفاع من أسوار وأبراج وجيش يرباط

أمامها من كل اتجاه.

الحركة على أطراف المعسكر لا تتوقف، ودوريات الحراسة والتفتيش تجوب محيط التلال، لا خيام لهم، وإنما أكواخ من أصداف كبيرة نُصبت متلاصقة تحت الأسوار، ورفعت عوارض خشبية أسقفًا عالية من أشعة السفن، لتغمر المكان بالظلال، وأمامها متاريس ضخمة وخنادق ممتلئة بالخوازيق. ومع هبوط الليل تحول وهج الحفرة إلى عمود من ضياء ذهبي ناعم، لمع في عينيّ ذي العرف الذي تأمله طويلًا، حتى أغواه فضرب الهواء بجناحيه وطار ناحيته. دار حول الحفرة في دائرة واسعة، وتردد كثيرًا في المرور عبرها، وفي النهاية حط إلى أعلى الروافع وأقربها إلى الفوهة ووهجها الأخاذ، وكان الأمر كافيًا ليراه أحد الرجال، ويصرخ مشيرًا نحوه. تجمهر الناس ورفعوا رؤوسهم بحثًا عن الشيء الذي رآه: ظلّ ضخم هبط من السماء على قمة الرافعة، رآهم ذو العرف فخرج إلى مكان أقرب لينظر إليهم، شاهده يفتح جناحيه، وساد هرج وهاج وفوضى، أول مرة يشاهدون جارحًا بهذا الحجم، وبين الحشود والجلبة خرجت مخمرية من مقرها الحجري لتبين ما يحدث، أفسح جاد والحرس الطريق لها، وفي أثناء فعله ووسط الصيحات، رفع رأسه إلى حيث يشيرون ونال منه الوجود، رأى ذا العرف يطير من فوق الرافعة والوهج الذهبي يغمر أساور ساقه، التي لمعت في عينيّ جاد حيث انتفض قلبه فرحًا، وكاد يقفز خارج صدره، وتنسم ريح الشمال الباردة.

لم يفارق مشهد ذي العرف عقل جاد، ولولا أن آلاف الجنود والعمّال رأوه أيضًا لظن أنه يهذي، في أعينهم مجرد طائر قاده التعب إلى الراحة فوق الرافعة الكبرى، ولم يشغل الأمر مخمرية التي خاب ظنها وهي تنتظر الإشارة من الطبيب ذاك، أما في نفس جاد فكان الأمر جلالًا، وله وقع أثير على قلبه، السلطان قريب إذن! راقب وجوه من حوله، وأرهف السمع للهمسات بين الطبقات العليا، لا يشك فيه أحد وهو المقرب والمفضل بين نجبائها الآن. قبل أيام كان برفقتها حين زارت معسكر الجيش خارج الأسوار، ودخل معها مجلس حكيم الحرب ملك العقيدة بدر بن حمدون، ألقاب لم يتوان ابن ألواندي عن فرضها على الجميع. وبسرعة نمت عين الشمس في عهدتها الجديد تحت حكمه، عادت الروافع للعمل من اليوم التالي للفتح، كما يُسمونه، وتبدلت الحال كثيرًا عما كانت عليه، تسود روح المحبة بين مختلف الأعراق، انصهرت الطبقات، والجميع سواء، يحصلون على وجبات طازجة من يخبزها البنجر، وحساء العدس مع الأسماك المجففة، بأنواع مختلفة يتعرفون عليها لأول مرة.

أقيمت مخابز، وفاحت رائحة العيش الطازج، وبدأت المدينة تزدهر، ولكلِّ عمله ومهامه. رمت المباني الحجرية، ووسعت الساحات، ولم تُعد هناك أسواق ومواخير بغاء، وهدمت أزقة باعة السحالي المقلية وحظائر العبيد، وأقيمت في الجهات الأربع من المدينة مستودعات تخزين كبيرة نظيفة، يشرف عليها الكتّاب من جند مملكة الساحل، يديرون الأمر بترتيب ونظام وهمة، دفعت الناس إلى العمل بكد ونفس راضية محبة للحياة. تبدلت حالهم، وصاروا يأكلون فواكه من تين وتمر وقصب، ويلتفون حول دعاة العقيدة الذين أفشوا تحية جديدة بين أهل المكان: «الجميع في عين الشمس سواء». جملة روح الحكمة التي رددتها يوم

منحتهم الحرية، تنسموا حياة جديدة، واليوم بالكاد تتعافى أرواحهم وأجسادهم. وحدهم المنقبون ذوو الجلود المحروقة لم يبدُ عليهم أي تعافٍ، هم أكثر أهل الحفرة عملاً وخبرة، ويحظون بمكانة رفيعة عند السيدة، التي تصب جام فكرها وتسخر كل ما لديها لاستخراج ما تطلق عليه «مهد الخلود». ممتنة لهم، وتدعمهم بالكثير من المؤن والعتاد. هم الوحيدون الذين لم يوقفوا الحفر حتى قبل أن تُنصب الروافع الجديدة.

وسط كل هذا كان جاد يصارع روحه، أحب ظاهر الأجواء من السكينة والمودة التي تغمر المكان، ولم يكن يؤمن بما يؤمنون به وهي تعرف ذلك، لكنه يتماهى ويتظاهر، بل ويؤدي طقوسه مثلهم، نبهه ورقية في التعامل معها ولأجلها أظهر براعته في بسط النظام، كأنه تربي على الجندية، ولم يكن بحاجة إلى الترفي، لأنها رحبت به في أثناء تناولها طعامها وفي صلواتها وجلساتها، تتعامل معه براحة لم تمنحها لأحد غيره، وسامته في الزي الأسود وشيء في عينيه الزرقاوين يجعلانها لا تكف عن تتبعه. بدلت الثياب أمامه مرتين من دون حياء، كأنه مجرد هواء على الرغم من أنها كانت تنظر في صميم عينيه مباشرة، تريده ولا تطاوعها كبرياؤها على أن تتقدم خطوة، ولا تعلم أن جبل الثلج الذي أمامها يتقد بلهيب غوايتها، وأن نفسه راودته على الرضا وتقبل ما هو فيه، وكاد ينزلق إلى بحيرة سمومها، حتى جاء ذو العرف ليذكره بما هو عليه. ولأيام ظل ينتظر سماع خبر عن جيش السلطان، يستشرف السماء بحثاً عن العقبان، وذات فجر دوت أبواق الشمال.

نهض جيش مملكة الساحل الملتف حول عين الشمس كثعبان ضخمة ينفض غبار غفوته، قُرعت الأجراس، وتجهز الجند على عجل، باغتتهم العدو بتوقيت قدومه، تأهبت الجبهات الأربع، وتراصت الكتائب خلف المتاريس، وحُشيت الخنادق بحملة البنادق، ووراءهم فرسان ورماحون ومشاة، دروعهم من أصداف بحر يكسوها البرونز، واعتلى الرماة الأبراج والأسوار. جاءهم خبر بأن جيشاً عظيماً لبني الأزرق قادم من أزاد عبر الممر الشرقي للتلال، وعلى برج خشبي عالٍ خلف الكتائب المترابطة، وقف بدر بن حمدون ينظر إلى الأفق في انتظار قدوم أعدائه، حشد نصف قواته على امتداد الساحة أمام البوابة الشمالية، ليسد بهم أي أمل للالتفاف على جيشه من الشرق والغرب.

وداخل المدينة خرج الناس من أكواخ بالكاد دخلوها بعد ليلة عمل طويلة، وبينهم كان جاد والحرس رفقة مخمرية التي التقت بعضاً من نجبائها، وتهاست معهم بشيء لم يستطع جاد سماعه، ورأى على وجوههم جدية تشي بأهمية ما كلفتهم به. تركتهم وارتقت السور الشمالي لتتنظر إلى ما يحدث، مضطربة ولا تستطيع إخفاء توترها، وهو كمن يقف على كف ميزان الهوى، يغالب نفسه على ما يمليه الواجب، يستطيع قتلها والقفز على الأشعة المنصوبة كمظلات عملاقة تحت الأسوار، ويهرب إلى سلطانه وجيش أمته، لكنه لا يقوى على فعلها وهو بين ظهور العدو، ليس بهذه البساطة!

ومع شروق الشمس بدأت تبرز من بين تلال الشمس رايات العقبان، جاء بنو الأزرق بدر وعهم الفضية وخيولهم المتينة. اقترب جاد من حافة السور ليؤكد لنفسه أن السلطان غازي ليس في تلك القوات، إنها رايات الماجوني ونورين، هذا جيشه الذي تركه في أزاد. لكنه رأى قبل أيام ذا العرف، دار في السماء ببصره

ولا أثر لطير، وتوقف جيش بني الأزرق مع دوي بوق قرن ثيران الثلج الذي يميز صوته جيداً، وتقدم الماجوني على ظهر عجلة حربية ذات جوادين، ويتبعه ستة فرسان من حملة الرايات إلى ساحة النزال، اقترب كثيراً من المتاريس والحواجز، جال ببصره في أرجاء الساحة ونادى:

- من لنا هنا نحدثه وبحدثنا؟

وعلى مهل نزل بدر بن حمدون عن برجه برتابة، ووضع خوذته ذات القرن، وامتنى برذونه المختال، وخرج إلى الماجوني وحده، حاملاً رايته السوداء ذات النجمة. أخذ يدور مستعرضاً قوة برذونه وأهفته في الدرع المرصعة باللؤلؤ، قائلاً بصوته ذي النبرة الحديدية:

- تحدث، نسمعك.

دُهِش الماجوني من صفاقته! وردَّ ببرود:

- لا شيء ليقل، فقط جئت لأرى من أحارب.

شدَّ بدر لجام برذونه الذي وقف متدمراً:

- وماذا وجدت؟!

- مختالاً يظن نفسه مقاتلاً شجاعاً، والحقيقة أنه لص سرق ما ليس له. هبَّ ادفع بجيشك، وعُد من حيث أتيت، عين الشمس ملك سلطان بني الأزرق، حدودكم وراء الصقارة.

- لا حدود في أرض الخالق، إلا ما وضعها هو، وحان الوقت لينتظر مهد الخالق من رجس العبودية التي أوقعت الناس فيها قرناً من الزمان. إن كنت تريد عين الشمس تعال وحُذها!

ألقي بدر بن حمدون جملته الأخيرة، ولكز برذونه ليصهل، ويقف على قائمته الخلفيتين، وصاحبه يرفع رايته السوداء. لم تُرَق للماجوني تلك الحماقة، أدار وجهه وأفل إلى جيشه مع فرسانه. لم ينطق كلمة مع نورين، وإنما أشار لقائد قواته بأن يبدأ الزحف. دمدمت طبول المعركة ودوت الأبواق، وتدفقت أمواج من فرق المشاة إلى الساحة الواقعة بين التلال وأسوار عين الشمس. وعلى الرغم من دروعهم الطويلة كان مقاتلو بني الأزرق يهرولون بنظام نحو المتاريس والدفاعات، لم يقف أمامهم المتطوعون من العبيد السابقين، ضحى بهم بدر بن حمدون أملاً في صد الموجة الأولى، ونالت منهم الرماح الطويلة، تساقطوا وتقهقروا من دون نظام، مما جعله يدفع ثمناً باهظاً بتقديمهم، فقد أثاروا الفوضى، وتدفقت قوات الماجوني إلى ما وراء الحواجز، ولم ييخل قائد جند بني الأزرق بإرسال الموجة الثانية، حيث شعر بفخر ونشوة وهو ينظر إلى قواته تسحق ميمنة العدو، فرح بما يحققه رجاله، وأرسل الموجة الثالثة وكانت من الفرسان، خالف ما أوصاه به السلطان، وظن أنه يستطيع كسر الطوق وحده.

انتبه جاد الواقف أعلى السور لما يحدث، تحسس مقبض سيفه وهو يرى الخطأ الذي وقع فيه الماجوني للتو، أراد لو يصيح فيه من هنا فيسمع نداءه، أدخل رجاله إلى طوق من الخنادق، وتراجع بدر وقواته إلى ما وراء الحاجز الثاني. في تلك اللحظة انتفض جاد والتفت ناحية مخمرية، حثته نفسه على أن يلقبها من فوق السور وينهي تلك الحرب، لكن مهلاً ما الذي تفعله؟! رآها تقف رافعة يديها إلى السماء، تتلو كلمات بلغة غريبة

كأنها تنادي، تطلب غوثًا أو عونًا، في الوقت الذي تهبط فيه سهام رماة مملكة الساحل على جند بني الأزرق، وخرج من الخنادق حملة البنادق، وتساقتوا جميعًا كأن صواعق أصابتهم، ووسط ساحة الدهول والدخان حُصدت الأرواح، ستة آلاف رجل رآهم الماجوني يُقتلون بفعل تهوره الذي لم يستوعبه بعد.

وفُتحت الحواجز ليخرج بدر بن حمدون وجيشه مع فرسان يتشحون بالسواد: اثنان على كل جواد، يركب كل واحد عكس الآخر، ورُبطا إلى بعضهما من الخصر، مَنْ يمسك اللجام يضرب بالسيف، والجالس وراءه يطلق نيرانًا من بندق حديثة، تطلق ثلاث رصاصات تباعًا، وتعمر سريعًا. أصابوا وقتلوا الكثير من جند بني الأزرق وفرسانهم. دوي الطلقات صم الأذان وغشي الأعين الدخان، خفت صهيل الخيول، وقُضي على مَنْ بقي حيًّا دهسًا وهم يطاردون الفارين من المصيدة، وتراص الفرسان في صفوف منتظمة، وعلى رأسهم بدر الذي صاح فيهم وراء الحاجز الثاني قائلاً:

- استعدوا... للهجوم.

وأطلق سيقان برذونه، ومن ورائه مئات الفرسان يسابقون الريح للانقضاض على عدوهم المرتبك، ولكن الماجوني تدارك أمر المجزرة، حيث دفع بكتائب فرسان أوريجا لمواجهة الهجوم العكسي الذي يقوده الفارس المختال، والمسافة بين الجيشين تقصر، وموجتان عظيمتان تقتربان من بعضهما في زرقة عيني جاد، كظم غيظه وتلفت بطرف عينه حوله، السور مكتظ بالجند يشاهدون ما يحدث، ومخمرية في منعة منه، حتى لو قتلها وقفز عن هذا العلو ربما تتحطم قدماه، ولن يمهل الرماة، يعلم أن الموت هو نهاية المطاف فلا سبيل إلا الكر حتى آخر رمق، أن يُقبل على الموت وهو يعلم بنبل فعله وسموه، وهذا ما فعله الماجوني ولم يدركه جاد بعد، أبقى نورين على رأس التعزيزات، ونزل ساحة القتال بدافع الغضب والحمية، أراد أن يرد الصاع، وللمرة الثانية نسي ما أوصى به السلطان، وضربت الخيول الأرض بوقع هز القلوب والجدران، واصطدمت النواصي والصدور، وسمع في المدينة وقع الارتطام.

التحم الجيشان، وضجت ساحة الوغى بالصهيل والسيح ودوي الصليل. قُصفت أسنة الرماح، وبُترت الأطراف، وطاحت الرؤوس، معركة ضارية نُحرت فيها أعناق الخيول، وتهاوى فيها الشجعان تحت الأقدام، وكل طرف لا يكف عن الدفع بمزيد من الرجال إلى رحى حرب لا فائز فيها. وعلى حافة السور ركعت مخمرية، ولم تتوقف عن شعوذتها، وفي أطراف السماء يجتمع غيم رمادي داكن. أيُّ لعنة تلقيها ابنة جبران؟!

شعر جاد بأن روحه مكبله، يحاول أن يرجح عقله على فضوله وهواه، مشتت الذهن لا يعرف ما عليه فعله، يعز عليه أن تُهدم أحلام المحررين، ويُنسف جو الإخاء والسلام والعدل الذي عاشه الناس في أربعين يومًا هي مدة حكم مملكة الساحل للحفرة، واليوم جاء جيش بني الأزرق ليهدم عالمهم الذي يطمحون إليه، كيف سينظرون إلى قومه الذين قدموا ليعيدوهم إلى السخرة؟ أصبح تائهاً وهو ينظر إلى الحرب الدائرة تحت سفح التلال، وليس عليه إلا أن ينتظر ويتحين. يراقب مخمرية، وبدر بن حمدون يجول رافعًا رايته، شاهراً

سيفه، ضاربًا للأعناق والأكتاف، ودافعًا مزيدًا من رجاله لصد هجوم الماجوني، الذي أراد بدوره الوصول إلى صاحب الراية السوداء، ذلك المغرور المتفاخر ذي القرن، ومن التلال بدأت التعزيزات بقيادة نورين تتدفق، سئم أمير بستان الجياد البقاء هكذا بينما رفيقه يقاتل وحده، لا يدري لم تأخر السلطان، والحرب قائمة منذ ساعات الصباح الأولى!؟

ومع إقدام نورين وبسالة قواته، بدأت قوى جيش الساحل تحبو، وتراجع بدر بن حمدون مع من تبقى من قواته إلى ما وراء الحاجز الأخير، ذلك الذي يفصل المعسكر عن السور، ولم يكد جند بني الأزرق يلتقطون أنفاسهم حتى أطلقت عليهم قذائف المنجنيق، رآها الماجوني وهي تفجر فارسًا وجواده إلى أشلاء، ثلاثة من المجانيق تطلق قذائفها بنظام وسرعة: اثنان منها على البرجين الشماليين، والثالث أمام البوابة، ألقت كرات مشتعلة تتفجر إن لمست أي شيء، أثارت الذعر بين الخيول وراكبيها، إذ راحوا يهربون من القصف على غير هدى، وفروا، والماجوني يصرخ فيهم بالتراجع والانسحاب إلى مدخل الوادي لتنظيم الصفوف، ومن فوقهم غشي الشمس غمام غير مرئي جعل جميع من في ساحة النزال وعلى الأسوار يرفعون رؤوسهم إلى السماء، وهج الظهيرة أذى أعينهم وضاحت الجفون، محاولين رؤية تلك النقاط السوداء في قرص الشمس، وتوقفت مخمرية عما تفعل وهي تعقد حاجبيها، وتنظر إلى السماء فوقها، حاولت تبين ما يحدث لعل الخالق استجاب لها، وما لبثت أن وجمت واتسعت عيناها دهشة وذعرًا، وكانت هذه حال كل من في عين الشمس ومحيطها.

تبينوا كتلاً سوداء يغلفها وهج الشمس الذهبي، عشرات منها، وربما مئات، هوت عليهم من السماء، كأنها رشقة شهب مسومة فوق رؤوسهم، طيور ضخمة ومتفاوتة الأحجام، عقبان ونسور وصقور هاجمت البرجين وجند المنجنيق، وتخطفتهم وألقتهم من فوق الأسوار. ركض الجند والناس خوفًا من أجنحة موت أثارت الرعب والفوضى، تضرب بأجنحتها ومناقيرها الحادة، تقتلع الأعين وتحمش الوجوه، وبمخالبتها القوية حملتهم من الأكتاف ورمت بهم من ارتفاع. هاجمت كل شيء ثابت أو يتحرك على الأسوار وما وراءها، وتعال الصرخات داخل المدينة، وهرعوا جماعات للاحتباء بالمنازل والأكوخ، والأجنحة الكبيرة تلطم الهواء وتثير الغبار، وعين الشمس بدأت في غليانها، وبين الطيور المقاتلة كان ذو العرف، يخلق على علو منخفض فوق معسكر جيش مملكة الساحل خارج الأسوار، حاولوا رميه بالسهم والرمح، لكنه تفادى بنعومة ومهارة سابقًا في الهواء، وأطلق نقيضه وهو ينقض على المنجنيق الثالث أمام البوابة.

ارتقى الجند على وجوههم أرضًا، ولم يكن هدفه سوى كرة النار المشتعلة، لا أحد يعلم كيف دفعها عن المقلع، لتدحرج والنيان تشتعل في إثرها حتى ارتطمت في الجدار، انفجرت بقوة، وأطاحت بالجند، وطارت شظاياها لتلتقطها الأشعة القماشية الكبيرة، وتشتعل النيران فوق مخيم جيش الساحل، فارتبكت قوات بدر بن حمدون، ونال الذعر من النفوس، حيث لم يتوقعوا ما يحدث، وأنهم صاروا صيدًا لطيور بني الأزرق الجارحة التي تلقي بهم إلى النيران. ووسط الهرج كان جاد ومخمرية ينظران إلى بعضهما، وعلى وجهها مسحة غضب، ظنت أن الخالق استجاب لدعائها، وخاب ظنها، وهي المسترة الآن عن أعين العقبان، أما

هو فكان يراقب ما يحدث ببرود يضاهاى صقيع جبل الثلج، بينما تجتاحه راحة وبهجة تعاظمتا مع سماعه دوي الأبواق الملكية تعلن وصول جيش السلطان الأشرف غازي.

دمدمت الطبول مع وقع حُطى أعداد غفيرة من الفرسان والمشاة والرماة، الذين جاءوا بدروعهم الفضية البراقة عبر وادي الفجر، رافعين مئات الرايات الزرقاء، وبين ظهورهم أبراج خشبية ضخمة تجرها الثيران، ومن حولها يدفع العبيد آلات الحصار، حشود ضخمة يتقدمها السلطان وأمراء جيشه في أبهة وعظمة أجمتا بدر بن حمدون الذي شعر بالحنق، ونال منه الغيظ، فلم يتخيل أن يأتي أحد بجيش أكبر منه! حث برذونه للتقدم إلى خارج المتاريس، وأخذ ينادي في رجاله بصوته الجمهوري الخارج من فتحات خوذته:

- اصطفوا... ولنذيق ابن الأزرق مرارة الخسارة وكيف يكون قتال أهل الساحل.

بلغ صوته مسامع مخمرية التي جاءها أحد نجبائها وهمس في أذنها، وما لبثت أن تحركت من دون أن تنطق بكلمة، تعجب جاد من فعلها، يبدو أنها تخطط لشيء ما، هرع خلفها مسلوب الإرادة كبقية الحرس الذين لا يعلمون وجهتها، لكنهم رافقوها عبر دروب عين الشمس، وخارج الأسوار حزم بدر بن حمدون أمره وقرر الهجوم، أن يبادر بإقصاء الجيش المنهك قبل أن يصل إليه الدعم، أعطى إشارته لميسرة جيشه بأن تكون حائط صد أمام موجة ابن الأزرق، شحذ أرواح فرسانه وجنده، ورفع راية العقيدة وانطلق، وسابقتة الخيول باتجاه الماجوني ورجاله المتعبين، أراد أن يحاصرهم في مدخل الوادي تحت سفح التلال، ويفنيهم بوابل من الرصاص، وأن يشغل بفعلة هذه السلطان القادم لاجتياحهم وحصارهم. ولكن غازي لم يأبه بنورين والماجوني وقواتها التي تقاتل منذ شروق الشمس. كانوا منذ البداية طُعمة لصيد أسماك الساحل.

وعلى أطراف التلال الشمالية الشرقية قاتل بدر بضرارة، بعد حصوله على مدد من القطاع الشرقي، وكذلك لم يتوانَ الماجوني عن القتال على الرغم من الإنهاك، وكان بارعًا برغم سقوطه عن جواده، إذ لم يتوقف عن مهاجمة الفرسان والراجلة من الجند، في الوقت الذي كانت جياد بني الأزرق وفرسانها يقفزون فوق تشكيلات حوائط الدروع التي نصبها مشاة الساحل، موجة طوفان كاسحة يتقدمها غازي محطماً خطوطهم الدفاعية، كانوا أكثر عددًا مما ظن بدر بن حمدون الذي تصدع قلبه وهو يشاهد ما يحدث عند الأسوار، فلم يتخيل أن يُكسر جنده بهذه السرعة، والسلطان غازي يجتاح مخيم الجيش تحت الأسوار. لم يفكر بدر مرتين، وقرر ألا يتراجع إلا وهو منتصر، أخذ يقاتل بضرارة، وأوغل في الصفوف، ووسط الغبار هاجمه فارس مترجل طويل أفزع برذونه، الذي صهل صارخًا، وتعرش فجأة وسقطا. كانت إصابته بالغة ودرعه ثقيلة، والبرذون الفزع المتألم ينزف بشدة جراء شح كبير من أسفل بطنه حتى فخذيه، لن ينجو الفحل المسكين، وبصعوبة تحرر بدر، ونهض رافعًا قناع خوذته محاولًا التقاط أنفاسه، يقف وسط ساحة عامرة بالقتلى من الجانبين، القتال الدائر حوله يغشاها الدخان والغبار، وبرذونه تحت قدميه يشخر، وقد استسلم للنهاية منهكًا، أراد بدر أن يكرمه بموت رحيم، وكانت الرحمة غائبة في ذلك النهار. تفادى بأعجوبة ضربة قوية كادت تشج رأسه وخوذته، واعتدل بسرعة ليصد أخرى من مهاجمه، الذي لم يكن سوى الماجوني، قائد

المعركة وجهًا لوجه، والتقى سيفاهما.

فوق عين الشمس هيمنت العقبان، ولم تكف عن مهاجمة رماة الأسوار، منعتهم من رشق قوات السلطان الذي اجتاح القطاع الشمالي الغربي، متقدمًا رجاله ملوحًا بفأسه، يقاتل بضراوة وشراسة لا مثيل لها على أرض النزال، يهشم دروع الأصداف، وقد ازداد نشوة وغضبًا. كانت حربه ومعركته الأولى، ولم يثنه أحد عن قيادة الهجوم بنفسه، صال وجال متعطشًا لسفك دماء أعدائه، ولم يوقفه أحد، وبث الرعب في نفوس مواجهيه الذين فروا أمام طوفان خيوله. وداخل المدينة عند مذبح صخري على حافة الحفرة، وقفت مخمرية وبين يديها سبعة نفر؛ خمسة رجال وسيدتان، يلبسون ثيابًا بيضاء ناصعة، وضعت على رؤوسهم الحليقة زيتًا وملحًا، وهي تقول بصوت طغى على هدير المعركة البالغ أسماع المتحلقين حولها، وتفيض أعينهم بالفضول على الرغم من الخوف الذي يغشاهم:

- الموت هو بداية خلود ونعيم لا ينفد، لا يناله إلا المؤمنون، وإن أعظم التصحيات هي التي تختبر إيماننا، يقاتل جيشنا خارج هذه الأسوار ببسالة. فرسان العقيدة يضحون بأرواحهم لأجل سلامتنا، ولأنهم يؤمنون بما نستطيع فعله، ونحن إذ نؤمن بأن خالقنا يقدر على تبديل الأمر، نتقرب إليه بسبعة قرابين من أرواحنا، وليس هناك أفضل من أرواحنا قربانًا متقبلًا، لينصرنا وبعيننا على إخراج مهده من الأرض.

أشارت إلى السبعة فركعوا أمامها، وجاد ينظر إلى ما يحدث بترقب، ولا يعلم ما يدور خارج الأسوار. بدأت مخمرية في ترديد صلاة بلغة غير مفهومة علمها إياها نرغال، وكانت تدخرها لتلك اللحظة الراهنة بعد أن يئست من انتظار الطبيب ذاكي، وآخر ما تريده هو أن يتسرب اليأس إلى قلوب من حولها، وترجو خلاصًا ومعجزة تعينها على ما بين يديها من ضيق، تقدمت بسكين إلى حيث تنتظر قرابينها، وتتلو بترنم الكلمات المبهمة، وتضع يدها على جبين أول أضحية وترجع رأسها برفق، وسكينها تجز بنعومة ويسر جلدها ولحم رقبتها، تفجرت الدماء وأخذت تذبجهم واحدًا تلو واحد بدم بارد، من دون أن يرمش لها جفن أو يبدي أحدهم ردة فعل! سقطوا تحت قدميها الحافيتين وسط بركة دماء، رافعة سكينها إلى السماء قائلة بصوت جهوري، تردد صداه في جدران الفوهة:

- العدل واجب، ومُلك بني الأزرق زائل، والخالق باقٍ بيهاء ضيائه. دماؤنا قربان، ولتأكل حمم الحفرة لحومنا عرفانًا، لترعد السماء وتبرق باسمك، ولتخمد نيران عين الشمس باسمك.

مع آخر كلماتها ضرب السماء برق غشي الأبصار، ودوى هزيم رعد زلزل التلال، وتكاثر غيم أسود برز من العدم فوق المدينة وساحة القتال، وفجأة هطلت الأمطار ولم يتوقف النزال، وجاد الذاهل ينظر إلى النجباء وهم يحملون جثث القرابين ويلقونها في عين الشمس، التي لم تتوهج فوهتها على الرغم من الغيم الذي غشي السماء. تصاعدت الأبخرة من القاع وخرَّ الناس سجودًا للسيدة مخمرية، وفتحت أبواب المدينة ليدخل جيش مملكة الساحل المنسحب، ولم يجد غازي وجيشه إلا الابتعاد عن الأسوار، وقد رحلت العقبان، بعد أن ثقلت قطرات الأمطار، تراجعت إلى حيث المعسكر الذي بدأ ينصب على حافة وادي الفجر. ونجح بدر بن حمدون في العودة إلى المدينة، وعبر البوابة الشرقية ماشيًا وسط جنده حاملًا رأس الماجوني في يده والخوذة في اليد الأخرى.

خوت الساحة الفاصلة بين عين الشمس وتلاها من الأحياء، لم يبقَ بها إلا دخان وحطام معسكر جيش الساحل، ومئات من جثث يغسلها مطر يتساقط لأول مرة على عين الشمس منذ مائة عام. ارتضى كل طرف بما حققه في ذلك النهار القصير، إلا جاد الذي شعر بغصة لما حاق، ومخمرية تقف جامدة بوجه صافٍ تحت المطر، تنظر إلى قاع الحفرة والدخان الخفيف المنبعث منها، لم يبقَ لها إلا أن يطول الحصار حتى يستطيع المُنقَّبون إخراج مهد الخلود، قبل أن ينقشع الغيم ويأس المؤمنون. خسر بدر بن حمدون نصف قواته بفعل اجتياح غازي، الذي أتم حصاره على الجهة الشمالية بعد أن دفع كلفة باهظة. وفي الشمال البعيد قرب نهر التاج كان سعد يقف على ربوة عالية، ينظر إلى الغيم في الأفق الجنوبي، وبداخله تردد ضحكات نرغال.

عواء أنس وحشة الليل، ثلاثة أيام مرت منذ استيلاء جيش غابة الظلال على الحصن، غنموا الكثير من العتاد، ونصبوا معسكرهم على ضفتي النهر الكبير. اتخذ فرسان الشمس التابعون لشاهين من الطابية الشرقية مستقرًا لهم، بينما بقي جيش غابة الظلال على الجانب الغربي، وكلاهما أقام دفاعات مضاعفة على الضفتين. كان الحصول على الحصن العتيق أعظم انتصاراتهم، على الرغم من أنه سُلم إليهم بمحض إرادة قائد حاميته، وعلى اتفاق لم ينفذ فيه شاهين جانبه، واصطدم الحكمदार بملك غابة الظلال كتيبي، ودار بينهما نقاش حاد، وتدخل الدرويش الذي رفض أن يُجلى سبيل قاسم أصلان، وعلى وقع الخلاف بين الحلفاء، أُعيد الأسد العجوز إلى الأغلال، وهذه المرة وُضع في ساحة الحصن رفقة عدد كبير من جند الحامية، قُدّم إليهم الطعام، ولم يُخل عليهم بدلاء الماء، كانوا تحت حراسة مشددة طوال الوقت، وتحيط بهم قردة البابون الشرسة، وبين الحين والحين يظهر الذئب الذي يعوي في عمق الليل وحيدًا، وعيناه الحمراوان ترصدان المبجل الأسير من بين الظلال، ولم يكن دهب وحده من يراقبه!

تجلت أمام الدرويش ذكريات لم تمحها أظافر النسيان، فلم ينسَ الفقد والحزن، وصدى صرخاته التي لم يسمعها إلا في أعماق نفسه، كلما نظر إلى الرجل رأى وجوه عائلته الصريعة، وغازي وزمرته يقفون فوق جثثهم، وهو محاصر في الزاوية، جريح ينزف، تكالبوا عليه وسلموه على شفا الموت إلى غازي ذي القلب الأسود، ابن عمه النحيل الخجول! غير رابط الدم بينها كانا صديقين مقربين، أميرين من ستة عشر وريثًا، خانهم غازي وغدر بهم جميعًا، ومن لم يُقتل بالسم مات بالسيف، وبقي هو هاربًا يحاول النسيان، ودومًا للقدر رأي آخر، أعاده إلى مجريات الحياة بعد عشر سنوات قضاهها رفقة ذئبه، يجوب الصحاري والغابات، ويتوارى عن أعين الرُحّل والغرباء، والآن بين يديه أحد قتلة عائلته ومدبر الانقلاب الدموي، ها هو ذا يرى المبجل ذليلاً يائسًا، تبعث هيئته مرارة الظلم في نفسه من بعد سنين، نسي فيها مذاقه، يستطيع أن يواجهه بحقيقته كما فعل مع سليمان ناب، أو يقتله وينتقم لذويه ويُمثل بجثثانه، ولكنه لن يفرط في الأسير الثمين أبدًا، وهو الذي وعد كتيبي بأنه سيعيد إليه امرأته ووليدته.

في الشرفة الغربية لمخلب العتاق، وقف هارون النردى ينظر إلى السماء وإلى نجومها. كان على يقين بأنه فقدَ حظه إلى الأبد، ومن الغباء أنه ترك نرديه وراءه، تنهد وأخذ ينظر إلى الوهج الذهبي البعيد فوق ظلال الأفق، إنها عين الشمس، بدء الحكاية، وأصل الشرور، واللعنة التي أصابت الأرض. هل يُمكن أن يكون الشر المدفون بداخلها على وشك الخروج؟! تداهمه ومضات من رؤى، يرى فيها حفرة عميقة في قاعها أناس يحترقون، رأى وجوههم، وحفظ ملامحهم، كأنه يعرفهم، ومن حولهم دخان كثيف، ومن تحتهم حمم تجري كالأنهار، وكائن بشع ضخمة الخلق ينهض محطّم الجبال، يُشبه تلك المخلوقات التي لا يكف عن رؤيتها في أحلامه، يقتل ويهلك كل من يقف أمامه. أفاق هارون من خيالاته، كأن هناك شيئًا يجذبه إلى تلك الجهة من الأرض. حاول أن يحدث صاحب الذئب بضرورة ذهابه للبحث عن الكهف، لكن الرجل رفض حتى

الإنصات. أخبره هو والعنبري بأن ينتظرا لقاء الملك، وهو من سيحدد مصيرهما، وأودعهما بتلك الردهة بعد أن ردَّ إليهما كل أغراضهما، حتى جوادهما وُضعا في حظيرة الحصن، ويقدمُ إليهما سلام كل ليلة بالطعام والشراب، يجالسهما ويرمي الكثير من الأسئلة، وكان نيار العنبري لا يستوصي بالثرثرة، فاضت كؤوس الخمر، وانسابت الكلمات. شرد هارون مرة أخرى، وراح يرتب كل ما حدث منذ أن التقى الضرير. وجود الرمح بيد ذلك الملك البربري يؤكد أن هناك أمراً جليلاً يحدث، وربما الجميع يسير وفق مخطط كبير. أفاق على كلمات سلام الذي كان يقول للعنبري:

- يطلقون عليه سيد النار.

وجاءهم هارون ليجلس بجوارهما قائلاً:

- هذا ما نود الحديث عنه مع سلطانكم.

ضحك سلام، ولوح بيده:

- لا أعلم عن أي سلطان نتحدث، إن كنت تقصد كيميبي فهو ملك غابة الطلال، وقبلها كان أمير قبيلة الرمح الفضي، وأنا لست تابعاً له أو لأحد من كل هؤلاء. أما الآخر، صاحب الدرع المذهبة الأنيقة والفرسان ذوي الخيول القوية، فهو آخر وريث لبني شمس، يدعى شاهين وهو رجل دموي لئيم الطباع.

سأله نيار العنبري باستغراب:

- وأنت أمير أم قائد جند؟!

- لا، أنا مغنٍّ تلاعبت به أنعام الحياة، أشدو على أوتار القدر باحثاً عن شغفي، وعمل بسد رمقي. أحببت اللهو ما استطعت إليه سبيلاً، وفجأة لم أجد حولي أحداً أعرفه إلا هؤلاء القوم، يريدون النار لأنفسهم واستعادة أهلهم من الأشر، حتى نسيت نفسي، وفقدت رغبتني في الغناء مجدداً. لا أعلم لِمَ احتفظ بالناي والقيثارة حتى الآن؟! ربما لأن هناك أغنية أخيرة يجب أن تُشدد في حق الرجل الذي أنقذني من الموت مراراً، تستطيعان القول إنني هنا لأجل سداد دين لصديق قديم.

سأل هارون النردي:

- أتقصد صاحب الذئب؟

- لا، الآخر كان يُدعى بياض، بياض القرش، وهو من عرفني على الدرويش أبي الذهب.

لم يدخر سلام أي حكاية في جعبته، سهر معها حتى الفجر يحكي لهما عن البوغاز حيث نشأ وكبر. شرب زجاجة خمره، وأخذ ما كانت لنيار، واسترسل فيما كان من أمر بياض القرش، وسعد البرغوث، وشاهين الحكمدار. حدثها عن حياته التي كادت تنتهي في غياهب الغابة، لولا الضخم طيب القلب، وحرائق الغادر التي أشعلها أينما حطت قدماه، يصفه أهل الغابة بأنه سيد النار، ويظنون أنه المعني بنبوءة قديمة من زمن الحوريات، والعجيب أن يجد الذئب الرمح المفقود، ويعيده إلى من يجب أن يحمله. أصبح الجميع يصدقون نبأ الأقاويل، وأنها واقعة لا محالة، وأن الصراع بين سيد النار وحامل الرمح الفضي حتمي. نام سلام بعد أن تعب لسانه وعقله من كثرة الكلام. ساعات من الحكمة التقط منها هارون ما أراد، وأخذ يربط خيوط ما يحدث على أرض تلال الشمس، وينسج متن الحقيقة من خلال رؤاه التي عاينها منذ أن التقى نرغال وكلمات العرّافة وحديث سلام وقاسم أصلان، وما رواه قرشي في اللفائف على لسان من أساهم «أسياد السماء».

انقلب العنبري على جانبه لينام، يعلم أن صاحبه مشغول البال بات قريباً من فك اللغز، وما زال ينقصهما طرف أخير.

مع الشروق وفي غابة قديمة نسي اسمها، تقع بين مخلب العقاب وأطلال الزاهرة، قبضت فرقة من الفرسان التابعين لشاهين على ثلة من الرعاع، اقتادوهم إلى الطابية الشرقية حيث مقام سيدهم. وبعد استجوابات طويلة عُرضوا على شاهين الشمسي الذي أصر على حضور ملك غابة الظلال كتيبي صاحب الرمح، أراد أن يسمعه ما لدى المأسورين الجدد، وتجاور الرجلان على كرسيهما ينظران في وجوه بائسة، ثلاثة عشر رجلاً بالكاد تنمو شعور رؤوسهم الحليقة، متسخين يرفلون في أسمال بالية، ارتجفوا حين رأوا ذهب يدخل القاعة ويطوف حولهم، تشمم الهواء حولهم، وبعدها جلس بين الرجلين اللذين استغربا فعله، كأنه يعوض غياب صاحبه عن المجلس. ارتعد المأسورون من مظهر الذئب، وزاغت أبصارهم المرتقبة بدهشة لم تحل من خوف. الحياة في عين الشمس أنستهم كيف تكون المخلوقات، ظنوا أن كل شيء خارج الحفرة ما هو إلا وهم وضياع، كانوا يريدون الذهاب إلى البوغاز بعد فتح عين الشمس وتحرير قوات الساحل لهم، استمعوا إلى خطاب السيدة التي خيرتهم بين البقاء أو الرحيل، وانطلقوا للحرية على غير هدى، لا يحول بينهم وبين الأفق الشاسع حائل، ولأسابيع راحوا يجوبون الشعاب والوديان، يلتقطون ثمار التوت البري، ويطاردون الغزلان، وأجمعوا على ألا يدخلوا قرية أو بلدة فيقبض عليهم، وأوقعهم حظهم العاثر في مسير جيش بني الأزرق المرابط على مدخل وادي الفجر، وقبل ليلة شاهدوا تحرك هذا الجيش جنوباً، وعلى رأسهم السلطان، ومن فوقه مئات من الجوارح في طريقها إلى عين الشمس. قرروا الابتعاد عن المخاطر، ودخلوا الغابة هرباً واختصاراً للطريق. والآن أضحوا أسرى لجيش آخر عجيب، لم ينزلوا أعينهم عن كتيبي ووجهه الملطخ بطلاء الحرب، وتاج الأنياب والعظام على رأسه، أما الجالس بجواره في درع ذهبية نُقش على صدرها وسم الشمس فسألهم بفضول:

- ما اسم السيدة التي ذكرتم أنها تحكم عين الشمس؟

رداً أحدهم بسرعة:

- مخمرية، يلقبونها بروح الحكمة.

وقال ثانٍ:

- إنها من آزاد.

وأضاف ثالث:

- لا، إنها تتبع جيش مملكة الساحل.

بدا على شاهين شيء من بهجة، وارتفع في القاعة صدى المهمات بين الأسرى، أخرسها الذئب بزجاجة واحدة، كانت كافية لأن يسود القاعة السكون، حتى نهض كتيبي، وتوجه إليهم يدق رمح على الأرضية الحجرية:

- هل تحارب هذه السيدة مع بني الأزرق؟

ردَّ شخص آخر تبدو عليه الحكمة، وإن ظل صامتًا طول الوقت:

- بل تحاربهم. إن لديها جيشًا عظيمًا، يرتدون دروع أصداف، كأنهم خرجوا من البحر، وخيولًا ضخمة للحرب وشد العربات. رأيتهم من فوق التلال الغربية، يفترشون الأرض حول عين الشمس، لا يستطيع أحد إحصاء عددهم.

- لكنكم ذكرت أن جيش سلطان بني الأزرق تحرك ناحيتهم؟!

- نعم، وهو جيش أكبر بكثير من قواتهم، وربما يقاتلون بعضهم الآن. صدقني أيها الملك تلك هي حكايته وما رأيته في طريق حريتنا، ولا نريد سوى حريتنا والعودة إلى ديارنا وأهلنا مرة أخرى، ونحن بين محكومين سابقين وأناس يتوقون إلى تذوق الحياة ورؤية العالم خارج الحفرة. إننا ضعفاء حتى على حمل السلاح، ولا نعرف كيف يكون القتال، يمكنك سؤال رجالك الذين لم يجدوا معنا إلا عصيًا وأفرع أشجار.

- هل تستحق عين الشمس تلك الحرب؟

- إنها منجم ثروات لا ينضب، لكنهم يريدون شيئًا آخر. تقول السيدة إنه بداخلها، إنهم طائفة مريبة، وقد عرضوا علينا البقاء والعمل معهم، لكننا فضلنا الرجل. أيها الملك امئن علينا بعفوك، ولنتمس إحصانك إلينا بأن تطلق سراحنا. وأقسم إننا لن ننظر ورائنا، ولن ننطق بشيء عنكم. جميع من حولي يريدون رؤية البحر الذي طالما سمعوا عنه.

بعد طول صمت صر فهم كتيبي، وأمر بإطلاق سراحهم، وتزويدهم بما يعينهم في رحلتهم، كل هذا على الرغم من غضب شاهين الذي غادر كاظمًا غيظه، وخرج من ورائه ذهب، يعلم أن الرجلين لا يقبل أحدهما قرارات الآخر، يتعنت صاحب الرمح في كل أمر، ويظن أنه اكتسب حكمة وقوة من سلاحه الجديد، وأن شعورًا بالسكينة ينساب إلى روحه، كلما حزبه أمر قبض أصابعه عليه ليمنه بقوة وصفاء روح، يساعده على اتخاذ القرارات واستبصار الخيارات، لم يفصح لأحد من المقرين بما يرى من أحلام، ولا عن نبضات الرمح الذي بين يديه، كأن به حياة، إنه هبة من الآلهة ليستعيد به أهله من الأسر، هو المنشود في نبوءة الأولين، وسيذكر على مر التاريخ بأن كتيبي ملك غابة الظلال سيد الرمح الفضي، الذي هزم الشر ووسع ملك أجداده، وأخرج قومه إلى نور الكون الشاسع. لم يعد يعتد بأي نصيحة، ولا ينصت للدرويش ولا لمجلس شورى حربه، ووحده ذهب الذي يعلم أن ابن قرية الغابة تبدل، وأن شرًا ما يتوغل في روحه!

على القنطرة الحجرية الواصلة بين الطابية والحصن، وقف الدرويش وحيدًا، صامتًا ينظر إلى مياه النهر الجارية من تحته، الجو صحو، والشمس هبية مشرقة، وهدير تدريبات الجند وبناء الدفاعات يتمازج مع خرير النهر الجاري. بلغه أمر الأسرى من العبيد الذين قبض عليهم، وأطلق كتيبي سراحهم بعد أن التقاهم، وبات يعرف الآن أن غازي على بعد أميال قليلة ناحية الشرق. كان في حيرة شديدة وكرب لم يزُرْه منذ سنين، مشوشًا تحيط به الهواجس وتحاور الأصوات بداخل عقله، شاردًا في غابات الذكريات، لم يشعر بقدم شاهين الذي جاوره قائلاً:

- أين كنت؟

انتفض والتفت إليه محاولاً إلقاء ما في نفسه من قلق إلى النهر، ليجرفه مع تياره القوي، قال وهو يعتدل ليقابله:

- كنت أتفقد سلام وتجهيزات الجند، وذهبت لرؤية الرجلين هارون ونيار. عليك أن تقابلهما وتسمعهما وكذلك كتيبي.

- على ذكر الأخير، إن ظل يتخذ القرارات وحده ويفعل ما يريد، فسيضيع كل نصر حققناه! بالأمس القريب أنت ناصرته عليّ، ومنعتماني من تنفيذ اتفاق عهد بيني وبين قاسم أصلان، واليوم يطلق سراح عبيد يحملون الكثير من الأخبار.

ردّ الدرويش باقتضاب:

- قاسم أصلان سيبقى حتى نبادله بزوجة كتيمني ونهني الحرب.

مال شاهين برأسه لينظر في وجهه وردّ متعجباً:

- أيّ حرب هذه التي سنتنهي؟! إنها بدأت للتو. غازي ابتعد كثيرًا عن عيش العقاب، ومهما كان عدد قواته ستنهك مع كثرة المعارك وطول مسافات السفر، وهناك في عين الشمس جيش الساحل حلفائي القدامى. يمكننا الانضمام إليهم لقتال السلطان، علينا أن نغتم ما نستحق من ذلك اللعين، ونسحقه في نزال حقيقي ومعركة من أجل ما نريد.

- كيف وأنت تريد إطلاق سراح قاسم أصلان، الذي اطلع على قوام جيشنا، ولديه من الفطنة ما يعرف به ما نخطط!

- بل نطلقه ليذهب إلى العاصمة ويعيد زوجة كتيمني، بينما نخوض نحن معركتنا ضد سلطانه. هذا كان اتفافي معه أن يجلب إليكم الأسرى الباقين، بعد أن حررت ما عثرت عليه منهم في البوغاز.

- هل تظن أن قاسم أصلان بهذه السذاجة؟! إنه خائن لا يروي ظمأه إلا الغدر، لن يفرط في غازي.

- ومن قال إنه سيخونه، بل سيجلب السلم بفعلته هذه، إنه رجل دولة ويعرف النظام، والكلمة سيف على رقبته، ووعدي بأنه سيفعل كل هذا.

- ما أسهل الكلام حين لا يكون لديك غيره! لا وعد لخائن.

- وما أدراك أنت به وبعود الرجال والقادة المبجلين؟!

نطق الدرويش بنبرة غضب:

- لأنه قاتل عائلتي!

وَقَع رده كان ثقيلاً على أذني شاهين، الذي فغر فاه، ونظر في وجهه وابتلع ريقه، وقال باستغراب:

- ما الذي تقوله؟!

التقت أعينهما، وربما المرة الأولى التي يلحظ فيها شاهين، أن عيني أبي الذهب زرقاوان داكتان وهو يقول:

- أنا الأمير برهان بن نصر الدين بن الملك عامر الطيب بن جاد المعظم. قُتلت عائلتي وأفراد سلالتنا على يد غازي ابن عمي، وكان معه حينها قاسم أصلان وبعض من الخونة، طاردوني ولم يرجعوا حتى ظنوا أنني هالك لا محالة. واليوم جُمعنا على قدر لغاية لا نعلمها، تغالبني الرغبة في الانتقام، وجز رقية ذلك الكهل المرتجف، وهذا قصاص عادل لما اقترفته يداه، لكنني قطعت وعدًا لكتيمني بأن أعيد زوجته وأقاربه، وأعلم أن القاتل الآخر على مقربة من هنا. أنت لا تستطيع أن تعي كل هذه الحيرة بداخلي! القصاص المؤجل منذ عقد من الزمان، قد أفوت فرصته الآن وإلى الأبد، لأجل وعد قطعته لأناس تسببت في هلاكهم ودمار عالمهم، وتأتي أنت وتقول إنني لا أعرف مقدار وعود الرجال!

بقي شاهين صامتاً بعض الوقت يحاول استيعاب كل ما قيل، تضارب كل شيء في رأسه، وبدا ذلك على

نبرته وهو يقول:

- مهلاً يا رجل! يبدو أنني الذي لا أعرف مع من أتعامل، إن كنت من بني الأزرق فهذا يعني أنك تريد العرش، ثم لماذا تفصح الآن عن هذا؟! ولم عليّ أن أصدقك؟!

- لا أسعى إلى ذلك، ولا أريد أن أكون سلطاً، ثم ما الذي سيختلف إن كنت الدرويش أبا الذهب أم الأمير برهان أو حتى بياض القرش! كل ما أريده هو الوفاء بديني لهؤلاء القوم، والعودة إلى وجاري في الصحراء مع ذئبي، ولا أظن ما أريده يتقاطع مع ما تطمح إليه.

- وماذا عن انتقامك ممن قتلوا عائلتك؟! يا رجل إن غازي في طريقه إلى عين الشمس، لم تقف الآن على حافة النصر تنظر إلى القتلة ولا تعاقبهم، كيف يعقل هذا؟! إن كنت من سلالة جاد الكبير كما تقول، وإن غازي هو ابن عمك فأنت تعلم ما لديه من قوة، وإنكم إن بقيتم هنا فسينهي السلطان حربه ويستعيد ما سلب منه، ويأتي إليكم ليس للتفاوض ولا تبادل الأسرى، بل لإبادتكم

جميعًا، ولن يتورع عن التضحية بوزيره الأسير لديكم. اسمع يا درويش أو أبا كان اسمك، أفرج عن قاسم أصلان في سبيل أن يعيد الأسرى، حُذ عليه ميثاقًا بما لك عليه من قصاص إن كنت من تدعي، سيعرفك وأراهن أنه سيفعل أي شيء في سبيل حياته وحفظ ما تبقى من كرامته، ذُلَّ الرجل من بعد عز وسلطة، ولعلك ترى ذلك على هيئته. أرسل معه بعضًا من رجالك أو من تثق بهم، ويمكنني مساعدتكم، وأن أدفع بوفد من فرساني مع الرجل، ليتأكدوا من وصوله إلى عش الغُقاب، وليكونوا وفدًا راقبًا للتفاوض مع السلطنة. ما تريدونه هناك في الزرقاء، أما هنا فلا يوجد سوى الحرب.

- وماذا بعد؟

- تضرب عُقابين بحجر واحد، تأتي معي بجيش الغابة، وأعلم أن كنيبي ينصت لك، وننضم إلى جيش مملكة الساحل ونهزم غازي، تحصل على انتقامك وتشارك من القاتل، وكذلك تكون ضمننا الأسرى في كل الأحوال.

- لن يوافق كنيبي على أن يتحرك الجيش إلى الشرق، لكنني أظن أن هناك شيئًا ربما يستطيع إقناعه بالذهاب إلى عين الشمس.

- وما هو؟!

- شر أعظم من كل أعدائنا ينمو هناك، شيء له علاقة بالرمح الفضي وأسطورة سيد النار التي يبدو أنها تتحقق. لا أستطيع أن أشرح لك، وأعتقد أنه حان الوقت لتقابل الرجلين اللذين كانا برفقة قاسم أصلان، فإن لديهما ما يوضح الكثير من الخبايا.

في المساء وبينما يومض برق خاطف في كبد غيم الشرق البعيد، اجتمع قادة جيش غابة الظلال، كتيبي والدرويش وشاهين، وذهب الذي وجد له مكانًا في زاوية القاعة حيث الظلال، وحضرت تيانا التي جاءت مع قواتها قبل المغيب، وتركت وراءها من ينهون بناء أول قلعة لقواتهم خارج غابة الظلال، وقدمت لتنتظر إلى نصرهم الكبير. تبادلوا الأخبار وتناقشوا في بعضها، ومال الدرويش إلى أذن كتيبي، وطلب منه أن ينصت للشورى، وألا يحجف شاهين حقه، لا يمكنهم الاستغناء عن الرجل وفرسان الشمس خاصته. استمرت الأحاديث الجانبية، حتى جاء سلام، ومعه هارون النردى ونيار العنبري، وأدخل الرجلين إلى وسط القاعة الدائرية، وتراجع هو ليقف بالقرب من أحد الأعمدة، تركها لتتلقفها نظرات الفضول، ولا يعلم أحد ما في جعبتهما إلا أبو الذهب الذي أشار لهما ببدء الحديث، وكان نيار أول من نطق:

- نحن رجلان شاءت الأقدار أن نلتقي، كما شاءت أن نقف أمامكم اليوم، لنؤكد صدق نبوءة الرمح الفضي. أنا نيار العنبري بخار معامر، ولديّ هنا لفائف نقص علينا الكثير من الخبايا، التي لا نعرفها عن عالمنا وأرضنا، لكنها كتبت بلغة لا يفك طلاسمها سوى رفيقي، هارون النردى.

تقدم طويل القامة، ذو الملامح الحادة، وأخذ اللفائف من يد صاحبه قائلاً:

- أيها السادة، إن ما سأرويه عليكم قد ترونه ضربًا من الجنون، لكن يبدو أننا في لحظة فارقة من تاريخ هذه الأرض، الذي بدأ قبل آلاف السنين من سقوط النجم.

في عالم آخر غير الذي نعرفه، خلق الإله الواحد العظيم كائنات أسمى وأقدم من البشر، لخدمته ولتنظيم أمور الحياة بين المخلوقات الأخرى. في البدء كانوا سبعة، وأصغرهم سُمِّي نرغال، سيد النار، الذي وُكِّل بعالم الموتى وحفظ البرزخ بين العوالم، بعد أن وُزعت على إخوته مهام رَها أرقى وأنبل وأهم مما مُنح هو، تطلع إلى أن يسود الدنيا وفق نظامه وهو، سمع عقول الخلائق، وأفسد الحياة نائراً بذور الحقد والكراهة، وأشعل نيران الغيرة والحسد بين الإخوة والأقارب، وحل الخراب على المدن والمروج. إنه البشر الأسود الذي يكمن في صدور الأحياء، والظلمة التي تبت الخوف في نفوس الجميع. قدراته العظيمة جعلت منه إلهاً في نظر أتباعه، الذين بجلوه وعيدوه بإخلاص، ومنهم استمد قوته وجبروته. أحيا الموتى ليقاتلوا في صفه وتحت رايته، سفك الدماء، وقاد جيوشه مرتقباً درج السماء إلى حيث يسكن إخوته وعشيرته، وكانوا ينتظرونه في مجلسهم العظيم. استعرض قواه أمامهم، وحاول أن يقتل الكبير فيهم، وبحيلة منهم استطاعوا أن يهزموه، ويكبلوه بأغلال من طلاس، ووضعوه داخل تابوت، ودُفِن حياً بقلب نجم مستعر، وألقوه إلى سديم بعيد حيث المنفيون من قبله، ولكن غضبه وقهره جعل سجنه يتعد بهم في الفضاء، ومرت سنوات لا تُحصى وهو في سبات عميق بداخله، حتى رمته الأقدار إلى الأرض!

كانت قديمة، وقد شكّلها الخالق الواحد بيديه، جزر كبيرة يحدها الماء من كل جانب، وتتصل فيما بينها بأرخبيل، وتتوسطها قارة عظيمة ذات بحار وأنهار، تطوف في أرجائها حيوانات وطيور لم يبقَ منها الآن إلا ما ندر، وتسكن جنباتها أعراق مختلفة من البشر، وبينما كانت تحكم الجزر العجيبة ممالك عدة، كانت إمبراطورية عظيمة تملك القارة الشاسعة، وكان الداغريون حكام النور الأوائل، وكلّ البشر كان فيهم الطيب والخبيث، وتباين حكمهم بين القوي والضعيف، حتى تهاوت أرواحهم في مستنقع الفساد والزبيلة، استباحوا حرمت بعضهم بعضًا، وركضوا خلف الشهوات، والبحث عن لذة لا تنفد، انتهكوا كل مقدس، ونسيت قلوبهم الإله الواحد خالقهم رب الكون. اعتدوا وظلموا وقاموا بأشياء شنيعة، وكان سقوط النجم هو عقابهم، وما استحقوه إلا بظلم عظيم ارتكبه، رآه كل حي على الأرض وهو يهوي من السماء مشتعلًا، ومات خلق كثير إثر الموجة الساخنة الأولى لارتطامه، وبعدها جاءت الزلازل

التي محقت الجبال وخسفت المدن والبلدات، وانفجرت براكين الأرض بحمم أذابت الهضاب، وابتلع البحر أكثر من ثلثي اليابسة، ومعها الكثير من الأرواح. تغيرت التضاريس، وتبدلت الحياة على قن بقي حيًا. ولم يكن أحد ليعلم سر المسجون داخل النجم مشتعل القلب، مقيد داخل التابوت بطلاسم تبقيه حيًا ليشهد العذاب الأبدي، وبعد دهر أطلق الناجون على الفوهة عين الشمس، وظنوا أنها هبة الإله.

ما وقع على الأرض بلغ مسامع أسياذ السماء، وانتشر الخبر بين الكائنات، وجاء بعض من أتباع نرغال لبيحثوا عن أغراضه، وكانوا يظنون أنه مات، حشدوا جيوشًا للبحث عن درع ورمح، كانا قد أقاهما الأسياذ إلى نيران النجم، ولكنهما لم يذوبا في الحمم بل سقطا على الأرض، أولهما في أطلال الرخ، حيث احتفظ طائر عنقاء عظيم بها تحت عشه، وحاولوا أن يستعيدوها، لكنهم كانوا سيئي الحظ أمام طيور الرماد، والرمح حصلت عليه حوريات البحر الأوسط، ونقلته معهن إلى غابة الظلال، وقبل أن يفني جنسهن منحنه إلى رجل أمين حفظه، ورثته من بعده أجيال من ذريته، حتى أغوى الرمح أحد الأحفاد، وقليل من الرجال يصمدون أمام شهوة النفوذ والسلطة والقوة المطلقة! خرج في يوم ممطر متنبعا ما يظنه صوابًا، ودخل عمق جبال الإفرين يمني نفسه بالحصول على كنز لا مثيل له، ولكن لم يكن هناك سوى الغيلان، وأحد أتباع نرغال. كائن خُلق من ظلمته، وُفي إلى الأرض باختباره من عالم الأسياذ، وسخر روحه للبحث عن أغراض سيده، حتى جاءه الرجل حاملا الرمح الذي قاده إليه. وبدأ القتال.

مات المخلوقان البائسان، وظل الرمح مستقرًا بجمجمة تابع سيد النار، الذي استيقظ من سباته قبل ذلك الوقت بمئات الأعوام، شعر بكل يد جاءت لتلتقط المعادن الثمينة من على سطح سجنه، وتسرب إليه أحلام الناس وأمانهم وكل ذكرى عاشوها. ومن وفرة ما في عين الشمس من كنوز، وجد الجنيع مكانه في قلوب البشر الفانيين، الذين تهافتوا على قطف عجين الحفرة، واستطاع أن يعلم ما ينتعون وما ترنو إليه نفوسهم. جنس بدائي لا يشيع، متقلب الأهواء. لألف عام ظل يتغذى على أسرارهم وما تكنه صدورهم، يمتصها من أرواحهم مقابل ما يلتقطونه من نفائس الأحجار، عرف عنهم أكثر مما كانوا يعرفونه عن أنفسهم، حتى جاءت عاصفة دامت لأسابيع، وأظلمت فيها السماء، وهطل المطر بغزارة فوق تلال الشمس، وتصلب قلب النجم، وضافت جدران التابوت على جسده، وبما تبقى له من وعي تسرب كبخار من بين الشقوق، ناجيًا بروحه غير المرئية، وتاركًا جسده داخل زنزاتته. وللمرة الأولى منذ خمسة آلاف عام يخرج من سجنه، ليجد عالمًا غريبًا أثار فضوله. وليضعة أعوام راح يهيم في جنبات ملك بني شمس، الذين نالهم منه بلاء عظيم، أفشى الطاعون والأوبئة في الأرض، طغًا منه أنهم سيهرعون إلى طلب الرحمة منه، لكنه ليس إلههم ولا يعرفونه، ولم يكن حينها سوى طيف في مهيب الريح.

بدّل خططه من بعد تدبير، واستطاع أن يغوي النفوس، وبلج إلى مكمن الأرواح. اتخذ من أجساد الناس وعاءً له، يمتص حياتهم وفوتهم في سبيل أن يبقى محتفظًا بقدرته، وكان من بين هؤلاء أمير قريب لبني شمس يُسمى الديناري، سفك دماء الأبرياء من عشائر بني الأزرق، وألصق التهمة بولي العهد الأخير من سلالة حكمت الأرض لألف عام، وبعدها أغوى جاد ذا العين الزرقاء، وبث في روحه الانتقام، حتى قضى الرجل على أعدائه وهدم ملكهم بحيلة نرغال الخبيثة، ولسنوات ظل سيد النار يحاول إقناع جاد الكبير بأن يملك عين الشمس، وأن يسخر الناس عبيدًا له، يحفرون ليخرجوا جسده، واصطدم بأهواء البشر وما يطمحون إليه، ولم يكن له سبيل إلى ذلك، وكان كلما اقترب ابتعد أكثر، حتى جاءت فكرة لثيمة.

إن كان الناس يريدون العدل ومن يحقق أمانهم، فهم يريدون بالضرورة إلهًا يضع لهم شريعة ومنهاجًا، لذا لجأ إلى كهف قرب بحر العواصف، وفي طريقه إلى هناك استطاع أن يسلب جسد رجل ضريب، وهناك وجد ما سمع عنه من الرُّجُل والمُنْقَبِين، الجدران كُتبت عليها قصته وحوادثه مع الأسياذ، وتاريخ هذه الأرض من قبل أن يهبط إليها، وكل هذا بلغته التي يعرفها. ضحك كثيرًا ولم يحاول أن يمحو شيئًا، بل استقى منها أسس خطته الجديدة، أن يكون إلهًا لأهل هذه الأرض، ألف نصوصًا ووضع أحكام شريعته، كل ما أراده هو الحصول على صلواتهم ليستعيد قواه، وسواعدهم ليستطيعوا إخراجه. ومضت السنون، وراح يبحث عن أتباع يؤمنون به، من سيجعلون له يدًا فوق كل البشر، ويفرضون نظامه الذي يريد، اجتنب لنفسه رجلًا أوهمه بأنه نبي وجعل له حكماء، ووزع عليهم بعض قوته ليشحروا الناس بشعوذته التي علمها إياهم. واليوم أصبح قريبًا من مسعاه بعد التلاعب بقول الحكام والنبلاء، هو من يغذي الشرور في النفوس غير السوية، يحوك المكائد، ويقلب أهواء الناس، هو الذي أثار العاصفة في كتيان العقارب وقتل جند بني الأزرق، هو الذي أهلك جيش قاسم أصلان. إنه يتلذذ بالانتقام من أحفاد جاد المعظم الذي خذله، وهذا عدله الواجب بفناء وزوال ملكهم، يملك الآن جيشًا من العبيد وعسكر مملكة الساحل، ولا يفصله عن إخراج جسده إلا القليل، بينما أغراضه ليست بعيدة عنه، الدرع في حوزة السلطان غازي يحملها معه أينما ذهب، والرمح بيد ملك الغابات كتييمي الذي سطر أجداده أسطورة هو أميرها الموعود. وإن قوة ما جمعنا هنا على اختلاف أعراقنا وأهوائنا لنواجه هذا الشر ونوقفه قبل أن نغنى جميعًا!

انبهر الحضور مما رواه عليهم هارون النردى، كل واحد منهم يدرك شيئًا من حقيقة الأمر، واكتملت في عقولهم أشياء عاشوا تفاصيلها. لم يكذبه أحد، وهم العالقون في مواجهات وترحال لأكثر من عام، ولا ينفى هذا أن خوفًا ما راود قلوبهم جميعًا، أن يكون هناك شر كهذا يخطط ويدبر وربما يدفعهم إلى حتفهم. فاضت ألسنتهم بالأسئلة، وأجاب هارون عن جميعها بما يعلم. حاورهم وأضاف إليهم قبسًا من سيرته وحياته حتى اللحظة التي يقف فيها أمامهم، وأخبرهم بأنه ما زالت هناك أشياء يجهلها، ولكنه يعرف نهايتهم جميعًا إن استطاع ذلك المخلوق الخروج من عين الشمس!

طال مكوثهم معًا، وأقيمت مأدبة عشاء عامرة بصنوف الطعام، شاهين الجالس إلى رأس المائدة من اليمين

هو مَنْ أمر بإعدادها، وأخذه حديث طويل مع نيار العنبري، الذي ذكره بزيارته له في الكفر، وأخبره بأنه باع فسيلة زهر البردقوش كان قد قطفها من أحد حقوله، واعتنى بها طوال الطريق إلى الزرقاء، ويومها كان يحمل معه كتلة صلبة من العنبر، والدرع السحرية التي أخفاها على ظهر راحلته. حكى له عن السلطنة نوران شمس الشموس، السيدة الأجل بين أهل الأرض، وحدثها الغناء التي تعانق سحب السماء، ترعى مصالح زوجها، ولها كلمة مسموعة في البلاط، وتبدل مزاج شاهين حين تذكر رقية، وغير مجرى الحديث متباهياً بأنه مَنْ وجد الرمح، ولم يخبره بأنه مسحور، وأن هناك شيئاً غريباً يسري فيه.

وعلى الطرف الآخر من رأس المائدة، يجلس كتيبي متكئاً، واضعاً الرمح على الجدار بجواره، يتشاور مع أحد قادة جيشه وكاهنه ذي العصا المزينة بجهاجم الطير، أخذ يفسر النبوءة، ويعقد أطرافها مع ما سمعوه، وانشغل أبو الذهب بحديث ثلاثي مع تيانا الذاهلة من كل شيء يرويه هارون النردى، وكان عالم الأخير يختلف عن حياتها وقومها، عرّف نفسه لهما مرتاحاً بعد أن أكل وشرب، فارس جوال يرافق حسن حظه، تبدلت حياته بفعل لقائه بسيد النار. قالت محاربة قاع الأسود:

- نجوت بمعجزة من الآلهة! أنعلم يتوارث قومي قولاً قديماً بقدم الرمح، إن الظلام لا يستطيع التملك من القلوب النقية، وأنت مبارك، لهذا نجوت من شره.

أخذت تيانا تحاور النردى، والدرويش يجلس شارد الذهن بجوارهما، بينما يتناول سلام حبات عنقود عنب، ولا ينزل عينيه عن ذهب الناعس قرب المدفأة. تُرى بَم يفكر الذئب؟! سؤال راود المغني كثيراً، ولا إجابة قد تكون صحيحة، والناس من حوله انصهروا في أحاديث شتى، توحدت غاياتهم ويصدقون على مضض نبأ سيد النار الذي يجب ألا يخرج من زنزانته. وتبدلت مقاعدهم وحكاياتهم حتى جاء لمأدبتهم المبجل قاسم أصلان، مكبلاً بسلاسل ثقيلة تلك التي كانت في زنازين مخلب العقاب.

أمر شاهين بإحضاره، ليخضع أمامهم قبل أن يقرروا أي شيء، أراد أن يكسب ود كتيبي أمام الجميع، إن كان يريد تبادل الأسرى فعليه أن يسرع، حيث بدا ملك غابة الظلال متردداً من الذهاب إلى عين الشمس، وبينما كانت الأنظار كلها على الأسد الذليل المائل أمامهم، أشار شاهين بأن يفكوا عنه قيوده، وجالت الدهشة بالوجوه وعقدت الجباه، خفض نيار العنبري عينيه خجلاً من الرجل، وأمسك هارون النردى كأساً وراح يشرب كأن أمره لا يعنيه، أما الدرويش فاعتدل في جلسته، وتحسس مقبض سيفه، ويبدو أن ذهب فطن لما يدور بخلد أبيه، فنهض نافضاً النوم، ومال كتيبي إلى الوراء رامياً بيصره نحو الحكمدار المبتسم الذي نهض حاملاً كأس عصيره بيده قائلاً:

- السيد المبجل قاسم أصلان، دعوناك لننظر في أمرك، وليحكم فيك قادة التحالف.

دار المحارب المسن في وجوه الحضور، وقال بصوته الأجل:

- لا أجد على مائدتك إلا بقايا طعام وشراب، ولا مكان فيها للعدالة ولا وزن عليها لكلمة الرجال!

- أعلم أنك غاضب، لأنني لم أفِ بعهدي معك بعد.

- وتظن أنني سأصدقك هذه المرة أيضاً يا ابن بني شمس؟!

- تأجيل الأمر كان لأجل سلامتك، وتأمين الطريق لك، لتصل إلى مبتغاك بأمان، لكننا ما زلنا على اتفاقنا القديم بعد وضع القليل من التعديلات، ولكن، هناك شرط واحد.

- هل ستجعلني أرقص أم أتعرى لكم؟!!

كتم نيار العنبري ضحكته، ورمقه سلام بنظرة ضيق، بينما ارتشف شاهين من كأسه وردّ عليه:

- من البشاعة أن ننظر إلى جسد عجز مترهل! دعنا نتكلم بجديّة أكثر، سلطائك في طريقه إلى عين الشمس، وكل الأراضي الواقعة جنوب نهر التاج تعج بالرعاع القتلة، آلاف فروا من عين الشمس، وقد يعثرون عليك، لا أظن أنك تود اللحاق بالجيش بعد عناء رحلتك القاسية التي خضتها، ولا أحسبه يسعد برؤيتك في هذه الهيئة، وربما يأمر بقطع رأسك لفشلك الذريع وإخفاقك. والجانب المشرق في كل هذا أنك سترحل، ولكن بعد أن تحاكم على ما اقترفته يدك من أفعال، وكما تعلم العدالة أسمى صفات الملوك.

صاح قاسم أصلان بغضب هادر:

- من أنت لتحاكم الأسد الأزرق؟! وأيّ جرم اقترفته؟! أنا الذي أقيم عدالة السلطان بحق الجباسكي.

- جرم خيانتك وقتلك العقبان.

لم يكن شاهين هو المتحدث، بل جاء الصوت من وسط المائدة أمامه. نهض الدرويش مستنداً إلى المائدة، وتابع وهو ينظر في عيني قاسم أصلان:

- هل كان فعلك وفق عدالة الجباسكي؟! حين سممت طعامنا وشرابنا في عيش العقبان، وقتلت بسيفك في القصر البحري الأميرتين عقيلة وزبيدة وطفلين هما سنان وكيران، اللذين دُبحا بيديّ رجليك راجي وسليمان. ووقفت تشاهد بوجه مخضب بالدماء، الرضيع هاشم ليلطف أنفاسه، كنت منغمساً في الخيانة حتى إنك من حملت غازي بعيداً عن نصلي المكسور، سحبتة بعد أن مزقت وجهه بما تبقى من سيفي.

عقد المبعجل حاجبيه، ونطق مقاطعاً بكلمات مرتجفة:

- أنت برهان بن نصر الدين الأزرق؟! كنت أعلم أنني رأيتك من قبل.

لم يكن الحضور أقل دهشة من قاسم أصلان، حتى تيانا أصابها الاضطراب، وراحت تنظر إلى الدرويش بذهول، بينما يكمل حديثه من دون أن يأبه بالمحيطين به:

- أنا هو، من جعلت حياته جحيماً، والآن بعثت لأقتلع رأسك.

مع آخر حروفه قفز ذهب متجاوزاً المائدة، وهبط أمام الأشيب وتقدم نحوه والزبد يسيل من بين أنيابه البارزة، وصاحبه يتابع:

- أخبرني، هل كان الأمر يستحق كل هؤلاء القتلى من النساء والأطفال والشيوخ؟! لا أحتاج إلى أن آمر الذئب بأن يقضم رقبتك، يعلم ما في نفسي، ويستطيع أن يرى الدنائة والشر بداخلك.

ردّ قاسم أصلان بشيء من التردد، وأنفاس الذئب الحارة تلطم وجهه:

- لم أظن يوماً أن العقبان يصادق ذنباً! حسناً أيها الأمير الأزرق لن أبرر فعلتي التي أدفع ثمنها الآن. وإن عاد الزمن لا أجزم أنني لن أفعلها مجدداً، غازي من خطط ودبر كل شيء، وكان سينفذ تدييره بنا أو من دوننا، وكل ما فعلناه أننا اخترنا الجانب الفائر. أخذنا على عاتقنا حماية سلالة العائلة حتى وإن بقي منها فرد واحد. من يهيمن ويسيطر على مقاليد حكم لا ينبغي أن يزول، ساعدناه على ترتيب أمور المملكة، وضبط الأمن، وتيسير أمور العامة، أقمنا قواعد النظام لعهد جديد، وهذا واجبنا الذي أقسمنا عليه.

- خنت قسمك للسلطان العجوز، وقتلتموه قبل أن ينصب ولي عهده، وأقمتم نظام حكمكم على دماء الأبرياء، هل ظننت أنه سيستمر إلى الأبد؟! لكل شيء في هذه الدنيا عمر، والظلمة في هذه الدنيا يعيشون طويلاً، ويتناسون أن الحياة تدور ولا يدوم لها شأن، وأن القتلة والخونة يموتون في النهاية بأبشع الطرق. صدر أمر موتك قبل زمن طويل، والآن عليك دفع الثمن.

وقبل أن يتم جملته الأخيرة، انقضد ذهب ليسقط قاسم أصلان أرضًا، أخذ الكهل يحاول التملص والذئب يهيم بافتراسه، وانفعل الجميع، صاح كتيمني وشاهين في الدرويش بأن يتوقف، ونهض سلام والنردى مفزوعين، بينما أشاح نيار العنبري بوجهه، وأمسكت تيانا يد الدرويش الذي أفاق من غضبته منادياً والأنياب تقرب من صدر الرجل:

- ذهب، توقف.

ظل الذئب جاثماً على صدر قاسم أصلان الذي أخذ يسعل من قوة الهجوم، ويشعر بالآلام في مفاصله من أثر السقطة، وما لبث أن دار الذئب على عقبه، وعاد ليقف بجوار صاحبه الذي استطرذ:

- انهض، وانفض عنك غبار العار، وافعل ما يمنحك الغفران أمام الآلهة بحق القصاص في الجاباسكي الذي تحفظ نصوصه.

في صباح اليوم التالي، أعدت الخيول في ساحة الحصن، وخرج المبجل قاسم أصلان رفقة عشرين فارسًا، من بينهم الجنديان من فيلق الرماة، رفيقاه منذ هلاك جيشه على ضفاف بحيرة هايدن، ضُمدت جراحهما وأظهر لهما الدرويش الكثير من الود، وكذلك زودهما بجوادين قوين، وانضم إليهم عند البوابة الشرقية، نيار العنبري الذي قرر التطوع ليكون المفاوض عند السلطنة. اتفق مع الدرويش وكتيمي على أن يمر بالعنبرية، ويذهب بعدها في جمع من أهله المقربين إلى البلاط الملكي، سيضمن سلامة الاتفاق لو قرر المبجل خيانة عهده. ودّع هارون النردى على أمل اللقاء، وأوضح للجميع أنه ليس كل الفرسان يصلحون للقتال، لم يدرب يوماً ليكون جنديًا، ولكنه بحار ومغامر لا مثيل له. منح صاحبه اللقائف، وأوصاه بأن يحفظها، وغادر رفقة قاسم أصلان الذي لم ينطق بكلمة منذ انتهاء لقاءه بقيادة التحالف، ما زال عقله لا يصدق رؤيته لبرهان، وكان لأيام أمام نظره ولا يعرف أنه الأمير الهارب، ذلك الذي كان الثالث على سلم العرش، واليوم جاء الدور ليحطمه أمام الجميع، من يصدق أن الأسد الأزرق ارتجف، وكاد يبول على نفسه من الخوف بفعل هجوم الذئب!

أقنعهم قاسم أصلان بأنه اكتفى من الحروب والمؤامرات، ويريد أن يقضي ما تبقى من عمره محاطًا بأحفاده وأبنائه، يكفيه ما ناله من شهرة ومجد، وما حاق به من ذل وهوان، أن له أن يتقاعد بعدما رأى الكثير من الأهوال في الأشهر الأخيرة. جث رجاله ذات الأعين المتفجرة والأنوف النازفة لا تفارق منامه ويقظته، والذئب الذهبي الضخم يتبع مسيرهم، لعله يريد الاطمئنان أنهم يسرون في الاتجاه الصحيح قاصدين مخاضة نهر التاج، إن لم يتوقف ركبهم فسيصلون إليها في الصباح.

مع اقتراب الليل اختفى الذئب عن الأنظار، وتوقفوا لإراحة الخيول ورعايتها، واستلقى المبجل الواهن على العشب ينظر إلى السماء، يشعر بألم ينخر عظامه ويضغط على فقرات ظهره. كان متعبًا، وتغاضى عن الحديث مع نيار العنبري، الذي أخذ يعتذر عن أنه تركه في الأسر ومشى وراء المقامر هارون. صم المبجل أذنيه، وراح يميم في وديان الذكرى، خسر رجاله بالغدر، وأضاع شرفه حين سلم البرابرة مخلب العقاب.

فعل به الزمان الكثير، ولا يحتاج الآن إلا إلى راحة يصفي بها ذهنه، اشترى حياته باتفاق وعهد مع هؤلاء الغرباء، والآن يحمل على عاتقه عبء السلام وحفظ النظام، لا يريدون إلا أسراهم، ولا يتبعون الحرب كما أعلموه، قالوا أكثر من مرة إنهم يعرفون قدرهم أمام قوة السلطان، الذي أمامه الكثير من الوقت قبل العودة إلى الزرقاء، حينها سيجده يدير الأمر إلى جانب السلطنة، وربما يتغاضى عن هزيمته التي لم يكن له سبب فيها، ويضمن حفاظه على أرواح الجند في مخلب العقاب، ربما يُكرّم لوضعه أسس سلام دائم مع غابة الظلال، وعلى الرغم من كل هذا لم يكن ليثق بشاهين بن عز الدين من دون غيره من الأعداء، فهناك شيء يخفيه الرجل!

يحوك سليل بني شمس المكائد منذ سنوات، وكل ما يريده هو أن يصبح ملك تلال الشمس، ويرفع راية أسلافه مرة أخرى فوق قباب القصور وأسوار المدن، ولن يوقفه شيء حتى لو كانت تلك المخلوقات الأسطورية التي يتحدثون عنها، ولكن بفعلته هذه درأ المفاسد عن تحالفه، استغل كل شيء لصالحه منذ البداية، ولن تتسنى لحظة أفضل من الراهنة، لينقض على جيش بني الأزرق، ويتنزع سيادة تلال الشمس. لم يكن مؤمناً من قبل، ولكنه يشكر القدر الذي جعل الدرويش يفصح عن سره الدفين، وشوق كتيبي إلى استعادة أسرته جعله يقبل إطلاق سراح الأسير الثمين، شريطة أن يكون معه من يستطيع التفاوض مع السلطنة، واستطاع شاهين إقناع نيار العنبري بالذهاب إلى السلطنة، وهو الذي يقول إنه يعرفها، وقد أهدى إليها الدرع، والآن عليه أن ينقذ حياة الأسرى، ويوقف الحرب، لن يصيبه أذى أو مكروه وهو ابن عائلة نبيلة تتشارك دماؤها مع بني الأزرق.

أما الدرويش فقد حكى قصته منذ وُلد في القصر الشتوي بعش العقاب حتى اللحظة الصعبة التي يقف فيها أمام تيانا، التي تجردت من كونها قائدة صارمة وتحولت إلى مجرد امرأة، ترسخ في عقلها أنها خُدعت، وأنه تلاعب بها، فقد رأت الوشم على ظهره مرارًا من قبل، وصدقت ما اكتفى بقوله، حاول أن يحدثها فرفضت وتركته وصعدت إلى سطح الحصن، تبعها إلى حيث لا يزعجها إلا خفق راية وحيدة، رُسم عليها رمح فضي تصارع به الريح، والمحاربة ذات القوام المشدود تنظر إلى الأفق الغربي، انعكست في سواد عينيها المروج الشاسعة، والغابة التي يُبنى بداخلها حصنهم الجديد. وبعد بضع كلمات لوم منها ظلًا صامتتين حتى نطق:

- كان عليّ فعلها وقتله، لكنني فضلت أن أكتشف سرًّا فشلت في دفيه، لم أستطع رؤية قاتل أهلي أمامي من دون فعل شيء! أردته أن يعلم من أنا وأني لست جبانًا، كما قال سليمان ناب. أردت أن يخبر أمامي صاعترًا ويقر بذنبه، ولم يكن العفو قراري لولا عهدي لكتيبي وشاهين. لو كان الأمر بيدي لجعلت من جنته راية أحملها إلى ساحة القتال، لأنال من القاتل الآخر غازي.

استدارت إليه، ونظرت في عينيه:

- أشعر بما في قلبك من ضيق، لكنني حسبت أنني أقرب الناس إليك، لم أظن أنك تخفي عني شيئًا.

- لم تسأليني!

- وهل كنت ستجيب؟ منذ عرفناك في الغابة لم نسألك عن ماضيك وبأي أرض تعيش، لكنني رأيت وفاءك لصاحبك بياض، وشهدت على بسالتك في مواقع شتى. كنت الغامض صاحب الذئب، وأنا الذي أعرف أن الذئب لا تصادق أحدًا من البشر، لا أعلم ما أصابني، وقد تملكك من قلبي وخطفت بصري أينما حضرت، تقربت إليك وأحسست بكوني أشى إلى جوارك، تمنيت أن تكون أبًا

لأولادي، وأنت الفحل الوحيد الذي قد أحطم فوانين قبيلتي لأجله. كل هذا ولم أسأل من أنت؟! ظننت أنني أعرفك وكنت على خطأ، وأدرك أنك تحاول الابتعاد عني، كلما تقربت منك شبرًا فررت ورحلت إلى مكان آخر.

- كل من أحببتهم لم أستطع إنقاذهم.

قالت وهي تقرب منه حتى التصقت به:

- لا أحد يقهر الموت متى جاء يا أبا الذهب. نحن أبناءه، ووحده من يعلم موعد نهايتنا، لم تكن يومًا السبب في أي شر وقع، ولا أستطيع أن أراك إلا الدرويش النبيل الشجاع، الذي لا يتوانى عن وضع حياته على المحك حين يتعلق الأمر بمن يهتم بأمرهم، ولأجل هذا أحببتك يا صاحب الذئب!

لفحة هواء باردة غلفتها، شعر بدفء أنفاسها وهي ترفع عينيها إليه، لا ينكر إعجابها بها، ولطالما علم أنها مغرمة به، ولم تكن المرة الأولى التي تتخلى فيها عن كونها محاربة، معه وجدت الكثير من الراحة والبهجة، يلمس امرأة لأول مرة منذ عقد، ضعف أمام لهيب قربها ولم يتوان عن تقييلها، حثته نفسه على ذلك ولثم شفيتها المنتفختين برقة، فما كان منها إلا أن تعلقت به وانصهرا في قبلة طويلة، ولا أحد يعلم ما حدث بينهما تحت سقف السماء في الهواء الطلق، ولم يرهما أحد، حتى جاء الليل، واجتمع الحلفاء في شرفة الطابية الشرقية، كانوا يشاهدون البرق البعيد الذي لا يتوقف، ويرهفون لهزيم رعد يتناهى إلى مسامعهم، وبالكد يرون وهج عين الشمس الذي يبتلعه الغمام الحالك. وكان من العجيب أن يرى الجميع تيانا تتأبط ذراع الدرويش! ابتسم شاهين لرؤيتها، وقد أعلنوا ما بينهما أخيرًا، وعقد كتيبي حاجبيه واضعًا الرمح على الجدار بجواره وسألها:

- ما الذي يحدث؟

أجابت تيانا بمرح وقد تبدلت عن التي كان يعرفها:

- آن للذئب ألا يكون وحيدًا.

وقال شاهين ببرود:

- بل عُقاب!

وغمغم كتيبي ساخرًا:

- كيف للذئب أو عُقاب أن يتزوج لبؤة من قاع الأسود؟!

ضحكوا جميعًا، وتوالت التهاني على الدرويش وتيانا، ولم يظهر الرضا على وجوه قادة القبائل، لكن ملك غابة الظلال بارك اجتماعهما، على الرغم من الدهشة التي اعترت الجميع بفعل جرأتها وصمته، من يصدق أن محاربة شرسة تقع في غرام الرجل الذي لا يعرفون هل ينادونه الدرويش أم الأمير؟! وبينما الحديث يدور على الألسنة، كان سلام يحمل قيثارته، أراد أن يضفي بهجة على المرح الذي يغمرهم، وبينما يعبر بين كتيبي والجدار، ومن دون قصد ارتطم بمتن الرمح الذي ترحزح وكاد يسقط، لولا أن برز فجأة هارون النردى وبخفة التقطه، ولم يكن الأمر يحتاج إلا إلى أعين شاهدة على ما حدث. رُجت الأرض من تحت أقدامهم، وخطف الأبصار وهج براق غشي أعينهم، وعلى النصل جرى ضوء أحمر توج على النقوش المحفورة فيه،

وجسد هارون النردى ينتفض ويرتج صارخًا، كأن الصواعق تضربه، وبصعوبة أفلت الرمح من يده وسقط.

هرعوا جميعًا إليه وتحلقوا حوله، أخذ كتيبي الرمح بلهفة، وتنهد حين شعر بما يسري فيه. ساعد سلام هارون النردى الذي قال وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة:

- إنهم يحفرون عين الشمس، ويجب أن نردعهم.

أخذ يلقي عليهم ما رأى، وحل صمت تتخلله طقطقة أكل النيران للحطب، تاهوا في دروب الأفكار، وعقولهم تحاول استيعاب ما حدث، الأمر حقيقي وشاهدوا بأعينهم كيف توهج الرمح، السكون ملك مجلسهم حتى نهض كتيبي قائلاً:

- أرى وجوهًا ممتعة وأبصارًا زائغة، كأنكم لم تتوقعوا ما نحن بصدده، وربما كنت لأتراجع عن الذهاب إلى عين الشمس لولا رأيت الرمح يضيء. أصدق السيد هارون في كل ما يقول، منذ اللحظة الأولى التي لمست فيها هذا السلاح، أيقنت أننا أصحاب النبوءة صدقًا، وأننا المخولون بالوقوف أمام سيد النار، وأن مواجهة الشر قدر فرض علينا، ولا أحد غيرنا يستطيع إيقافه وقتله بهذا الرمح. أدرك كل هذا، لكن إن كنا ننشد السلام واستعادة أسرارنا، فعلينا تقديم بعض التنازلات التي تكون كبيرة في بعض الأحيان، ولهذا أخذنا سبيل قائدهم العجوز ليعيد ما لنا ونعود إلى ديارنا، هذا ما قدمناه نحن للسلطان، وإن أردنا حقًا أن تتم هذه المعاهدة فلم لا نأخذ صفه ونحارب إلى جواره ضد أتباع الظلام؟!

تداولت الألسنة همهمات، وكاد شاهين ينفجر غضبًا لولا أن قال الدرويش:

- غازي أكثر شجراً من هذا الذي يُدعى سيد النار، ولا تنسَ أنه يملك قطعة أخرى لا تقل سحرًا وقوة عن تلك التي بيدك، وما ذكرته أنت عن الرمح وما شعر به شاهين حين وجدناه، وذلك الوهج الذي أبهر أعيننا حين لمس هارون، يثبت صدق كل ما قيل عن الأعياب الشر بالعقول، وانظروا إلى جيش مملكة الساحل وكيف انصاع لإرادة الشر، بالإضافة إلى آلاف العبيد من سكان عين الشمس، فما الذي يجعل غازي منبئًا أمام غواية الظلام وما يمنعه عن الطمع في مزيد من القوة؟! حتى لو اتحدنا معه وانتصرنا على عدونا المشترك، لن يوقفه أحد عن المطالبة بالرمح...

قاطعته كتيبي بنبرة قاسية، ولا يفصل بينهما إلا النيران:

- لن يمس أحد الرمح ما دمت حيًّا.

- أرايت؟ هكذا هو أيضًا، لن يترك أحدًا يحصل على الدرع التي بحوزته، إن كان يعلم ما فيها من قوة، وأظن أن الجميع لا يمكنهم الشعور بهذه الهبة الشريرة بين أيديهم.

عقد ملك غابة الظلال الشاب حاجبيه وهو ينظر إلى الرمح الذي في يده، لا يستطيع إنكار ما يقوله الدرويش، وأمام صمتهما لم تكن هناك فرصة أفضل لشاهين ليتدخل:

- إن الأمير برهان محق، وهو أعلم الناس بغازي الذي قتل أقاربه بدم بارد، ولم يكن يملك حينها درعًا سحرية، تخيلوا ما الذي يمكن أن يفعله الآن وهي بحوزته. هو أحد الشرور التي علينا درؤها، وأعلم أننا أقل عددًا وعدة من جيشه، لكنني لن أتراجع عن قتال بني الأزرق حتى لو كنت وحدي. إن لي إرثًا وساحارًا لأجله، أو أموت وأنا أحاول استعادته.

وبعد لحظات من الصمت والتفكير في كلمات شاهين، انضمت تيانا لتقف إلى جوار درويشها قائلة:

- يمكننا تحقيق النصر الذي نريد إن أردنا ذلك، خرجنا من ديارنا للانتقام وأهلنا المخطوفين، ومات الكثيرون منا في سبيل ذلك، وعاهدناك على أن تكون ملكنا الأوحده، وتحت رايتك تحتشد كل قبائل غابة الظلال، مشينا وراءك وتكاتفنا ونحن نؤمن بأنك منصور الخطي، ومنذ إحراقهم لمملكة التل الدموي ونحن نعلم أنها حرب خير وشر، وازددنا يقينًا حين استعدت رمح أسلافنا. تريد عودة أسرتك ونحن أيضًا، ولن يحدث هذا من دون هزيمة سيد النار وأعدائه وكذلك السلطان. ربما نحن قلة أمام جحافلهم المكسوة بالمعدن، لكننا نعرف كيف نصطاد، وتربص كالأسود بين العشب وأعلى الهضاب، نتحين فرصتنا الثمينة لسحقهم وهم يقاثلون بعضهم بعضًا، وبتقدم لإحراز نصر نفرض به واقفًا جديدًا، نستعيد به أسرارنا ونحصل على مزيد من الأراضي الخصبة الصالحة للزراعة والرعي.

تعجب كتيبي على الرغم من انبهاره بكلماتها! هي أصدق ما قيل وأنبى رؤية بسطت أمامه، وأضاف شاهين بحماسة معقبًا على قولها:

- نعم الرأي ما قالته السيدة. في الصباح سأرسل سلام رفقة بعض الأدلاء ليستطلعوا أمر القوم وما يفعلون، و...

قاطعته هارون النردى الذي تقدم ليقف إلى جوارهم وهو يقول بنبرته الرخيمة:

- أيها السادة، لا أستطيع وضع خطط للحرب، ولست بالمقاتل الذي يُعتمد عليه، ولكنني مقامر يتمتع بحظ وافر، وهو ما أوفعني في طريقكم، وإن كان علينا قتال جيشي أعدائنا معًا، فلنعمل ذلك لأننا لو لم يفلح في وقف مخطط نرغال فسنهلك جميعًا. أيها الملك كتيبي إنني رأيت غابة الظلال تحترق، والزرقاء تنهار إلى قاع البحر، كما أفني الداغريون وغيرهم من الممالك والأمم، لا مكان لنجو إليه إن تحرر ذلك اللعين. كان يمكنني الرجيل كما فعل نيار العنبري، أو الانضمام إلى جيش بني الأزرق وأخبر السلطان بما يحدث، وأظنه لا يعلم بما هو مقدم عليه، لكنني فضلتكم ووثقت بكم بعدما رأيت الرمح معكم، ورأيت نقاء قلوبكم ونبيل غايتكم على الرغم من اختلاف مقاصدكم. صدقوني علينا القتال ووقف الشر وأعوانه مهما كلفنا الأمر.

ما إن انتهى وأمام الجميع، حتى نهض ذهب وتوجه إلى حيث يقف هارون النردى، وشب عليه واضعًا قدميه على صدر المقامر الذي كاد يقع من ثقل الذئب الذي ينظر إليه، والدرويش يقف ذاهلاً وكذلك كل الحضور، وكذب ذهب خيالاتهم وهو يلحق بلسانه الحشن وجه النردى، فعُلَّ فجر الدهشة في نفوسهم، كأنه يقول لهم إنه يصدقه. تبادلوا النظرات، وقد فهموا أن عليهم نبذ كل خلافاتهم، وأن يسموا بأرواحهم لأجل ما هم مقدمون عليه. اتفقوا على التحرك إلى التلال، ومن هناك يراقبون وادي الفجر والحصار القائم على عين الشمس. انفض اجتماعهم والنفوس صافية راضية، بعد أن دارت بينهم أحاديث عدة، ربما تكون ليلتهم هذه مختلفة عن أي ليلة في حياتهم، ولكنها لن تُنسى أبدًا.

قبل الفجر تقلب قاسم أصلان في رقدته، جفاه النوم وهو يفكر فيما هو مقبل عليه، راجع كل ما حدث له، ولام نفسه على رضوخه لهؤلاء الخونة والبرابرة، وهو الذي اتخذ أمامهم قراره بالعودة إلى الزرقاء ناجيًا، والآن تغالبه نفسه على عصيانهم. لا يدري إن كان الخيار الذي فرض عليه صوابًا أم أن فعله خيانة لولي نعمته؟! تلفت حوله من دون أن يصدر صوتًا، الفرسان نائمون وثلاثة منهم مشغولون بالحراسة والحديث فيما بينهم على طرف مخيمهم، وأسفل شجرة قريبة منه كان نيار العنبري يغط في نوم عميق، لم يُرق له أن الشاب التحق بركبه وصار قائد المسيرة، ظن أنه ما رافقه إلا ليقته ويتخلص منه، وهو الذي باعه بثمن بخس حين وقعوا في الأسر، ومن اعتاد الخيانة يظن أن جميع الناس مثله. عليه العودة والانضمام إلى جيش السلطان، هذا هو واجبه ولا شيء آخر. لم يأخذ الكثير من الوقت ليقنع نفسه بالهرب، سيذهب إلى سلطانه ويخر ساجدًا تحت قدميه، سيخبره بأمر العصبة وتحالفهم الهمجي، وسيأخذ جيشًا عظيمًا ويعود إليهم، لينتقم ممن أذلوه، وأولهم ذلك اللعين برهان بن نصر الدين الأزرق. نهض إلى آجام كثيفة، وتظاهر بأنه يقضي حاجته، وبعد تأكده من انشغال الفرسان تسلل وأخذ يربت على ظهر جواده حتى لا يصدر صوتًا، وما إن فك رباطه حتى قفز فوقه وانطلق. لم ينظر وراءه والجواد يقطع الأرض رهوًا، انتبه له الفرسان الثلاثة وطاردوه بعد أن أيقظوا رفاقهم، لقد خدعهم الرجل، وهو ما تنبأ به الدرويش، وترك رفيقي سفره الطويل بين يدي نيار العنبري الغاضب الذي أمر بتكبيلهما، بينما يطارد الفرسان الثلاثة الأسد الهارب.

استطاع العجوز أن يفلت منهم من دون رصده، وعند طرف الغابة نزل عن الجواد وصفعه على وركه ليركض إلى الشمال، وتوارى هو تحت جذع شجرة ميتة محاطة بالعشب، تبعوا أثر الجواد وظنوا أنه يقصد مجرى نهر التاج، رآهم قاسم أصلان من مخبئه وهم يمشون بسرعة من دون أن يلحظوا وجوده، وما إن رحلوا حتى خرج متوجهًا ناحية شمس تبتزغ في مشرقها باهتة، ولم يتوقف عن الهرولة إلا عند بركة ماء صغيرة ليرتوي ويستريح، ما فعله هو الخيار الصائب، ماذا ظن به اللعين برهان والخائن الآخر شاهين؟! أنه سيخون غازي الذي رفع من شأنه ووضع في أرفع المقامات، حتى لو حدثته نفسه بأن ينصاع لعهدهما واتفاقهما، عليه أن ينفذ كل هذا عن رأسه الآن، ويبلغ جيش سلطانه المحاصر لعين الشمس.

تجول في الأحراش القريبة من وادي الفجر، ولم يفضل الخروج للعراء، وبقي يسير بين الآجام والأشجار. انتصف النهار، وتأكد أنه صار بعيدًا عن مطارديه، وبينما كان يلتقط ثمارًا تشبه الإجاص، سمع شيئًا يتحرك خلف كومة من الأغصان الجافة، جال في المكان ناظرًا، وخشي أن يكون قادمه أسوأ مما كان، هل كتب عليه أن يتيه في الفيافي والغابات، وأن يظل هاربًا من خيل الأعداء وبرائن المفترسات، أم أن ذلك الذئب الضخم يتبع خطاه؟! شعر بالخوف وهو يكمل سيره بحذر ولا يتوقف عن الالتفات، لم يكن يملك إلا عصا كشط طرفها لتصبح رمحًا، حاول التخلص من خوفه حتى يبست قدماه فجأة، وهو ينظر إلى الفارس ذي الدرع الفضية والعباءة القرمزية الذي ظهر أمامه. عقد حاجبيه الكثين، وأخذ كلُّ منهما يتطلع إلى الآخر بدهشة، وما لبث أن ضحك الأسد العجوز مقهقهًا، فالمحارب أمامه لم يكن سوى رجل يعرفه، وهذه المرة يرتدي زي الحرس الملكي، كان مبتهجًا على الرغم من استغرابه، وهو الذي لا ينسى الوجوه والأسماء:

- سعد بن مرزوق، هذا أنت! كان آخر لقاء لنا على طريق الوادي القديم. يبدو أنك حصلت على ترقية تستحقها.

تقدم البرغوث بضع خطوات أخرى، غير مصدق لما يراه، سائلًا نرغال في نفسه: «هل ما أراه حقيقة أم محض أوهام؟!»، ولم ينتظر الإجابة بل نظر إلى وجه العجوز الأشيب، وقال وهو يظهر الإجلال ولهفة فضول:

- سيدي المبجل قاسم أصلان، ماذا تفعل هنا؟ ألم تكن في بحيرة هايدن؟!!

كاد الرجل يقول شيئًا لكنه تراجع عنه، وأخذته سِنَّة من وجوم قال بعدها:

- وقعت أسيرًا لدى الأعداء، لكنني استطعت النجاة والهرب من بين أيديهم. أخبرني كيف بلغكم ما حدث في البحيرة؟!!

صاح نرغال غاضبًا، في رأس البرغوث: «غبي! ما وجب عليك سؤاله».

كظم سعد غيظه، وحاول الابتسام وهو يرد على قاسم أصلان:

- السلطان من أخبرنا بذلك. وكما ترى أصبحت قائد فرقة دعم الحرس الملكي وقريبًا من مولانا الأشرف.

- أعلم ما فعلته في غابة الطلال، وتليق بك العباءة القرمزية. أين السلطان؟ خذني إليه الآن.

- إننا بعيدان عنه بمسيرة نهار، يحاصر عين الشمس، ويولي هناك بلاءً حسناً، ولكن كيف علمت بصنيعي؟

صوت نرغال ساخرًا في رأس سعد: «سؤال آخر غبي من برغوث أحق؟!».

قال المبجل:

- لدينا الكثير من الوقت لأروي عليك ما رأيت وسمعت، لكن علينا التحرك الآن، هناك مَنْ يجذُّون في أثري ويبحثون عني، يجب أن أصل إلى السلطان وأبلغه بما يحدث.

أخذ نرغال يلقي وصاياه على سعد، بينما يسير مع قائده السابق إلى حيث مربوط جواده، قدمه البرغوث بوذً ولطف إلى سيده المنهك، واختار أن يمشي بجواره، وخلال مسيرهما الطويل ناحية الشرق، روى قاسم أصلاً كل شيء على مسامح سعد الذي نال منه الصمت، بات يعلم أن البرابرة من غابة الظلال لم يتوقفوا عند هزيمتهم في الكفر، رحل هو إلى الزرقاء وظن أنهم هلكوا، ومن حديث الرجل يبدو أنهم حشدوا الكثير من القوات، واستطاعوا التعافي مما لحق بهم، بل وأصبحوا يسيطرون على كل الأراضي الواقعة غرب النهر الكبير، وحين جاء المبجل على ذكر ملكهم الذي يقال إن لديه رمحاً سحرياً، انتفض نرغال داخل جسد سعد، فما جاء للغابة وتلك الجهة في الليل إلا للبحث عن قوة أحس بها سيد النار، الذي انتبه وأنصت لما يقال، يحملون شيئاً مقدساً ويحاربون وفق نبوءة، وهناك غرض آخر لدى السلطان، وهذا ما أكدته رفيقا سفره الخائن هارون ونيار، اللذان لم يتوقف عند ذكرهما، وقال إنهما مجرد سكيرين يبحثان عن الثراء، كأن العجوز وجد أخيراً مَنْ يبوح له بمكنون صدره وما لاقاه من ويلات.

أثر سعد الصمت، ونرغال بداخله يثرثر فرحاً، رمحه ودرعه على مقربة منه، وعين الشمس ليست عنه بعيد، السلطان هناك منذ عشرة أيام يحاصر أتباعه المؤمنين، ويجب ألا يعلم ابن الأزرق بأمر الدرع التي بين يديه، وكذلك أمر الجيش القادم من الغرب، ليمنح بدر بن حمدون ومخمريه الوقت الكافي لإخراج جسده، والأمر الأهم الآن هو أن يصمت قاسم أصلاً إلى الأبد!

لا يعلم نرغال هل هو مَنْ أوحى إلى سعد بفعلته، أم أن البرغوث أخذ خطوته وفق إرادته الخاصة؟! بحركة مباغته جذب قائده السابق من على صهوة الجواد، وطرحه أرضاً مثيراً الغبار، ولم يكّد الأسد الواهن يفيق مما حدث، حتى ضُرب بحجر على رأسه، وعلى الرغم من الألم فإنه حاول دفع الخائن عنه والنهوض، لكن سعد وإن كان ضئيل الحجم فإنه جثم عليه بكل قوته، وغرس في صدره خنجريه الطويلين، شهق ويدا البرغوث تعصران مقبضيهما دفعاً ليخرقا ظهر المبجل جاحظ العينين ألماً. حاول المحارب العجوز التثبيت بتلابيب سعد وخنقه، إلا أن الأخير سحب خنجريه وعاد يطعن بهما صدر الرجل مراراً حتى خارت قواه، ولفظ قاسم أصلاً أنفاسه مع قطرات دماء لوثت لحيته وشاربه الكث. توقف قلبه عن الخفقان، وعيناه الزرقاوان الخاويتان من الحياة تحمقان إلى السماء الصافية، وسعد يقف فوقه منتشياً وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة عريضة.

إحدى عشرة ليلة مرت، وعين الشمس محاصرة، والغيم الماطر لم يرحل عن السماء، يزداد كثافة وسوادًا يكتم وهج الحفرة تحته، يخفت مع مرور الأيام، وبالكاد يضيء الفوهة والحواف إلى الأسوار، ويكفي لئلا تتوقف الروافع عن أعمالها، يغشى القاع حيث المُتَّقِبون يحفرون عشرات الآبار، من دون كلل وبعزم الإيمان بمعجزات روح الحكمة، استطاعت إخماد الحمم، وتصلبت الأرضية بفعل الأجواء الباردة، منحتهم مناوبات عمل وأخرى للراحة، وبالكاد يظهر ضوء النهار البعيد على أطراف الأفق، ويثقل الودق مع احتدام المعارك اليومية، والعقبان لا تستطيع التحليق طويلاً تحت الأمطار. الأسوار تقصف بالمنجنيق وحجارة المقلاع، والسلطان غازي لا يوقف هجماته إلا لسحب جث جنده وجرحاه، يخوض رجاله معارك ضارية كل ليلة وصباح، ويبدلون محاولات مضنية لكسر الأبواب وتسلق الجدران، وتدور مناقشات ليلية تنير فيها القذائف بطن السحب الكثيفة السوداء، ورجاله ما زالوا يحاولون فتح ثغرة في التحصينات.

يتفوق جيش بني الأزرق على جند الساحل بالعتاد وأعداد لا تنقص مهما خسر من أفراد، ويتكسر موج هجومه على أسوار يعتليها جند الساحل من سيافين ورماة، الذين استبسلوا وبرعوا في الدفاع عن عين الشمس، وما زال نصف جيشهم في الجهة الجنوبية لم يشارك بعد في القتال، ضاعفوا التحصينات وتصدوا لهجمات الجهة الغربية بقيادة جان الصقار، وعلى الجهة الشرقية حاول نورين أن يحطم دفاعات أتباع العقيدة انتقاماً لصديق عمره، ساري الماجوني الذي قاتل ببراءة في هجوم اليوم الأول حتى طعن بالخوذة ذات القرن، ضربة غدر واحدة في قفاه واخترق قرن الكركدن البحري حنجرتة. لا يستطيع نسيان المشهد وهو يرى المهروطق بدر بن حمدون وسط المعركة يرفع رأس صاحبه عاليًا، ويصرخ بنشوة قتله لقائد القوات.

دُفن جسد الماجوني من دون رأسه في اليوم الثالث من موته، وشيّع والأبطال من رجاله بحضور السلطان، الذي أمر أن يقام لهم نصب فوق تلال الشمس ليذكرهم المارون. ولا مكان ولا وقت للحزن في ساحة القتال، أدار غازي المعركة ببراءة، وعلى الرغم من أنه لم يفلح في تحقيق أي تقدم، فإنه أرق المدافعين بطوفان هجماته المتتالية، وقصف المنجنيق للأسوار الصامدة والمدينة وراءها، حتى إن بعض القذائف سقطت داخل الفوهة، وتسببت في موت العديد من العمّال. كانت أساليبه مبتكرة في الهجوم والتراجع، وبها الكثير من الاستعراض، يعلم أنه سيهزمهم وستأتي لحظة دهمهم، حتى وإن طال الحصار، أما الأبراج الخشبية العملاقة التي جاء بها فلم تتحرك منذ أن استقرت وسط معسكر جيشه.

وداخل عين الشمس كانت مخميرية في قاع الحفرة منذ أيام، تشرف على العمل في آبار تنقيب شديدة العمق، يتدلى فيها المُتَّقِبون ذوو الجلود السوداء مربوطين بحبال تقطع وتحترق في كثير من الأحيان. الحرارة ما زالت مرتفعة بقلب النجم، ومخميرية تقدم كل يوم سبع أضاح من أتباعها، الذين يتهافتون على الموت بنفس راضية، والجميع يعلم أنها كانت أول المضحين بزوجها وأولادها، وكل هذا في سبيل العقيدة، وما ترنو إليه نفسها، ويد روح الحكمة التي تذبج، تسقي أيضًا الحفارين وتطيب جراح المنهكين، وتحمل مشقة التنقيب

مع نجباؤها المخلصين. أكثر من ثلاثة آلاف رجل يعملون من دون توقف، يثقون بها، ولكنهم بحاجة دائمة إلى الرعاية والطعام والشراب، وهذا ما تكفلت به مملكة الساحل، زودتهم بكل ما يريدون من مؤن أشبعت بطونهم، بينما تمسهم مخمرية بخُطبها عن الخالق وعدله ونصره المحتوم، وتبث فيهم روح الألفة والمحبة والرغبة في السمو وتحقيق الأمنيات، ووحده مهد الخلود ما سيمنحهم كل ملذات الحياة.

يحترق جاد الصغير حزناً على الماجوني وما حل به، لا ينسى تفاخر بدر بن حمدون بقتله لأمير أوريجا، واحتفاظه برأسه في صندوق كغنيمة حرب. في اليوم السادس من الحصار كاد جاد يقتل بدر، بعد أن وضع خطته، ورتب كل شيء، وجهاز خنجره، لكن لم يأت الرجل الذي كان رفقة مخمرية في قعر عين الشمس، يؤديان طقوسها الغربية رفقة آلاف العمّال والجند، وهم يقدمون الأضاحي البشرية لخالقهم الذي يدعون عبادته ويرجون رضاه. رأى استحضارها للغيم والمطر، ووقر بداخله حقيقة أنها ساحرة، ومع انشغالها بما تريد إخراجها من باطن الأرض، أخذ جاد الفضول ليتهاهى مع الأيام مضيغاً فرصاً كثيرة لقتلها، ويوقف ما يحدث، صبر ولم يعد يلوم نفسه على أخطائه السابقة، وكل ليلة يشهد هجوم قومه على السور الشمالي، يود لو استطاع التواصل مع السلطان أو فتح البوابات، ولكن جند مملكة الساحل لهم نظام معقد في الحراسة، وكلمات سر بينهم دائمة التغيير مع انتشار واسع في الأرجاء، يمكنهم الصمود طويلاً مع خط الإمداد الجنوبي، ولكن إلى متى ستبقى الأسوار وهو ليس سوى رجل واحد بين ظهور الأوغاد؟!

في الليلة الثالثة عشرة لم يهجم بنو الأزرق، الأمر الذي زاد من حيرة مخمرية وبدر وقومهما، وفي الصباح التالي أيضاً لم يتقدم أحد إليهم. المعسكر في الجهة المقابلة هادئ، والحركة قليلة بين الخيام والسرادق، وخشي جاد أن يكون هناك سوء قد ألمَّ بالسلطان، وليلة أخرى مرت ولم يجتَحم فيها إلا عواصف الاحتمالات، وازداد التوتر والقلق داخل الأسوار، لكن روح الحكمة ثبتت قلوبهم، وأوصتهم بعدم التخاذل، أو فتح أبواب قلوبهم للخوف، وأخبرتهم بأنهم على مشارف الانتصار، وأن الخالق يعدهم بخلود وحياة رغدة تقوم على العدل إن نجحوا في مسعاهم، غاية نبيلة أشعلت جذوة الإيمان في قلوبهم، ومخمرية تترنم وتتلو صلواتها بلغة غريبة والمطر يهطل غزيراً. في تلك الليلة أقام جاد مناوبته قرب برجها الحجري، واستغل غيابها ودخل يفتش ويبحث في أغراضها بحذر، لم يجد سوى رقعة مخبأة تحت الفراش، قربها من وهج المشعل وهو ينظر إلى ما حُطَّ عليها بالدماء، رموز للغة غريبة ورسم كأنه خريطة ما، وبينما يطالعها شعر بدفقة هواء وظل مخيف حط على الجدار أمامه، التفت بسرعة وهاله ما رأى ولم يستوعب ما يحدث لبضع ثوانٍ. كان ذو العرف يقف على النافذة الكبيرة للغرفة، التقت أعينها ووهج مصباح الزيت يلعب في عيني العُقاب، أخذ يميل برأسه يميناً ويساراً كأنه يتفحص وجهه الغارق في الظلام، وأطلق نقيضاً خافتاً كأنه يهمس، وجاد الفرح يقترب منه قائلاً:

- نعم أنا جاد الصغير أيها الطير العجوز.

عانقه جاد، واختلجت مشاعره، شعر بدفء بدد صقيع وحدته وغربته، وتمسح فيه العُقاب كأنه يواسيه،

ضحك فرحًا، وخشي أن يراه أحد، فأفلته قائلاً:

- كنت على وشك أن أفقد إيماني بكل ما اعتقدته يومًا، ولولا رؤيتك تخفقي بجناحك وتحلق فوق عين الشمس، ويوم قدمت مع جيش سلطاننا الأشرف أيقنت أننا منتصرون، على الرغم مما فعلت من أخطاء وما لحق بي من خذلان! لكنك أبلت بلاءً حسناً في القتال، رأيتك تُنزل في قلوبهم الرعب، وكنت أعلم أنك ستعود مع سربك المهيب.

توقف جاد عن الحديث كأنه تذكر شيئاً آخر، وأخذ يبحث بين طيات إزاره عن شيء كان يخفيه، خاتم أهدها إليه السلطان يوم تنصيبه أميراً لمرتفعات الصقور، فضة خالصة تحيط بحجر أزرق، حُفرت عليه حروف اسمه، وضعه قرب منقاره المعقوف وهو يهمس:

- عليك الرحيل قبل أن يراك أحد. مُد هذا وأخبر السلطان غازي بأني ما زلت هنا. هبًا طر يا صاح.

انتصب عرف العقاب والتقط الخاتم من كف جاد الصغير، وهز رأسه إلى الأمام مرارًا قبل أن يستدير ويضرب الهواء بجناحيه العظيمين، وما لبث أن اختفى في ظلمة الليل. وفي معسكر الحصار وداخل الأبراج الخشبية الضخمة، الأمر يختلف عن ظاهرها وغايتها، لم تكن للاقتحام الكبير كما يظن المحاصرون، بل روافع سحب من نوع مبتكر، تتحرك بتروس سريعة وحبال متينة، تدورها البغال كما الطواحين، وترفع الرمال والثرى من أربع فوهات لأنفاق كبيرة تحفر تحتها، وكانت خطة غازي التي باشرها منذ اليوم الأول لقدمه، جعلهم ينشغلون في موجات هجومه، بينما يحفر مئات من جنده أنفاقًا عميقة مدعومة بعوارض خشبية، ويُلقى ما يُستخرج من ردم وراء معسكر الجيش من دون أن يشعر أو يراه المتحصنون في عين الشمس، ينشد أن يصل نفقان إلى أسفل البرجين الشماليين، أما الآخرون فهما أطول قليلًا ويمران إلى ما وراء الأسوار، ثلاثة أيام أخرى وينتهي الحفارون من إتمام عملهم. أظهر براعته في القيادة والتخطيط، وأخذ يتابع كل شيء، حتى إنه نزل مع الحفارين إلى عمق الأنفاق الممتدة تحت ساحة القتال. كان محبوبًا ووسط جنده وأمراء جيشه، ودائم التنقل بين المجالس والخيام، ومهيبًا مبجلًا بينهم، ويشاركهم التدريبات ووجبات الطعام.

وفي مجلسه بالإيوان السلطاني، تناول العشاء بحضور جان الصقار الذي أشار ناصحًا بأن يأخذ حذره، وألا يتقدم صفوف القتال تحت وطأة الحماسة، ما زال لدى بدر بن حمدون قوات منظمة ومدربة على الدفاع، وأهل الساحل على مر الزمان لم يفلح أحد في هزيمتهم ودخول قلاعهم، وأضاف نورين نصيحته هو الآخر:

- أنت سلطاننا الأشرف، ولست بحاجة إلى القتال بفأسك وخوض باحة الوعى، هناك من يقوم بذلك عنك. الوضع لا يتحمل خسائر عظيمة، نحن بحاجة إليك يا سيدي، ولكل دوره في الميدان.

وبينما هم جلوس والحديث يدور، حطَّ ذو العرف أمام الإيوان الكبير، نفض ريشه ناثرًا رذاذ ما علق به من الأمطار، وعبر بخطاه القافزة إلى حيث يجلسون، ولاحظ جان الصقار ما يحمله في منقاره، ظن أنه سيأتي إليه أولاً، ولكنه توجه إلى السلطان، وقفز إلى المائدة الصغيرة أمامه، وألقى في حجره الخاتم الفضي، التقطه غازي وقلبه في يده وعقد حاجبيه وهو يتمتم مبتهجًا:

- خاتم جاد الصغير!

ونورين يسأل بلهفة واستغراب:

- هل هو حي؟!

ردَّ السلطان بزهو:

- كنت أعلم أنه لن يخذلني، بالتأكد هو حي وأرسل خاتمه مع ذي العرف ليعلمنا بالأمر.

أطلق جان صغيرًا فأتاه ذو العرف، أخذ يشم ريشه ويفتش فيه، وقال وهو يطعمه قطعة لحم:

- سيدي، علينا أن نرسل إليه، ونرى ما يمكنه فعله.

هز نورين رأسه مؤيدًا الفكرة، بينما قال سلطانها:

- يمكننا إرسال ذي العرف غدًا في الليل، ونخبره بأن يتعد قدر الإمكان عن الأسوار، أما في النهار ومع انبلاج الصباح، فيتحتم عليكم قيادة هجوم واسع على الجبهتين الغربية والشرقية وصولًا إلى الجنوب، وسأدفع بمزيد من الجند لئتموا الحفر أسرع. لا أريد منكم إلا أن تشغلوهم عما نفعل تحت أقدامهم، لن نستطيع الهجوم ما دام الحفارون يعملون أسفل الساحة، الأرض رخوة من كثرة الأمطار اللعينة. وما إن نهدم الأسوار عليهم فسنجتاحهم، وندفعهم حتى نلقهم داخل الفوهة جميعًا.

قال أمير بستان الجياد معقبًا:

- كم أريد أن أظفر برأس الأصلع الذي قتل الماجوني ومثّل بجسده! سأعلقه على جدار تذكارات صيدي.

وضع غازي خاتم جاد في خنصره وهو يقول بارتياح:

- حين ينتهي الأمر سيكون ميتًا هو وكل أتباعه، وسأبني من جماجمهم سورًا يحيط بعين الشمس، بعد أن أردمها بجثثهم.

في هذه الليلة نام غازي هانئ البال، بعد أن أرسل في طلب شيء من أزداد، كان يشعر بنشوة نصر وفرح تستقر بقلبه، جاد ما زال حيًّا ويدعوه هذا إلى الفخر بتلميذه النجيب، الذي ما زال ساهرًا ينظر إلى السماء أملاً في عودة ذي العرف، وهدير العمل في الحفرة لا يتوقف كطنين خلية نحل تسكن جوار أذنيه. الروافع تنقل كتل المعادن، وطرقات الأزاميل والمطارق والمعاول تدوي في عمق الليل، وهم يعملون على توسيع الآبار باحثين عن كنزهم من دون توقف، وبداخلهم يقين أنهم قريبون من تحقيق مرادهم، ولا أحد يشعر بما يجري تحت أرض الساحة الشمالية لميدان النزال، وأن بني الأزرق على بعد أمتار من الجدران!

أفلت من بين سواد الغيوم شعاع من ضوء الشروق، يعلن قدوم يوم جديد، وفي سماء معسكر جيش بني الأزرق حلقت العقبان، والخيول تتجهز والجند يصطفون بدقة ونظام، وها هم أولاء بعد يومين من الراحة يستعدون للقتال، والرايات تتمايل مع الريح، والسلطان يتقدم على صهوة جواده الضخم في زمرة من أمراء الحرب. استقر بهم المقام أمام كتائب الجيش على الساحة الشمالية، ولم يمضِ كثير من الوقت حتى دوى نفير الأبواق، وانطلقت قوات الميسرة والميمنة في تشكيلات عسكرية متجهين إلى جانبي المدينة، كتائب من الفرسان وفرق من مقاتلي جبال الدب بصحبة الدببة المحاربة، اتجهوا غربًا يقودهم جان الصقار، وعلى الجهة الشرقية تقدم نورين وآلاف من المشاة والعربات الحربية يطرقون الأرض. اقتضت خطتها أن توقع قواتها

أكبر قدر من الخسائر في صفوف جيش الساحل المتمركز جنوبًا، شريطة ألا يقتربوا من الأسوار. وتحت المطر الخفيف وقف غازي أمام بقية قواته بيتسم وينظر إلى بدر بن حمدون القابع فوق البوابة، ويتحين أن يأتي السلطان المغرور إلى أسواره، ولكن ابن الأزرق لم يفعل، بقي على حاله وهو يشاهد جنده يحاوطون عين الشمس من الجانبين.

ولما بدا لحكيم العرش أن السلطان الجبان لن يتقدم، نزل عن السور وامتطى جوادًا، وتوجّه إلى الجانب الغربي، ولا يعلم لم شعر بشيء من خوف ينال من قلبه، المرة الأولى التي يشاهد فيها فيالق من مقاتلي جبال الدب، الذين لطالما سمع أنهم أقسى المقاتلين والأشرس على وجه الأرض، يقاثلون إلى جوار ديبة بنية ضخمة، على رؤوسها الكبيرة خوذات من البرونز، وحول أعناقها دروع من الجلد المقوى. أدرك بدر أن الهجوم الواسع الذي يشنه بنو الأزرق يستهدف القوات جنوب عين الشمس، ولم ينسَ ما حدث في اليوم الأول والاجتياح العظيم الذي تسبب في خسارته للجبهة الشمالية، واليوم لا مجال للخسارة التي تعني إتمام حصار بني الأزرق وتطويقهم لعين الشمس، لن يسمح بحدوث هذا، ويجب ألا ينقطع شريان الحياة عن جيشه الصامد حتى الآن. نظر إلى الروافع العملاقة التي تتحرك من فوقهم، وتمنى أن تجد مخمرية مهد الخلود سريعًا، وأن يكونوا الصخرة التي تتحطم عليها آمال السفاح غازي، وهو الذي بات يعلم أن في أرض المعارك تدهس الأمانى وتموت الأحلام، ونادى في حملة البنادق لينزلوا عن الأسوار، ليخرج إلى المعسكر الجنوبي وكل من يستطيع القتال.

قطرات المطر تثقل وترجف الأرض بفعل ديب جند بني الأزرق، وعلى جهتي الدفاع تكاتف حملة الدروع الصدفية، وصنعوا جدرانًا تتخللها الرماح. جان والخيول والديبة يتسابقون للاصطدام، وعربات نورين الحربية يطلق رماتها وابلًا من سهام، كانت عديمة النفع وصدتها دروع الأصداف، أشار لرجاله بأن يتمهلوا في سرعتهم، ساحمًا للمشاة بالتقدم وحناجرهم تهدر بالصيحات، وفي الوقت نفسه، وعلى جانبي القتال وقع الصدام.

أطاحت الديبة بجدران الدروع والجند من ورائها، وأخذت تضربهم بأكفها ومخالبها، لا تأبه للرمح الطويلة التي تُغرس في أجسادها، وما زادتها إلا ضراوة وفتكًا، قضمت الأنياب الرقاب وجان الصقار والفرسان يقفزون فوق ما تبقى من تشكيلات الدفاع، وعلى الجانب الآخر التحم المحاربون في اشتباك دموي، لكنهم لم يفلحوا في اختراق الصفوف حتى وصلت العربات الحربية، وألقى رجال نورين الرماح، طين ودماء غطت الوجوه والأجساد، تناثرت الأشلاء، وأثارت الديبة الذعر في قلوب الرجال، والسيوف توغل في الصدور والأعناق، تساقط المقاتلون من كلا الجانبين، وعند البوابة الجنوبية تردد بدر بن حمدون في الخروج، خشي أن يباغتهم غازي بينما هم مشغولون في الجبهة الجنوبية، ورجال العقيدة من حوله ينتظرون إشارته ويحملون إلى وجهه، حتى لبس خوذه المميزة، ونادى بصوته المضخم بفعل المعدن على رأسه:

- نحن للموت أبناء، وأرواحنا للخالق فداء. اتبعوني لجز رؤوس الظالمين، ورفع راية عقيدتنا إلى أعالي السماء. العدل واجب، والملك زائل.

صيححات رجاله تردد صداها في قاع عين الشمس وخارجها، وتوقفت المعاول عن الحفر وتجمد العمّال، وانتفض قلب مخمريّة، وللمرة الأولى منذ لقاءها به ترى هذه النظرة في عيني جاد، ظنت أنه خائف وسألته:

- ما بك؟

- أخشى أن يقتحموا علينا الأسوار ونحن هنا في القاع. القتال في الأعلى.

- ماذا تقصد؟

- مكاني ليس هنا.

اقتربت منه، بينما ينادي نجباؤها في العمّال للعودة لما كانوا يفعلون، تلفتت لتنظر إلى الحركة من حولها وهي تسأله بارتياح:

- أين مكانك إذن؟! هل تشاق إلى قومك والقتال في صفوفهم؟!

عقد جاد حاجبيه وقال بجديّة:

- أنتم قومي! وكل ما قصدته بالقتال في الأعلى أننا يجب أن ندعم الحكيم بدر بن حمدون، ويبدو أن الأمر لا يندرج بخير خارج السور الجنوبي. نحن هنا في الأسفل، بينما هناك من يُقتلون.

- لكلّ منا دوره يا جاد، و...

قاطع حديثها أحد المشرفين على آبار الحفر وهو يخفض رأسه:

- سيدتي، هناك شيء يجب أن نشاهده.

نظرت إلى الرجل، ثم عادت ببصرها إلى جاد قائلة:

- أريدك هنا إلى جوارى، يستطيع جند الساحل التصدي لأعدائنا، ويبرع بدر في قطع رؤوس فادتهم.

أنهت كلماتها وأشارت إليه بأن يتبعها، ومشيا وراء المشرف الذي قادهما إلى إحدى الآبار، حيث يتحلق العشرات من العمّال، الذين أفسحوا الطريق لها ولزمرتها من نجباؤها، ومن فوهة البئر أطل أحد المنقبين، أسود الجلد أحمر العينين، ما إن رآها قادمة حتى خرج وهروا إليها ليخر راعغا وهو يقول:

- وجدناه.

قفزت الفرحة من عينيها وهرعت إلى البئر تنظر إلى داخلها، وتبعها جاد والنجباء الذين ألقوا أبصارهم إلى داخل الفجوة التي بالكاد تتسع لرجل واحد، وجحظت العين! في القاع وعلى عمق عشرات الأمتار، كان هناك شيء يتوهج ويشع نورا ذهبيا، يعلو ويخبو كأنه نبضات ثابتة الإيقاع. ولفحة هواء ساخنة لطمت وجوههم. تراجع جاد وهو ينظر إلى من حوله، ومخمريّة ترفع رأسها ضاحكة:

- مهد الخلود حقيقة. صدق الخالق رب الضياء.

وفي ميدان المعركة خارج الأسوار الجنوبية الغربية، كان بدر بن حمدون يخوض غمار الموت المحقق، أحدث توازنا طفيفا مع رجاله من حملة البنادق، ولم تكن الدببة عصية أمام البارود والسهام المشتعلة، قاتل بوحشية تليق بتلك الكائنات التي فتكت برجاله، وعيناه تجولان بحثا عن جان الصقار، كل ما يريده هو رأس الرجل

كما فعل بالماجوني من قبل، ولكن أهل الصقارة قلوبهم من صخر، وراعي الطير كان نذًا لا يُقهر، كلما انفرط عقد رجاله جمعهم مرة أخرى، ماهر في الكر والفر، يقاتل إلى جوار محاربي الجبال وما تبقى من الدببة، ونجح في اختراق التحصينات، بينما يعافر نورين ومشاته على الجانب الآخر، وأمام البوابة الجنوبية التقى الصقار بصاحب خوذة حوت الكركدن، دار جان حوله بجواده القوي قبل أن يهجم عليه، وتراجع بدر أمام الضربات المتلاحقة، وفجأة رُجت الأرض بدوي الأبواق وقرع الأجراس، وخرج من أطلال البوابة الجنوبية آلاف من جند الساحل والعمّال، حاملين السيوف والرماح، هاجموا الدببة غير عابئين بقوتها وضراوتها، أسقطوها طعنًا وضربًا، ودفَعوا قوات أعدائهم إلى الوراء، ولم يجد جان الصقار بُدًا من التراجع أمام كل هذه الأعداد، بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى من الانتصار، جذب لجام جواده ليستدير وينطلق وقد حال الرعاع بينه وبين بدر بن حمدون الذي خرَّ على ركبتيه تعبًا، وأتباعه من حوله يصدون الأرواح حتى توقف هطول الأمطار.

يوم آخر للنجاة، كان ذلك شعار بدر بن حمدون المنهك، مشى بين رجاله حاملاً خوذته في يده ويجر قدميه، تفاوتت جروحته، وكثرت الرضوض والكدمات بجسده. درعه الأثيرة التي أهداها إليه والده كانت جيدة بما يكفي لتمنع موته، ولم يكّد يعبر البوابة المهدامة وسط صيحات النصر حتى رأى مخمرية تقف وعلى وجهها ابتسامة رطبية على غير عاداتها، ووراءها يقف المئات من المؤمنين، ووسط الهياج والفرحة العارمة، أخبرته بأنهم وجدوا مهد الخلود الذي وعدهم به الخالق. لم يكتفِ بقولها بل اتجه ومعه قادة جيشه إلى عين الشمس، نزلوا إلى الحفرة عبر السلم المنصوبة على السقالات، وأمام إحدى الآبار اجتمعوا والدهشة تفيض من أعينهم، جثا بدر على ركبتيه، ونظر في عمق البئر والضيء الذهبي يغشى وجهه، أحس بقلبه يتوهج، وانعكس في عينيه الزمرديتين النور المشع من القاع، ولم يستطع في غمرة دهشته كبح دمعة إيمان انسلت وهوت داخل البئر.

وبعيدًا إلى الشمال وعلى بعد أميال وراء جيش السلطان وجنده العائدين من القتال، وعلى ضفة نهر التاج حيث معسكر قوات الدعم، انتفض جسد سعد رغماً عنه فوق صهوة جواده، الذي شعر بها حدث وصهل مذعورًا وكاد يسقطه، ونرغال بداخله يقول فرحًا: «بدر بن حمدون ينظر الآن إلى جسدي، لم يتبقَّ إلا القليل لأحصل على حريتي. علينا الإسراع، لقد أفلح أتباعي يا سعد».

لم ينطق سعد الذي أخذ يهدئ جواده، وينظر بخبث إلى فرسانه من فرقة الدعم، ابتعد عنهم قليلًا، وعقله يعرض عليه كيف أن نرغال يناقض ما يقوله في كثير من الأوقات، يكره أتباعه ويراهم فاشلين، ومرة أخرى يشيد بما يصنعون، ينسبهم إليه حين يريد، ويلعنهم متى شاء، ولم يكف عن الثرثرة كعادته، لا يصدق أنه صار قريبًا من الحرية بعد آلاف السنين من سجنه ونفيه. أخذ يحث البرغوث الصامت على قتل السلطان فور وصوله، وأن يحمل الدرع إلى بدر بن حمدون، ولكن سعد قاطعه في نفسه:

- إن أردت أن تحصل على ما تريد، دعني أقم بما عليّ فعله وليس ما تأمرني به، ثم من هذا الذي أمنحه الدرع؟! لم يكن هذا اتفاقاً. يبدو أنك أعطيت وعوداً كثيرة للعديد من الأشخاص.

- ماذا بك يا سعد؟!

- أريد ضماناً بأنك لن تغدر بي حالما تصل إلى رجالك وأغراضك.

- كيف أعذر بك وأنت أنا؟! لست في داخل فخ يا سعد.

- لا ينبغي لك أن تقول هذا لرجل عاش عمره بين الأوغاد، ولسنا كذلك، أشعر بك بداخلي وهذا ما يجعلنا اثنين، وكل حديثك عن الخلود والملك ليس سوى أحاديث أغويت بها كثيرين قبلي، ونحن لا نعرف ما الذي يحدث عند عين الشمس، ربما استطاع أتباعك إيجاد جسدك، ولا يعني هذا أن جيش السلطان قد هُزم.

- حتى لو لم يخسر جندياً واحداً، سنجد سبيلنا إلى داخل عين الشمس، لأحصل على جسدي، وحينها أمنحك الخلود وتاج ملك تلال الشمس، أليس هذا ما تريده؟

- وهل سيرتضي رجلك بدر بن حمدون بذلك؟

- يبدو أنك لا تعي بعد يا سعد ما أستطيع فعله! حتى وقت قريب كنت تظن أنني صوت بداخلك، على الرغم من أنني من أحبيتك، وجعلتك ترى ما لا تستوعبه عقول البشر الفانين. القوة التي تشعر بها بداخلك والدرع التي ثبتت على ذراعك لأنك المجتنب، ورؤيتك للرمح الفضي في أثناء نومك وخروجنا للبحث عنه، ألم يكن هذا عن إيمان بي؟! هل قتلت قاسم أصلان لأجلي؟!

لم يُجِبْه سعد، أرخى لجام جواده لينطلق إلى حيث يستقر رجاله، أخبرهم بأن رسالة جاءت من السلطان يطلب دعمهم، ولم يتوان الفرسان في سرح الجياد والانطلاق في كامل العتاد، ولم يفت الكثير من الوقت حتى كان يقودهم إلى وادي الفجر جنوباً ليلتحق بالقتال. لا يفهم نرغال كيف يفكر البرغوث، ولكنه يعلم أن الأخير لا يثق به، وربما عليه ألا يفعل، ما إن يخرج من جسده حتى يمزقه أشلاء، لن يكون لديه وقت ليندم على اتفاقهما، وبعدها سيفني كل حي على هذه الأرض، سيبقي ثلة مختارة من المؤمنين به، ليعيدوا بناء العالم من جديد، وبينما كان يخطط ويدبر ويحلم باللحظة التي انتظرها طويلاً، كان سعد سارحاً في دروب الخوف والشتات، لا يأمن للساكن بداخله، ويشعر كأنه عجل يساق إلى الذبح، لذا يريد فعل كل شيء حسب هواه هو، وما قتله لقاسم أصلان إلا لترتيب خطة لا يصبر عليها نرغال.

في تلك الأثناء وبينما الشمس ترحل عن الأفق، كان شاهين وجيش غابة الظلال يدخلون أطلال الزاهرة، هبط عليهم صمت طويل، والأعين تدور في محاجرهما، ناظرة إلى التماثيل العملاقة المغطاة بالقار الأزرق، ومن حولهم ديار وقصور خربة ذات قباب مهدمة تسكنها الظلال والكآبة، وفي طرقاتها تناثرت بقايا جماجم محطمة وعظام، فلم يتبق من مدينة ملوك الشمس إلا عواء الريح فوق حطام المنازل وبقايا الجدران. انتشرت الفرق والكتائب يعدون معسكرهم للمبيت، وأمام تماثيل لم يكتمل أوقف شاهين جواده ومن ورائه جاءه صوت عميق يقول:

- إنه الملك الأخير، زيدون الشمسي. سمعت أن جاد ذا العين الزرقاء تركه يموت في فراشه وحيداً، بعد أن قتل أولاده وأحفاده جميعاً أمام عينيه.

التفت ليجد هارون النردى ينزل عن جواده الرشيق، تطلع إليه وقال ببرود:

- لم يكونوا جميعاً هنا، وإلا لما كنت أقف الآن معك. تولى الرجل العرش وهو طاعن في السن، كان واهناً ولم يقوَ على مجابهة خيانة الديناري، ولا الدفاع عن ملك أجداده، أو حتى إكمال ذلك التمثال. على كل، ما جئنا إلى هنا للتحدث عن الأموات، هي ليلة تخيم وفي الصباح نتجه إلى تلال الشمس وعينها.

لم يكن شاهين في مزاج جيد للحديث، حث جواده على التقدم تاركًا الرجل ذا النبوءات وراءه، أثار المكان في نفسه العبرات، وتغلي الدماء بعروقه وهو يتخيل ما حاق بقومه، مائة عام لم تمح آثارهم عن المكان. حل سرج جواده وربطه إلى عمود قريب من بقايا القصر الملكي، واستدار لينظر إلى فرسانه الذين راحوا يعدون مضاجع للمبيت وآخرين يطعمون الخيول ويسقونها، واختار جيش غابة الظلال افتراش الساحة الكبرى المحاطة بتماثيل أجداده، وأخذته قدماه إلى داخل الأطلال، حيث يهيمن السكون وشباك العناكب على المكان، وعلى ضوء الرمق الأخير من النهار، رأى الجدران، وقد خلعت منها قطع كبيرة من الفسيفساء، وشوّهت وجوه الأباطرة المرسومة، كُشِطت أسماؤهم ومُحيت ملامحهم، وأثار النيران باقية في الأسقف، وفي الأركان أكوام من رماد. مرر يدًا على جدران الممر ونقوشها الباردة، وهو يتذكر المرة الأولى التي جاء فيها إلى هنا. رحلة قطعها من كفر البردقوش إلى هنا ليرى آثار أجداده، واليوم قدم ومعه جيش كبير، ويأمل أن يعمر المكان، وسط الركاب والأعمدة تنهد واستلقى أرضًا، وأخذ ينظر إلى السماء التي تحتل مكان قبة لم يعد لها وجود.

عمرت الزاهرة وللمرة الأولى منذ مائة عام، أوقدت في جنبات ركامها المشاعل، ونُصبت الخيام، أكثر من سبعة آلاف مقاتل نزلوا بساحاتها وخرائبها، وأخذت أهل غابة الظلال الدهشة من حجم تماثيلها الضخمة، لم يروا شيئًا كهذا من قبل، انتشروا ينظرون إلى عجائب ما صنع بنو شمس، الزاهرة التي كانت ذات يوم تفيض بالبهجة والحياة والرقي، أمسّت اليوم مستقرًا لجيش بعيد كل البعد عن دياره. غطت القردة في نوم عميق بجانب نيران المخيم، وقربت الثيران إلى داخل الأطلال، المكان بارد ليلاً ولا يعتاد أصحابها هذه الأجواء، وتجول ذهب مستكشفًا المكان، واختلطت الروائح عليه مع كثرة الأعداد، وانتهى به المطاف إلى جوار أبيه الذي وجد لنفسه وخليلته بقعة هادئة قرب بقايا معبد الشمس الكبير. قضى ذهب وقته يستمع إلى مخاوف أبيه الذي وجد شخصًا آخر يفضي إليه، لطيفة هي تيانا وتجه، يرى ذلك في عينيها، ويشعر بصفاء روحها المحبة لهما، أما كتيبي الذي لا يترك الرمح من يده، فكان مشغولًا بما رآه في مخلب العقاب، كان يريد البقاء هناك، وانتظار عودة أسراه، وعقد اتفاق سلام، ولكن النبوءة قدر محتوم، ومواجهة سيد النار لا مفر منها، إن لم يذهبوا إلى حيث يقبع فسيأتي إليهم، ولا ينسى كيف توهج الرمح بيد هارون النردى، الذي اختار الوحدة على الانضمام إلى مجموعات الفرسان والجنود، يخشى أن يكون سببًا في هلاكهم جميعًا، وأن الشر الذي مسه هو من يحرك كل شيء. تذكر حديثه الأخير مع نيار العنبري، الذي قرر الذهاب إلى الزرقاء رفقة قاسم أصلان، تمنى أن يصل إلى وجهته سالمًا، ويستطيع تحرير الأسرى.

في الثلث الأول من الليل عاد سلام رفقة الكشافة، محملين بأخبار عين الشمس وما يحدث فيها، وقرب أحد القصور المهدامة، اجتمع قادة التحالف، وتحلقوا حول نيران المخيم: أمراء غابة الظلال يتوسطهم ملكهم سيد الرمح، بينما جلس شاهين ومساعدوه من أتباع المرابي في الجهة الأخرى، وإلى جوارهم كان هارون الذي كان محط الأنظار دائمًا، وآخر من جاء كان الدرويش وتيانا يتقدمها الذئب الرهيب، وما إن حضر سلام حتى توقفت الأحاديث الجانبية. حياهم ورحبوا به، وأول من سأله كان ملك غابة الظلال:

- حسناً يا سلام، كيف وجدت الأمر هناك؟

دار في وجوههم، ونظر في أعينهم جميعاً، وما لبث أن قال بنبرة يشوبها الإحباط:

- وصلنا إلى تلال الشمس بعد الظهيرة، وإن كان الغيم الكثيف هناك يحجب ضوء النهار، وارتقبنا أعلى الهضاب لننظر إلى ساحة القتال، ووجدنا جيش بني الأزرق يفتريش وادي الفجر بأعداد مهولة لا حصر لها، لم أر شيئاً كهذا من قبل ربما يزيدون على أربعين ألفاً، ولديهم الكثير من آلات الحصار، أحصيت عشرة من المنجنيق وأبراجاً خشبية عملاقة. العجيب أن هناك مئات من الجند يحملون قفصاً ومعاول، يدخلون إليها، وآخرون يخرجون إلى ما وراء السرادق، ودوريات حراسة تجوب أطراف المعسكر، والجهة الوحيدة غير المؤمّنة هي الشمال باتجاه نهر التاج، وتبدو أمامهم عين الشمس عاجزة، وفي ساحتها الشمالية وإلى ناحيتنا من الغرب هناك آثار معركة وصدام، جند الساحل يقيمون معسكرهم في الجهة الجنوبية حيث البوابة مهدمة، ولم نتبين أعدادهم ولكنهم كثير، وينتشرون على الأسوار، وهناك رايات سوداء كبيرة عليها نجمة بيضاء أعلى الروافع العملاقة التي تعمل غير آبهة بالحصار، يبدو أنهم على وشك إخراج شيء من الحفرة، وأكد أجزم بأن السلطان غازي يُعد قواته لاجتياح عظيم!

ألقى عليهم سلام ما رآه، وقرر السادة أن ينزلوا إلى أطراف وادي الفجر في الصباح، عليهم اليقظة والاستعداد لدخول المعركة في أي وقت. انفض المجلس، ومضى كل منهم إلى حيث يقضون ليلتهم الأولى والأخيرة في أطلال الزاهرة، وتحت النجوم وزرقة الليل الداكنة، جلس سلام في أحد الأركان يضبط أوتار قيثارته ويشدها، لم يكن له رأي بينهم، يسير معهم ويستطلع الطريق، وينقل لهم ما يرى، لكل منهم غاية وسبب يسعى لأجله، ووحده من جاء لأجل بياض الذي يستحق أن يذكر على الدوام، وتلك كانت لحظة سلام ليمجد ذكر صاحبه طيب القلب، مرر أصابعه على الأوتار التي غزلت لحناً سريعاً، كأنه يجربها لأول مرة، شعر بنشوة وقشعريرة تسري في جسده، وبدأ يعزف عزفاً رائعاً ناعماً، وردد بصوت عذب أغنية أخيرة لأجل بياض، أسماها «قرش تلال الشمس».

بلغ اللحن والكلمات سمع شاهين الذي يسير حاملاً مشعلاً إلى بقايا قصر الشمس، وأخذ يتجول في الممرات الخاوية إلا من ركام وغبار، ينهل من النقوش والرسوم على الجدران، وتأسى على بقايا حطام الأثاث ورماد الجثث المحترقة، قد يموت في حربه هذه من دون أن يجني شيئاً، ويُنسى كأنه لم يكن، ولن يغني أحد حينها أغنية تخلد ذكراه. تذكر كل ما مر به، وكيف كان ينتظر تلك اللحظة التي يأتي فيها إلى هنا منتصراً رافعاً راية الشمس الذهبية.

وإلى جانب أحد الأعمدة كان الدرويش يحيط جسده تيانا بين ذراعيه، ضمها إلى صدره وهو ينصت لغناء سلام، يشعر بدفء قلبها، ويتمنى لو أنه قابلها قبل هذا الوقت بزمان، ومواجهة غازي قريبة جداً، من بعد سنين من الاختباء في الصحراء، كل شيء محتوم في هذه الدنيا، والعدل لا يقيمه الجبناء، لامست كلمات الأغنية قلبه، ولم يفارقه طيف بياض القرش، الذي كان سبباً في اجتماعهم.

أما هارون النردى فكان هائماً في نجوم السماء، يتذكر تفاصيل من حياته التي قضاه في الترحال والاحتيال، لو كُتبت لهم النجاة ربما يحصل على دار تطل على البحر، ويتزوج وينجب أطفالاً. وعلى مقربة منه يجلس كتيبي يرهف السمع لأغنية سلام عن الشجاعة، والإقدام، والوفاء بالعهد، والتضحية من أجل الخير، وطافت به ذكرى من الغابة يوم زواجه بسيرين بحضور الضخم ذي القلب الطيب، ممتن هو للرجل الذي حاول تحرير الأسرى ومات في سبيل ذلك، يستحق مزيداً من التكريم لتبقى ذكراه خالدة في نفوس الطيبين، ولعل أغنية سلام هذه تعيش أكثر مما عاش بياض القرش.

مات بقرصة غدر من برغوث

والبرغوث جبار

والغدر في دمه يغلي مثل النار

بعيداً إلى الشرق وبينما سلام يطرب الساهرين بسيرة نقي السيرة، كان سعد ورجاله يخيّمون بمنتصف وادي الفجر، أراحوا الجياد وأوقدوا نار الشواء، واستلقى البرغوث على العشب إلى جوار نيران المخيم مغمض العينين يقظ العقل، يدبر خطة لقتل السلطان والحصول على الدرع. كم ينتظر اللحظة التي يفارقه فيها نرغال، وليته يصدق وعده الذي قطعه له. بات يحلم بأنه ملك تلال الشمس القادم، إن صدق صاحب الصوت بداخله، ومر بخاطره أناس أضحوا من الماضي ومعظمهم أضحوا تحت التراب.

الشجعان يخافهم النسيان

ونقي القلب لا يعرف الخذلان

كان جاد الصغير في هذه اللحظة ينظر إلى داخل البئر التي زادت اتساعاً، والمنقبون يكشفون رويداً رويداً عن الشيء المشع بداخلها، كان يشبه صندوقاً كبيراً من بلور نحاسي يغلفه وهج براق، لم يتبقّ لهم الكثير حتى يخرجوه، وذو العرف يخلق في ظلمة الليل باحثاً عن جاد، وفي ساقه رسالة من السلطان. لا يستطيع جاد مغادرة المكان الذي تقف فيه مخمرية وسط النجباء، لم يقدر أن يرفع عينيه عن الجمال الباهر والبريق الأخاذ، وحدثته نفسه بأن ما يحدث نزع سحر، ولا ينبغي له أن يصدق ما يراه، ومن حوله آلاف العمال يشاركون في الحفر وحمل الركام إلى الروافع. أمرتهم روح الحكمة بحفر مزيد من الآبار للبحث عن الرمح والدرع، وبنظام عمل ودقة تنبع من إرادة حرة نفذوا ما أمرت به، بدد الإيمان مشقة عملهم، وانعكس بريق الأمل في أعينهم، وها هم أولاء يكافأون عن سنين السخرة والعذاب، كانت محررتهم محقة في كل كلمة ألقته عليهم، ولهذا يجبنونها ويبجلونها، وهي من ضحت بأولادها وزوجها في سبيل الخالق، ويفدونها بأرواحهم إن تطلب الأمر.

وقبل الفجر خبت مشاعل معسكر بني الأزرق وأحاط بهم الظلام، وآمن جند الساحل وتكاسلوا على الأسوار، يتابعون حبال الروافع والجنائز تتدلى إلى فوهة البئر الشاسعة، واجتمع في قاع عين الشمس الآلاف يشاهدون ما يحدث، وأشرأت أعناق من هم على الأسوار ليروا المعجزة التي أخبرهم بها قائدهم، بدر بن حمدون، الذي نزل هو الآخر إلى الحفرة من دون درعه، جاور مخمرية لينظر إلى تثبيت المنقبين للأربطة، يتحملون حرارة شديدة تنبعث من الزكية المشعة، كأنها قطعة من حجر زجاجي يتموج سطحه بلون نحاسي مائل إلى الحمرة، والوهج الأصفر الخفيف حوله يضيء الوجوه وهامات الروافع، والسماء من فوقهم ملبدة بغيم يطمس خيط الفجر الأول، وتدق الأزاميل لتثبت حلقات الرفع، وجاد يصارع نفسه، ويغالب الواجب على الحقيقة وما تراه عيناه، والجميع يرتقب لحظة إخراج مهد الخلود. وشدت الجنائز والحبال المرتخية. سكن الكون، وحُبست الأنفاس، وبدأت التروس في الدوران ببطء شديد، ودوى الانفجار العظيم.

يقضي البشر أعمارهم محاولين فهم الحياة أو عيشها، وللسلطان غازي كانت الحياة تعني الفوز، وما دون ذلك هو الخزي والموت. تعلّم أن الحكم يؤخذ ولا يُطلب، ومنذ أن خطط لقتل عائلته وأقربائه وهو يدرك أنهم لن يكونوا آخر قتلاه، إنه يقتل لأنه يقدر على فعل هذا، ويجد شيئاً من المتعة في ذلك، ولسنوات فرّغ غريزته الدموية وشهوته تلك في صيد الحيوانات بصنوفها، والآن عليه القتال للدفاع عن ملكه وسحق مَنْ يعاديه. وفي عمق الليل البهيم قرر أن يظهر حقيقته التي يجهلونها، إنه عُقاب الموت الذي سيحصد أرواحهم ويلتهم أكبادهم، هو السلطان الأوحده لهذه الأرض، ولا يستطيع أحد سلبه حبة من رمالها، اكتفى بها حُفر من الأنفاق، وقد بلغت قواعد الأسوار الشمالية وأبراجها، ومن دون أن يشعر أهل عين الشمس المنشغلون بإخراج كنزهم، مُدّت تحت الساحة جبال نُقعت في الزيت لأيام، وأشعل الفتيل، وجرى اللهب إلى حيث تتكدس البراميل في نهاية كل نفق، وفي زرقة عينيه نُسف السور الشمالي، تطايرت الحجارة والأشلاء، وتهاوت الأرض تحت الأبراج والبوابة الكبيرة، زلزلت التلال، وارتجفت الجبال القريبة، وُسْمِع دوي أربعة انفجارات متتالية، بلغ دويها كل حي على بعد أميال. فزعت الخلائق، وهامت تتخبط في ظلمة الخوف، وابتلعت عين الشمس عاصفة من غبار ودخان.

فوق الجرف الغربي، لم يبقَ في جيش غابة الظلال نائم، استيقظوا فرعاً على دوي الانفجار، هاجت الثيران، وحاولت تيانا ومحاربوها السيطرة عليها، بينما اختبأت قرده البابون خائفة مذعورة خلف الصخور وأعلى الأشجار، وركض ذهب والدرويش نحو الحافة، ومن ورائها القادة وكثير من الجنود، وهبتوا حين رأوا عاصفة غبار ودخان تحفي عين الشمس عن الأنظار! وعلى وهج النيران شاهدوا جيش السلطان يصطف مستعداً للقتال، لم ينتظر غازي انقشاع العاصفة، وأرسل هديته الثانية إلى المارقين، شُدّت أذرع المجانيق ورمت كرات لهب أنارت سماء الفجر الملبدة بالغيوم، واخترقت جدار الدخان، ومرة أخرى سُْمِع دوي انفجارات، اكتفى بثلاث دفعات من القذائف قبل أن تُسمع قرقعة عظيمة وصوت ارتطام، وحل سكون لا يقطعه إلا صراخ وصدى أنين يسري مع الهواء. وَجَمّت الوجوه، وجمال الخوف في صدور الرجال، والسلطان على صهوة جواده، ينتظر انقشاع الدخان، ومرة أخرى سُْمِع دوي انهيار أجاج الغبار.

كل شيء حدث بغتة لأهل عين الشمس والمتحصنين بها، آخر ما يذكرونه أنهم كانوا ينظرون إلى الروافع وهي تسحب مهد الخلود من البئر الشاسعة، وما كادوا يفعلون حتى اهتزت الأرض تحت أقدامهم، وملاً الغبار حناجرهم وُصمت آذانهم، نُسِفَت الأبراج وانهارت ساحبة معها السور الشمالي بأكمله، وما تبقى من البوابة إلا نصفها وجزء من الباب الخشبي العظيم. وبعدها أرسل السلطان الدموي قذائف المجانيق تحرقهم، وتشعل النيران في الروافع والأكواخ، ووسط الهرج هيّمن الخوف، وفُتِحَت شهية الموت، نال الرعب من الجرحى والناجين داخل القاع، وأصاب قذيفة منجنيق إحدى الروافع، فتهشم كالزجاج، وطارت الشظايا، وسقطت العوارض، كانت قريبة من موضع النجباء وحرس روح الحكمة، التي أصيبت

في رأسها، وسقطت مع كثير من أتباعها المخلصين. بحث عنها بدر بن حمدون الفزيع حتى عثر عليها، تفحصها بسرعة قبل أن يلطمها لتفتيق، إصابتها لم تكن بالغة، مجرد كدمة بجبهتها. ساعدها على النهوض وهو يصيح فيمن حوله:

- اخرجوا من الحفرة واحملوا السلاح، لا يدخلونها ونحن أحياء.

لم يكذب كلماته حتى سمعوا قرقعة عظيمة، وانزلت الرمال والصخور ساحبة معها الأكواخ والمباني إلى داخل الحفرة، تحطمت الروافع القديمة، وهوت إلى قاع مزدحم بالمؤمنين، هبط عليهم سيل من الرديم والحطام، وكتل صخر دهست من كان في طريقها، ومرة أخرى هاج الغبار، واحتضن بدر مخمرية وحملها وهو يحدثها:

- ستكونين بخير، اصمدي.

تشبث بدر بن حمدون بإيمانه، لن يهزم ما بقي يتنفس، وقرر القتال حتى النهاية على الرغم من أنه لم يتبين ما يحدث! أثار اللعين غازي ابن الأزرق غضبته، ولا قواعد في حرب البقاء، ووسط الزحام والفوضى حث خطاه حاملاً جسدها الضئيل بين يديه، ورأى بطرف عينه جاد مسجى تحت عارضة خشبية، ويحاول بعض النجباء إخراجه، ومن حوله وجوه شاحبة مغطاة بالدماء والحروق، وجثث قتلى وأشلأء وحطام، ليست هذه نهاية أحلامه ومسعى إيمانه الذي أراد تحقيقه. يسمع ديبب جند السلطان يتقدم، والسحب ترمي قطرات مطر ناعم هداً الغبار، وانقشع الدخان رويداً رويداً تاركاً ضباباً خفيفاً لم يُحِبْ أثر الدمار. لم يتبق شيء من الأسوار والأبراج، وتصعد جزء كبير من المدينة وانهار إلى داخل الحفرة، صانعاً ممراً كبيراً من الركام والرمال يهبط إلى القاع، وأعمدة دخان تتصاعد على طول الحواف الشمالية، وغازي المزهو بنشوة نصره يقف ناظراً إلى مشاته الذين يتقدمون بثبات إلى عين الشمس.

تقدمت صفوف من حملة الدروع والرماح بحذر، تدك الأرض تحت أقدامهم، وهم يعبرون أثر الأسوار المهدامة، ثلاثة آلاف من المشاة دفع بهم ليقضوا على من بقي حياً. كان المشاة منظمين ومدربين جيداً، ولكنهم لم يكونوا منيعين عن قذائف أصداف البحر، ألقت ثلاثة مجانيق مخبأة عن أعين العقبان، أكوام محار وأصداف هطلت عليهم كالطر، تهشمت وتحطمت نائرة رذاذاً لزجاً حمضياً على دروع وخوذات الجنود، استغربوا ما يُلقى عليهم وضحكوا على الرغم من انضباطهم، وسرت بينهم نكات عن فروج وأثناء نساء الساحل، وهم ينظرون إلى آلاف العبيد الخائفين أسفل منهم، ولم تكذب أقدامهم تطأ الممر الهابط إلا واشتعلت فيهم جميعاً النيران، ألقت عليهم المجانيق هذه المرة جمراً بحجم البلح انفجر فوق الخوذات والدروع، واقرن صراخهم بدوي طلقات بنادق باغتتهم من أطراف السور الجنوبي، وبرزت من الضباب قوات الجبهة الجنوبية ينتشرون على جانبي الحفرة، ومن لم يمُت من رجال غازي حرقاً سقط بالبارود، لم تشفع لهم الدروع الثقيلة، ولم يبقَ منهم حي، واحترقت رايات بني الأزرق أمام عيني السلطان!

أشيع عن جيش مملكة الساحل أنه الأكثر تطوراً ونظاماً في تلال الشمس، يملك عجائب السلاح والعتاد،

هم الوحيدون من يسافرون إلى الجزر والأراضي الواسعة شرقاً، نصف قوتهم وتفوقهم يرتكز على سفن البحر ولا مكان لها هنا، والنصف الآخر يكمن في قدرات محاربيها القتالية الفائقة، فرسان ومشاة وحملة بنادق تدفقوا قادمين من الجنوب الغربي والشرقي، من تصدوا للدببة والعجلات الحربية في الأيام الماضية، لم يتأخروا في التقدم والاصطفاف أمام بقايا الجدران والأبراج، للدفاع عن الحفرة ومن فيها. أفاقت مخمرية من صدمتها، ما زال رأسها يدور وتشعر بألم، غسلت وجهها وأراقت على صلعتها الخشنة الماء، جلست تنظر إلى العمال الخائفين والقتلى، بحثت عن جاد في الأنحاء ولم تجده، وأنين الجرحى يسود على همهمات المرتعبين. تحاملت على كل الأوجاع، ونهضت تنادي فيهم:

- الثبات الثبات، لن تثبنا المهالك عن طاعة أمر الخالق، أيها الناس إنما نُختبر النفوس بالآلام والخسائر، وإننا لمنصورون بقدر إيماننا بقدرتنا على تحقيق النصر، لن يوقفنا شيء حتى نخرج ما وعدنا به خالقنا، وعزائنا لا ترتضي إلا بالخلود.

أخذت تخطب فيهم، بينما بدر يرتدي درعه، وجاءوا له بجواد حرب قوي، وضع خوذته وهو ينظر إلى روح الحكمة، لكلامها سطوة على النفوس جعلت العمال يحملون المعاول، ويعودون إلى مواقع أعمالهم، وحمل المعالجون الجرحى وجثث الموتى بعيداً، وانطلق بدر بجواده صعوداً إلى حيث يصطف من تبقى من جيشه، ونادى فيمن يستطيع حمل السلاح، الذود عن العقيدة ومهد الخلود هذا واجبهم الأسمى، وانضم إليه الآلاف من أهل عين الشمس، ومن فوقهم في السماء الملبدة بالغيوم تحلق العقبان.

من أعلى الجرف الغربي لوادي الفجر، شاهد شاهين وكتيمبي وزمرتهما ما حدث، ظنوا أن غازي أحكم قبضته على عين الشمس، بعد ما فعله ونسفه للأسوار والأبراج وجزء من المدينة. كان الأمر محسوماً أمام دهائه وقواته، ولكن ما حدث فيهم جعل الصمت والذهول ينالان من الجميع، جمدت أعينهم وهم ينظرون إلى إبادة فرق مشاة بني الأزرق بالبارود والنار، ظهر جند مملكة الساحل كأن لم يمسهم سوء، اصطفوا في سرعة ونظام، وانضم إليهم الآلاف من عبيد عين الشمس، والآن لهم حق في جولة أخرى، وإن كانوا ليسوا بمثل عدد جيش السلطان. ترك ذهب مكانه بين قادة التحالف، وقطع خطوات بعيداً عن أبيه، رفع رأسه يشم الهواء القادم من الشمال، لا يكذب الرائحة التي يلتقطها مع نفحة هواء شمالية، تحلى عن حذره وارتقى صخرة عالية تطل على الوادي، كأنه يترقب شيئاً.

- ذهب! ما بك يا صاح؟!

اكتفى بأن حرك أذنيه إلى الخلف، ولم يلتفت إلى صاحبه، ظل واضعاً بصره على شيء في الأفق، اقترب منه الدرويش وربت على رأسه، وهو يستطرد:

- هل سئمت رؤية المعارك أم...

قطع كلماته وهو يحاول استبيان ما يراه، فرسان قادمون من الشمال، ثلاثمائة يزيدون أو ينقصون يحملون رايات بني الأزرق، ومع اقترابهم توارى خلف صخرة، عليهم عباة الحرس الملكي القرمزية، ربما جاءوا

ليلتحقوا بالمعركة، ولكن الذئب لم يرهم هكذا. أخذ ذهب يخمش الأرض ويدفع صدر أبيه بأنفه، ويدور حول نفسه محاولاً التقاط ذيله مزجراً، كان غاضباً والسماء تمطر، لعله أراد قول ما به، ولكنه لا يملك لسان البشر، توقف عما يفعل ونظر إلى وجه أبيه ونبح، وأخذ يلحق جرحه القديم، وفي الوادي بالأسفل، كانت فرقة دعم الحرس الملكي تنضم إلى معسكر السلطان، رفقة سعد الذي أوصاهم بالانتشار وتأمين المكان. قاد البرغوث جواده عبر المعسكر، سأل الجند عن سبب الانفجار وقت الفجر، وعلم بما يحدث عند عين الشمس، قصد إيوان السلطان ليجد حارسين على بابه، ولم يكن من العسير عليه التسلل، الجميع هناك مع السلطان يدفع بهم إلى الذبح، خسر ثلاث موجات من الفرسان أمام بنادقهم، وقبلهم ثلاثة آلاف من المشاة المدرعين، حتى إنه أطلق العقبان لمهاجمة الصفوف الخلفية والعمال داخل عين الشمس، وقريباً سيتحتم عليه خوض القتال بنفسه، وتلك فرصة سعد للنيل منه وسلبه الدرع التي لم يجدها في الإيوان، يريد أن يظفر بكل شيء، ويستشعر القوة التي تسري بداخله مع قدومه إلى هنا، بينما كان نرغال لا يتوقف عن حثه على الذهاب إلى الجانب الآخر من المعركة، ولكن البرغوث لا يريد التسرع، ويحسب الأمور بتأن وروية، سيقتل غازي وينتزع غنيمته، وبعدها سينضم إلى جيش مملكة الساحل، يريد أن يصبح بطلاً في أعين المؤمنين قبل نزوله إلى عين الشمس ليمنح نرغال المتسرع حرته.

وفوق الهضبة حيث ما زال رجال غابة الظلال يراقبون، ذهبت تيانا للبحث عن الدرويش، وجلس شاهين على الثرى المبلل، ونال منه الملل وهو يراقب المعركة، وكتيمي يقلب الرمح بين يديه شاردًا، وقطع الصمت صوت هارون النردى الذي حدثها وهو يمشط شعر جواده الكثيف:

- هل سنبقى هنا إلى الأبد، نراقب كالجرذان ما يحدث، من دون فعل أي شيء؟!

أجابه كتيمي بغضب:

- مضى نصف النهار وهم يتبارون بفرقهم وكتائبهم، ماذا تريد منا أن نفعل؟! هؤلاء ذوو الرايات السوداء والصفراء لديهم بواريخ كثيرة، وما زالوا صامدين على الرغم من قلة عددهم، إن نزلنا إلى الوادي سنكون بينهم، ولن نستطيع مجابهة كل هذه الأعداد.

ردَّ هارون بعصبية:

- أيها الملك كتيمي، إن الرواق عادت للعمل من جديد، ويبدو أنهم يخرجون ذلك اللعين من الحفرة، علينا التدخل، نباغتهم، ونشتت قوتهم، وتنزل فرقة منا لتسيطر على الوضع داخل الحفرة.

بعد قليل من الصمت، قال شاهين:

- إن النردى محق فيما يقول، القتال بينهم سيطول وقد أتوا لسلطانهم بكرسي ومظلة وشراب، إنه يعيث بهم طوال الوقت، وبستمع بمشاهدة الرجال يقضون نحبهم تحت المطر، إنه لا ينتظر أن تفرغ ذخائرهم أو تخور عزيمتهم، ولو أراد أن يفنيهم لقصفهم بالمجانيق، دعونا ننتظر اللحظة التي يريدها هو، أن يعتمر خوذته ويمتطي جواده، ويتقدم الصفوف بزهو وغرور، وهو يظن أنه منتصر قبل أن يخوض القتال. وحين يلتحم الجيشان ننزل نحن كطوفان جارف يدفع بهم بعيدًا.

تدخل الدرويش الذي جاء رفقة تيانا:

- أوافق السيدين شاهين وهارون رأيهما، علينا التحرك والنزول إلى ميدان الحرب، حتى قبل التحام الجيشين، نقسم قواتنا إلى جناحين وقلب، تمامًا كما جيش السلطان، الميسرة تحت قيادة الملك كتيمي ويكون معه محاربو غابة الظلال وقردة البابون، يجتاح معسكر بني الأزرق، ويحرق الخيام والسرادق، ويثير الفوضى، أما القلب فستقوده القائدة تيانا وأنا معها فوق ثيران قاع الأسود، مهمتنا أن نصل إلى غازي المشتت، ونفرض واقع معركتنا، أما اليمينه فيقودها سيد بني شمس شاهين، فرسانك إلى جانب فرقتين

من الرماة والخيالة، تستطيع بهم دحر جند الساحل المنهكين وبلوغ الحفرة. إنهم يتقاتلون منذ الصباح، ولن تحملهم أقدامهم أكثر من ذلك، حينها سيكون علينا القتال حتى آخر رجل. عشت سنين أختبئ من الماضي، ولا أجد خيرًا من هذا الوقت للعودة للنار.

كانت في تقسيم القوات وجاهة نالت استحسانهم، خطة جيدة يفتتون بها جيوش أعدائهم إلى قطاعات صغيرة يسهل السيطرة عليها، مهمة شبه خيالية سينفذها ثمانية آلاف رجل. يعلم ماذا يريد كل منهم، ولم يُعد يطبق صبرًا للقصاص من قاتل عائلته، لم يأتوا إلى هنا للاختباء والانقضاض على المنتصر الجريح، يجلسون بينما يدير غازي معركته وفق تقاليد الحروب، كتيبة تخرج لتبارز أخرى ولا يهم كم يخسر من جند، ما زال يفوقهم عددًا، ووحدهم من يستطيعون كسر شوكتهم، وفرض واقع جديد. نهضوا جميعًا ليأخذ كل منهم مكانه ويرتب جنده، انضم سلام إلى قوات كتيبي، وكان الوحيد الذي يمتطي جوادًا، وانضم هارون النردى إلى فرسان الشمس رفقة شاهين، وذهب سيقف وسط صخور الجرف ينظر إلى معسكر السلطان، ويتابع حركة البرغوث الذي يميزه على الرغم من بُعد المسافة.

أدى سعد دوره كحام للمعسكر، لم يسأله أحد لمُ جاء وترك ما كُلف به في الشمال، تجول فارصًا سطوته مطمئنًا على الدفاعات، ويتفحص الجرحى ويتابع إخلاءهم من الميدان إلى خيام المعالجين، ونرغال الحبيس بداخله يترنم بشعوضة غير مفهومة، أثارت عاصفة خوف في نفسه، على الرغم من النشوة التي اجتاحتها، شعر بأن هناك شيئًا يتغلغل بجسده، والسماء من فوقه تزداد سوادًا، وضرب البرق أكباد الغيم، وأتبعه هزيم قوي رددت التلال صداها، هطلت الأمطار بغزارة، ومن بداخله يقول: «أذهب واقض على سفاح بني الأزرق، واحصل على الدرع أيها الملك سعد بن مرزوق».

في الحفرة وقفت مخمرية تنظر إلى السماء، وراودها شعور بأن هذه الإشارة التي انتظرتها طويلًا من الطبيب ذاك، وأتباعها يحاولون جاهدين رفع الصخرة البلورية المتوهجة، وبعيدًا عنها ناحية الجنوب، كان جاد الصغير يفيق من فقدان وعيه الطويل، فُجع بعدما وجد نفسه بين جثث تنتظر إشعال النيران فيها، شعر بألم يغزو جسده كأنه لم يُعد قادرًا على الحركة، داهمته نوبة خوف لم يشعر بها منذ أن كان في مرتفعات الصقور. حاول بصعوبة الخروج من بين الأجساد الباردة والدماء، بصره مشوش، وجسده بالكاد يشعر به، وأكوام من الموتى تكتم على أنفاسه، حاول بصعوبة الخروج من بينهم، وكاد يبكي قهراً، لكن هيهات إن كانت اختياراته الخاطئة سببًا في وجوده هنا الآن، وبعد جهد وصراع مع الذكريات والأثقال فوقه، استطاع التملص والخروج شاهقًا، عاد من الموت لإنهاء ذلك الجنون.

مال جان الصقار إلى أذن سلطانه، نصحه بالتراجع إلى المعسكر ووقف القتال، ولم ينطق نورين بكلمة وهو صاحب فكرة العودة وسحب جثث القتلى، وأمام صمود بدر بن حمدون ورجاله، لم يستطع غازي إجم غضبه ونفاد صبره، سئم وضج من هذا الهراء، وضع خوذته على رأسه، وعلق القرص الغريب على ظهره بعد أن خلع العباءة التي تعوق حركته، امتطى جواده الحربي الضخم شاهراً فأسه، ودار أمام قواته مرتين قبل أن يقول بصوت جهوري:

- ما جئنا إلا لنروي ظمأ الصوارم من دماهم، وإنني لمقاتلهم حتى ألقي أولهم وآخرهم داخل تلك الفوهة. إننا بنو الأزرق أهل الحرب وأسياد الأرض والسماء، وإنهم ليسوا إلا شرذمة قليلة واهنة المنية التي نسوقها إليهم.

وعلى الجانب الآخر كان بدر بن حمدون ينادي في رجاله:

- العدل واجب، وملك بني الأزرق زائل، وإني لراياتهم ممزق ولجندهم قاتل. خوضوا معي نزالًا أخيرًا من أجل ما وعدنا به خالقنا. انظروا إلى السماء إنها تبرق لأجلنا، وتمطر لتغسل خطايانا. امضوا معي إلى الغلود.

مع آخر حروفه دمدمت الطبول ودوت الأبواق لتعلن الهجوم العظيم، أرخيت أعنة الخيول، وأطلقت العقبان لتحلق في سماء مطرة، تهدر الحناجر وتصبح الخيول ضاربة الأرض بحوافرها، والجيشان يقتربان من بعضهما، وعلى الجرف الغربي كان هناك جيش ثالث يتدفق على التلال إلى وادي الفجر.

قدم جيش غابة الظلال في نفس التشكيل الذي رتبته الدرويش، قادم من دون رايات أو بيارق وأعلام، وإلى جانبه تيانا داخل صندوق من الخيزران، مثبت على ظهر ثور عملاق ذي قرنين عظيمين، وعلى الأرض إلى جواره ذهب الراكض بسرعه متقدمًا الصفوف، ومن ورائهم مئات من المحاربين والوحوش الضخمة التي أطلق من على ظهورها وابل سهام، سبقتهم إلى النزال القائم بين جيئني الساحل وبني الأزرق. لم يستطع الطرفان كبح سيقان الخيول، وينظرون إلى قوات تتدفق من أعلى المنحدر قادمة نحوهم، لا وقت لديهم ليقفوا القتال ليعرفوا ماهية القادمين، سقط الكثيرون من الجانبين بفعل رشقات جيش الغابة القادم ناحيتهم، وظلت الأرض ترتج تحت الأقدام حتى جاءت الثيران، سيل جارف من الثيران الغاضبة أطاحت بالخيول والفرسان، كان وقع اصطدامها ودخولها الساحة مفزعًا وقاتلاً. حصدت تيانا سهامها الأرواح بسرعة، والدرويش يرمي الرماح إلى صدور من حوله، وعيناه تبحثان عن ابن عمه الخائن، ولم يكن ذهب أقل ضراوة من أبيه، كان يفتك بكل ما يتحرك من دون الثيران.

وفي الشمال اجتاح كتيبي معسكر السلطان، عاثوا فسادًا، وكان وجودهم مرعبًا بحق، لم يقف أمام محاربه وقردة البابون سوى بضعة رجال، وكانوا على وشك الخسارة لولا تراجع قسم كبير من الجيش بقيادة جان الصقار، الذي قاتل ببراعة من على ظهر جواده، أما صاحب الرمح فأراد بلوغ إيوان السلطان وإحراقه، حتى لا يجد غازي ومن معه سبيلًا إلى العودة، وإلى جانبه سلام الذي استطاع أن يطلق سهامه بمهارة من على صهوة جواده، أصاب الكثيرين حتى رأى شخصًا يحسب أنه يعرفه.

على مقربة من أنقاض الأسوار، جاء فرسان الشمس واضعين رماحهم في صدور حملة بنادق الساحل، والذين نفدت ذخائرهم من بعد طول قتال، كانت هذه أضعف نقاط تمرکز أتباع بدر بن حمدون، تشتتوا حين اكتسحتهم الخيول وراكبوها، أثاروا الرعب في النفوس بهجومهم المباغت ودروعهم الذهبية، وراح شاهين يصول ويجول ضاربًا بسيف أجداده، وانطلق هارون النردى على ظهر خائل يخوض غمار الوغى وعيناه على وهج الحفرة، والمجانيق من كلا الجانبين عاجزة عن ضرب أي هدف وسط الاشتباك العظيم، حيث تتصارع ثلاثة جيوش، وكل منها لديه غاية تختلف عن الآخر.

وحده سعد لم يكن يعبأ بكل ما يدور حوله، شقَّ طريقه على ظهر جواده وفتك بمن يصادفه، بسيف قصير لا يشبع من الدماء، أراد بلوغ موضع السلطان، ونرغال بداخله يعلق على كل حركة وضربة ضاحكًا فرحًا

مشجعاً. لطالما كان البشر متوحشين، ولا يفرقون شيئاً عن بقية الأجناس، حتى وإن كانوا ذوي عقول تفهم وتعي، إلا أن شهوة الحياة تفوق كل الشهوات، ومن يقتل مرة سهل عليه أن يسرف في الدماء. قاتل ابن البوغاز بشراسة وجمال بجواده ببراعة من وُلد على سرج، وبمهارة تفادى سهماً مرّاً إلى جانب وجهه، شعر باحتكاكه على طرف أذنه، دار ببصره يبحث عن الرامي ولم يكن إلا سلام، آخر من توقع رؤيته في الحياة. صاح فيه نرغال: «اتركه وامض إلى عين الشمس. توقف يا سعد عن الحماقة، إننا على بُعد خطوات».

لم يأبه البرغوث بنداء واستجداء سيد النار، الذي لعن اللحظة التي ولج فيها إلى جسد البرغوث، أدار جواده القوي الذي يزفر ويضرب الأرض الرطبة بحوافره، وانقض بكل غضب الدنيا على المغني الذي كان يوماً صاحبه، وسحب سلام سهماً آخر من جعبته وسدد ورمى، وشق الهواء بين الرماح والفؤوس قاصداً هدفه، تمامًا في الركبة اليسرى لجواده، ابتسم سلام غير مصدق لما فعل، بينما يتعثر الجواد ويذوب سهيل ألمه بين الصليل والصرخات، وطاح البرغوث وسقط تحت الأقدام.

وإلى قلب الساحة تقدمت الثيران الهائجة، أطاحت بموازين الحرب، خاضت برگًا من طين ودم، تدهس من يعترض طريقها، وذهب بينها يصطاد الجند من الجانبين، معركة حامية كُسرت فيها السيوف وزُهقت الأرواح، وهبطت العقبان على رأس الدرويش وكتائبه، وكانوا عراة أمام المناقير الحادة ولطحات الأجنحة، تحطفهم من الصناديق وتفقد الأعين، طاردوا الذئب الذي كان يتنقل بسرعة، وتحاشى أسنة الرماح والصوارم الحادة، بحث عن مكان يحمي فيه من الطيور الجارحة، التي كانت تدافع عن جيشها بشراسة، وأعدت ضبط القوى.

مهيباً هو السلطان، يصارع البرابرة والرعا ولا يضاهيه أحد في الميدان، الريش الأزرق أعلى خوذته يميزه بين مقاتليه أصحاب العباءات القرمزية، وبفأسه حطم الخوذات وهشم التروس، يستلذ ويتشهي كلما قتل أحدهم، ويجول باحثاً عن قائدهم ذي القرن الواحد، وفوقه يخلق ذو العرف ضارباً بقسوة فرسان الساحل، يحمل الواحد منهم ويطير عاليًا ليلقيه في الهواء، وكم من محارب دُهِس تحت الأقدام بعد سقوطه من عل! لم يكن الانتصار سوى مسألة وقت، وكل شيء سينتهي وفق ما يريد، حتى وجد نفسه وزمرته وجهًا لوجه أمام ثور عظيم، وذئب ضخم.

تأمل مشدوهاً الثور الغاضب ذا القرنين الكبيرين، يخور ويضرب الأرض بحافره الأمامي، ومن فوقه داخل صندوق خيزراني شخص يعتمر رأس أسد، ووراءه كان الدرويش يقبض على سلاحه جامدًا، لا يدري إن كان ما يراه حلمًا أم واقعًا لا يشوبه خيال! وقبل أن يفيق من حيرته أسقطت تيانا بسهامها الطويلة ثلاثة فرسان من الحرس الملكي، وانطلق الثور ناحية السلطان وجواده الهائج يفرك الأرض، لم يتراجع وهو ينتظر أمر صاحبه الذاهل، وكان الصدام أمرًا محتومًا لولا أن حضر ذو العرف، كأنه سقط من السماء ليلطم وجه الثور بقوة ليصده عن الارتطام، صهل الجواد ووقف على قائمته الخلفيتين، والثور يبذل اتجاهه وعلى رأسه العُقاب ينقره ويخمشه حتى فقأ إحدى عينيه، لم يكن بحاجة إلى أكثر من هذا لينقذ صاحبه من الموت المحقق، وخفق محلّقًا في سماء المعركة، ومن تحته الثور الهائج ينفض راكبيه عن ظهره.

وعند حافة عين الشمس، انسحب بدر بن حمدون وبعض رجاله أمام سيطرة شاهين وفرسانه، نجا بنفسه من مجزرة تدور بين التلال وركام الأسوار، لا يعرف متى وصل هذا الجيش الوحشي! في البداية ظن أنهم دعم للسلطان، ولكن حين شاهدتهم يفتكون بالجميع أدرك أن البقاء في ميدان القتال يعني الهلاك، أمر بالتراجع، وأن تُطلق أبواق الأصداف، ونزل إلى مخمرية التي تباشر رفع مهد الخلود، نجحت في إخراجه، لكنه ما زال يتأرجح فوق فوهة البئر، ومن تحته في القاع حمم تغلي وأبخرة تتصاعد، والعمال يقفزون ويصيحون فرحًا، وما إن رأته روح الحكمة حتى ضحكت والدمع ينساب من عينيها قائلة:

- نجحنا يا بدر، فعلناها أيها الحكيم.

احتضنها وربت على ظهرها:

- ما زال أمامنا الكثير، هناك جيش ثالث دخل المعركة وقلب كل شيء.

- من هؤلاء؟!!

- لا أعلم، يملكون ثيرانًا وفروودًا ووحوشًا ضارية، ولديهم فرسان في دروع ذهبية وخيول مسومة. كم بقي أمامنا؟

- علينا أن نبدأ الطقوس الآن، انظر يمكنك أن ترى ما بداخلها، إنه ينبض بجمال وبعث الطمأنينة في النفس.

لم يدر بدر بن حمدون عن أي طمأنينة تتحدث، بينما تجري أنهار الدماء، ويخوض من تبقى من رجاله معركة قد تكون الأخيرة! انسلت من بين ذراعيه، وأخذت تلقي توجيهاتها بتجهيز الأضاحي، عليها أن تفتح الزكية البلورية وتحصل على ما بداخلها، كما وعدهم خالقهم على لسان الحكيم نرغال.

في الشمال وعلى بوابة معسكر جيش بني الأزرق، كان القتال يشتد، وسعد ينهض من بعد عشرة جواده، ونرغال يلومه ويوبخه على عدم انصياعه، صم البرغوث أذنيه وهو يبحث عن سلام، كان مشتتًا بين الثرثار بداخله وما يفعل بيديه، بارز أحدهم، وما إن صرعه حتى تلقى ركلة قوية بصدرة من محارب آخر، تراجع من دون أن يسقط، واتخذ وضعية دفاعية، وخرج له من بين الغبار ملك غابة الظلال، يرتدي درعًا من جلد تمساح، ويتلاعب بالرمح بثقة، وتبدل صوت نرغال وهو يقول بنبرة شجن: «هذا رمحي يا سعد، احصل عليه من ذلك الحقير». لم يمهله كتيبي الفرح بصيده، انقض عليه هجومًا محاولًا طعنه ورشق الرمح بصدرة، وبيالغ المهارة تحرك البرغوث يصد الضربات ويتفادى الطعنات، تتبدل أدوارهما بين هجوم ودفاع، ومحارب غابة الظلال أكثر رشاقة وشراسة، ولم يتردد كلاهما في إلحاق الأذى بالآخر. مواجهة حقيقية بين حامل الرمح الفضي وسيد النار، لا هوادة فيها ولا رحمة، والموت قريب من كليهما، ونرغال داخل سعد يث فيه مزيدًا من الشر والحقد، وبدا أن المبارزة لن تنتهي حتى ظهر سلام، الذي اندفع بجواده إلى حيث يتعاركان وحاول أن يصيب البرغوث، رماه بسهمين كاد أحدهما يستقر بصدر كتيبي لولا أن تحرك في اللحظة الأخيرة، ولم يكن القوس سلاحًا فعالًا في تلك المساحة الضيقة، نزل عن جواده شاهرًا سيفه، ودخل ليساعد صاحب الرمح في اللحظة التي ظهر فيها جان الصقار لينضم إلى سعد.

وفي ساحة القتال الوسطى راحت تيانا تقاتل بسيف كالمنجل، بعد أن سقطت عن ظهر الثور في جهة

والدرويش إلى الأخرى، نهض ليجد ذهب يقصي الفرسان واحدًا تلو واحد، أصيب الذئب بجراح عدة، وكلها طفيفة أمام ما يفعله بهم، وغازي على مسافة منهما فوق جواده يفتك بالمحاربين، ويدفع من تبقى من جند مملكة الساحل إلى الوراء، والثيران من حوله ما زالت تضرب وتدهس رجاله. أشهر الدرويش سيفه، وأطلق صفييرًا وهو يركض باتجاه السلطان، ولحق به ذئبه، الذي كان يعرف هدف صاحبه وسبقه إليه، فوجئ جواد السلطان بشيء يقفز أمامه ويناوره، حاول أن يدهسه، وأفلت الذئب الرشيق على الرغم من ضخامته، وحش عفي يعرف كيف يقاتل ويصطاد، استطاع أن ينشب مخالبه في بطن الجواد القوي حيث لا دروع تغطيه، وتدلّت أحشائه وهو يحاول الفكك، سقط وطاح غازي من فوقه، لم يدرك الأمر إلا وهو ملقى على الأرض، والجواد يحتضر ويصهل ألمًا، والقرص العجيب ملقى بعيدًا عنه، وأدرك ابن الأزرق أنها النهاية وهو يرى الوحش ذا الفرو يقترب، وهمّ الذئب بالانقضاض، لكن هبط ظلّ عظيم من السماء مهاجمًا.

انقضض ذو العرف ضاربًا رأس ذهب الذي حاول الإمساك به، ولكن الجراح طار وارتفع، وقام غازي شاهراً فأسه، ضاربًا أحد جنود مملكة الساحل، وشق رأس أحد برابرة الغابة، واستدار ليواجه رجلًا طويل القامة صارم الوجه أصلع الرأس كثر اللحية، وفي يده سيف طويل، ظل برهان يحدق إلى ابن عمه، لحظة ظن أنها لن تحدث أبدًا، اندفعت في عروقه ذكريات سيئة، وعرضت عليه سنوات اختبائه، لكنه لم يقف كثيرًا عند حافة الذكرى، اندفع نحو غازي الذي لم يره سوى خصم بربري هزيل، والتقت فأس غازي وسيف برهان، مبارزة شرسة دارت بينهما، وعلى وقع صليلها رقص العقاب والذئب، حاول كل منهما الفتك بالآخر، وتناثر الريش والدماء، وبالقرب منها قاتل برهان ببراعة أدهشت مبارزه، الذي لم يتوقف عند حد الاستغراب، واستطاع أن يجرح بفأسه ذراع الأصلع الغاضب، وحاول بعض الحرس الملكي التدخل لدعم سلطانهم، ولكن تيانا ومحاربيها تصدوا لهم، وذو العرف يطير وينقض على ذهب الذي كان مشتتًا بين مهاجمه وذوي العباءات القرمزية.

وخارج بوابة المعسكر كان سعد يخوض أكثر معاركه شراسة، جابه حامل الرمح بقوة، الذي كاد يقضي عليه، ولكن البرغوث سريع الإفلات، فطن لكل حركة ومنتبه للهجمات المتتالية، هيمن كتيبي على مجرى المبارزة، أصاب سعد بعدة جروح، وكلما لمس نصل الرمح تألم نرغال. كل شيء يسير على نحو مذهل نحو نهاية مثالية لأمير الرمح الفضي؛ محاربوه يسيطرون على القتال، وقردة البابون تفتك برجال بني الأزرق، حتى نطق البرغوث ساخرًا وهو يفلت من إحدى الضربات:

- أراك تقائل بارتياح أيها البربري، ولا يليق هذا بمن اغتصبت زوجته عشرات المرات. كانت شهية قبل أن تُقطع وتُرمى طعامًا لأسماك البحر.

قوله جعل كتيبي يشرد لوهلة، وكانت كافية لأن يصرخ نرغال: «الآن يا سعد». وجرّ البرغوث خنجره على الوتر الخلفي لركبة ملك غابة الظلال، وجرح آخر شج فخذه، حاول ألا يسقط والغضب يتملك من حواسه، والدماء تتدفق من جروحه:

- لا أصدق كاذبًا خان صديقه وقتله غدراً!

تبادلًا الأدوار بين دفاع وهجوم، وسعد يضرب بغلًا، ونرغال يمدّه بكرهية تحركه. قاتل كتيبي بضراوة على ساق ونصف الساق، والدماء تسيل من جرحيه، وحاول ضرب البرغوث بطعنة ناهية، ولكنه أفلت مرة أخرى بأعجوبة. وعلى بعد خطوات منها انغمس سلام في مواجهة غير متكافئة لصالح رفيق السلطان، ولم ينجده سوى أن جاءت زمرة من محاربي غابة الظلال وساعدوه، وكان راعي الطير بارعًا حتى أمام خمسة رجال، يقاتل بسيفين لا يعرفان الكلل، يدور حول نفسه ويلف بهما كمروحة تشذب الأعناق، وقردة البابون ما زالت تفتك برجال بني الأزرق المشغولين بالذود عن معسكرهم.

كاد سعد ييأس وقد أرهقه النزال، بدا عاجزًا أمام سرعة المحارب الجريح وتفننه في القتال، وكان عليه الإنصات لنرغال الذي أخبره بضرورة إسقاط الرمح من يد الرجل، ويبدو أن سيد النار يعلم كيف يتعلق البشر بما يحبون، وكانت نقطة ضعف كتيبي هي ذاتها ذروة قوته، راح سعد يثير غضبه بكلمات عن سيرين وفعله بها، نال منه الغضب وراح يلوح بالرمح وفؤاده مهشم، بينما دار البرغوث بخفة في الهواء وركله في ساقه المصابة، وكانت كافية لأن ينكب على وجهه، ونرغال يبث النشوة في قلب البرغوث، الذي اقترب من الصريع وركل يده الممسكة بالرمح ليطيح به بعيدًا، ومال بجذعه قائلاً:

- هذا السلاح لا يليق برجل يتبع قلبه، ويطارد السراب!

لم يكّد يتم كلماته حتى سقط أرضًا، سحبه كتيبي بيده الأخرى وتعلق به خنقًا، تقلبا بين القتلى وغرس سعد أصابعه بجرح فخذ مصارعه، الذي صرخ ألمًا، وجراحه تنزف بغزارة، لكنه لم يفلت فريسته، وكلما ضغط على رقبة البرغوث زاد من وحشيته، فتح بأظافره جرح كتيبي وعض يده ككلب مسعور، واستطاع أخيرًا أن يفلت من بين يديه بصعوبة، زحف على يديه وركبتيه مبتعدًا يلهث، لم يكن ملك غابة الظلال نداءً سهلاً، ونهض متحاملاً على آلامه ممسكًا بأحد خنجري سعد المنهك، مشى باتجاهه يعرج بخطى واهنة ثقيلة وهو يقول:

- إن كان هذا آخر يوم لي في الحياة فلن أرحل عنها إلا وروحك في قبضتي.

اقترب ملك غابة الظلال وهو يعرج، كان غاضبًا ولن يثنيه شيء عن ذبح ذلك اللعين، وقبل أن يهوي عليه بالخنجر، كان سعد يقبض على الرمح الملقى بجانبه، شعر برجفة تجتاح جسده، كأنه يمتص روحه، وفي مضمة رفع الرمح وثبت إياه إلى الأرض، واخترق النصل المشع درع وبطن المحارب الذاهل، وعلى الرغم من الألم والدهشة دفع بثقل جسده أكثر، وهو يصرخ محاولاً الوصول إلى سعد، ولكن الأخير نهض بقوة لم يعهدا في نفسه من قبل، رافعًا جسد كتيبي على سن الرمح أمام أعين الجميع.

في تلك الأثناء أدى جان الصقار ما عليه، لم يتخاذل في الدفاع عن راية العقاب حتى سقط تحت وطأة الطعنات، وفجع سلام وبقية الرجال وهم ينظرون إلى كتيبي يلقى كخرقة بالية إلى الأرض، والبرغوث يقف فوق رأسه ضاحكًا، ويقلب السلاح ذا النصل المشع بين يديه. نظر ناحية خصمه المحتضر الذي كان

بيتسم، وانسل من عينيه دمع، يرى سيرين تقف حاملة رضيعها، فما كان منه إلا أن أخرج عودًا رفيغًا من حزامه، ووضع بيد مرتعشة على طرف شفثيه، وأطلق صفيحًا على الرغم من خفوته بلغ مسامع من يريد، ولبت قردة البابون نداء سيدها، الذي فارق الحياة بطلًا حتى اللحظة الأخيرة. مات ملك غابة الظلال، وقد أدى ما عليه في سبيل من أحبهم ووثقوا به، وها هم أولاء أتباعه ينطلقون نحو سعد الذي كان يريد مغادرة المعسكر، والانصياع أخيرًا لما يقوله نرغال، ولكن حشود البرابرة والقردة كانت قد بلغت موضعه ورجاله، ودار الاشتباك.

وفي قلب الميدان كان ذو العرف يرتفع ضاربًا الهواء بجناحيه الكبيرين، حاملاً الذئب الذهبي الضخم الذي راح يتملص محاولاً الإفلات، لم يعلُ العُقاب أكثر من بضعة أمتار، ووقع ذهب ليرتطم بالأرض، لكنه نهض بسرعة ليقف مجددًا، أذنه مقطوعة، وينزف من جراح ظهره، متعب يدور ببصره في أرجاء ساحة تتزاحم فيها جثث الخيول والثيران والرجال، ورائحة الدم تزكم الأنوف، وصاحبه يقاتل على الرغم من كونه مثخنًا بالجراح، وكذلك السلطان الذي أصيب في غير موضع، طالت المبارزة بينهما، وما تدخل أحد لمساعدة طرف إلا وكان الموت نصيبه. خلع غازي خوذته وألقاها بعيدًا بعد ضربة قوية تلقاها، ولأول مرة منذ عقد يرى فيها برهان وجه قاتل عائلته، من غدر بهم، وخان العهد، والندوب الزرقاء تذكره بصنيعه به، ولم يتوقفا لالتقاط الأنفاس على الرغم من الإنهاك والجروح، ورفع ذهب بصره مراقبًا العُقاب الذي يخلق فوق الرؤوس، سئم مما يفعله الجراح المتباهي، وقرر الذئب أن ينهي القتال، ركض بسرعة باتجاهه وتفادى الضربات التي هوت عليه، وقفز عاليًا في أعين الأشهاد الدهالين، بدا كأنه يطير من دون جناحين، فروه الذهبي المبلل يلمع على ضوء شمس أفلت من بين الغيوم، وقبض بفكه على عنق ذي العرف، سقطا معًا ولم يفلت ذهب الذي عقره وأخذ يمرغه في بركة طين ودم، حاول العُقاب التملص وجرح وجه الذئب، الذي ازداد شراسة وغضبًا حتى اقتلع رأس الجراح، وأغمض ذو العرف عينيه.

وبينما ذهب يفعل ذلك كان برهان يطعن غازي، شق النصل الدرع الواقية، وغرس بجانبه الأيمن، صاح ألمًا وبكل ما تبقى من عزم في ذراعه هوى بفأسه على مبارزه، ولم ينجح برهان في تفادي الضربة، جاءت قوية مباغته أعلى صدره، مزقت اللحم وتفجرت الدم. حاول غازي أن يسحب الفأس لكنها علقته، وتشبث كل منهما بالآخر وحال ذلك دون وقوعهما، يتواجه الرجلان وسلاحهما كل في جسد الآخر. أعينهما الزرقاء التفتت عن قرب، وشعر غازي بأنه يعرف الرجل الذي قال مبتسمًا على الرغم من ألمه:

- كيف وجدتنى يا ابن العم؟! في مواجهتنا السابقة تسببت بجراح في وجهك، واليوم تزهق روحك بيدي.

قالها وهو يغرس سيفه أكثر بجسد غازي، الذي لم يفيق بعد مما سمع وما حاق به، نفذ السيف إلى ظهره وصاروا يلتصقان ببعضهما، وضرب الدرويش رأسه بجبهة ابن عمه، وربما تلك التي أفاقته من حصار الذكريات والألم، ردَّ الضربة بمثلها ضاحكًا وهو يقول:

- صرت أكثر عزمًا وقوة وشجاعة عن آخر مواجهة بيننا أيها الجبان.

ردّ برهان وهو يمنحه رأسية أخرى:

- الجبان من احتفى بأتباعه الخونة عاشقي الضلال. أين هم الآن؟! مات سليمان وراجي أمام عيني، وخانك ثالثهما قاسم أصلان.
لم يرد غازي المملوح بالدماء إلا بثلاث لكيات، وتلقى مثلها قبل أن يسقطا معاً، يلهثان ولم تعد سيقانها قادرة على حملها. بصعوبة سحب السلطان السيف من جانبه، وأخذ يكتم الدماء الغزيرة بيديه، تعجب من تدابير القدر، عاش عقداً من الزمان وهو السلطان الأشرف غازي صائد نمور الثلوج، وأمام الواقع تتبخر الأكاذيب. استلقى برهان على ظهره والفأس مثبتة في كتفه، يسعل وعيناه تجولان في السماء فوقه، العقبان تخلق في فوضى، ومن حوله يشتد القتال، وكلاهما ينزف بعد ما صار بينهما من نزال، وضحك غازي وهو يحاول النهوض مجدداً قائلاً:

- عدت لتفسد كل شيء وتأخذ ما ليس لك، كعهدك دوماً. ومن الجيد أنك جئت لتلقى مصيراً تأخر عشرة أعوام.
- اللقاء محتوم يا ابن العم.

قالها برهان وهو يتحامل على آلامه ليعتدل جالساً، أسند ظهره إلى جثة ثور ضخمة، تحسس الفأس ومدى عمق غرسها، وضغط على أسنانه، وجذبا لتندفق دماؤه على صدره، نظر إلى غازي الذي يتقدم نحوه بخطى متأرجحة، ويحاول كتم جرحه النازف بيد، وبالأخرى سيف مخضب بدمه، وما إن اقترب حتى رمى برهان الفأس نحوه بقوة كافية، وأصابت ساقه التي يتعزز عليها وسقط بجواره. منهكان تغرقها الدماء، وتتناثر الجروح في جسديهما. بجهد اعتدل غازي ليجلس أمامه وكلاهما ينظر إلى زخم المعركة القائمة، لا يبدو أن أحداً شعر بسقوطها، الأرواح تزهق وتبكي من فوقهم السماء. قال برهان الذي أرخى جسده:

- ما وجب عليك أن تغدر بأهلك وبمن أحبوك! كيف لك أن تخون من كانوا عوناً لك وسنداً؟! كنت الأقرب إليّ، صاحبي الذي أفضي إليه بمكنون صدري، وأخي الذي تشاركت معه كل شيء، طننتك درعي وخذلتني، لم فعلت كل هذا؟!

- كاذب، لم أكن أي شيء بالنسبة إليكم، كنتم أفضل مني مكانة ونسباً، أمي من جبال الدب، وأنتم أنقياء الدم، أنا سليل رضوان الأعرج الابن الصال لجاد المعظم، وأنتم أحفاد وأبناء الصالحين من سلالة. حصلتم على أفضل الخيول والعقبان والنساء، وحظيتم بكل شيء، بينما أجلس أنا في آخر المائدة، ولم أكن لأترك العرش لبلهاء لا يعرفون سوى الراحة والدعة. لم يتعدّ طموحك ليالي السمر رفقة الجميلات. كانت لكم أحلام ولي أخرى، كُتب في الجاباسكي أن خياراتنا تحدد ما نصبح عليه، وبوشمون ظهورنا لتنعم قلوبنا بالشجاعة، وأظن أن لديّ ما يكفي منها لأفعل ما أريد، وقد فعلت.

- أيّ شجاعة فيما فعلت؟! لم يكن هذا إلا شرّاً خالصاً.

بصعوبة وكلمات متهدجة قال غازي:

- لا يتعلق الأمر بخير وشر يا برهان، بل خيار وفعل. أردت أن أجعل منا أمة عظيمة، وسلالة نقية الدم من نسلي.
- وهل وجدت ما سعيت لأجله؟!

تحسس غازي جرحه، وهو يقول مبتسماً مقاوماً الإعياء:

- لم آخذ إلا ما قدر لي يا ابن العم.

كانت هذه آخر كلماته قبل أن يشهق ويصمت إلى الأبد، شخّص بصره المرسل إلى ساحة القتال، وسال خيط دم رفيع من بين شفثيه، وبرهان بجانبه يتمتم بنبرة حزن تفوق كل آلام جروحه، وعينان تترقق فيها

الدمع:

- لم حدث كل هذا؟! تعلم أبي أحببتك، وكان تُعصي لك أعظم. كسرت شوكتنا ودمرت ملك شعبنا وكل شيء بيننا، كيف سولت لك نفسك فعل هذا ونحن أبناء دم واحد؟!

توقف الدرويش وسعل بقوة، لا فائدة من سؤال من دون إجابة، قضي الثأر لأجل عائلته التي كان غازي واحداً منها. شرد في ذكريات قديمة تجمعها، وبعثت في نفسه مزيداً من الألم وحزناً عميقاً، كاد يترك روحه للاستسلام، لكنه رأى سعد يركض في الساحة حاملاً الرمح، لم يصدق وظن أن هذيان الموت يراوده، وفاجأه من الناحية الأخرى قدوم ذهب يهرول إليه حاملاً رأس العُقاب بفمه، ألقاه في حجره واقترب منه بلطف لاعتقاً وجهه، عانقه وأصدر نباحاً حزيناً، وبرهان يحدثه مبتسماً:

- أنا بخير أيها العجوز، لا تقلق. ما زال أماننا الكثير لنفعله.

وجاءت تيانا مرتاعة من مظهره، ألقّت نظرة سريعة على غازي الجامد بجواره، وانكفأت على حبيبها تتفحص جراحه برفق وهو يقول لها:

- تيانا، يبدو أن سوءاً أصاب كنتيمي، رأيت قاتل بياض يحمل الرمح.

- لا تتحدث كثيراً، سأحملك خارج الساحة، اصمد.

- ساعديني على النهوض، أنا من تسببت في موت أهل التل الدموي وغابة الظلال، كل شيء أقترب منه يتحول إلى دماء، يجب أن أنهى كل هذا كما بدأنه، حصلت على ثأري، ولم يتبق سوى الوفاء بعهدي لكنتيمي، والقصاص لبياض القرش.

- جراحك تنزف، وعلينا مداوانك أولاً.

- سنتدمل بموت الخونة وتحقيق العدالة، نحن نهزمهم يا تيانا، نحن ننتصر.

وعلى مسافة ليست بعيدة عنهما، كان سعد يقف على مقربة من الدرع، ينظر إليها بشوق وئرغال يحثه على حملها، ولم يتردد في التقاطها، ويعرف مقدار القوة في الرمح الذي بين يديه، وما إن لمس الدرع حتى انتفض بقوة، وشعر بأن العروق تكاد تنفجر في جسده، واهتزت الأرض تحت أقدام المحاربين، وتوهجت الدرع وهو يثبتها على ذراعه، وتفجرت موجة غبار مع ضياء غشي الأعين، وارتجفت أفئدة الرجال، وفزعت الخيول والثيران، ولمعت عينا سعد ببريق قاتم، وأحس بأن كل شيء إلى جواره ضئيل، والصوت بداخله يقول له: «أرأيت ما يمكنني منحك إياه؟! الآن يمكنك الشعور بالخلود الذي تريد، امضِ إلى الحفرة، وستحصل على المزيد أيها الملك الخالد».

سرى نبأ موت السلطان غازي، وخارت عزيمة جيش بني الأزرق، وسيطر محاربو غابة الظلال على المعسكر، وفي المقابل فقدوا ملكهم الشاب، وكذلك الرمح الأسطوري. حلّ الحزن ولم يتوقف القتال، انشغلت القرود المتبقية بمحاولة الإمساك بالطيور الجارحة التي لم تتوقف عن هجماتها، وتعجب سلام من ثبات أهل الغابة على الرغم مما حاق بقائدهم، ظن أنهم قد يتراجعون ويفقدون الإيمان بالنبوءة، ولكنهم تكاتفوا وأخذوا يساعدون جرحاهم، ويحصنون المكان، ولم يلبث أن خرج مع زمرة من المقاتلين، وانضم

إليهم الذئب وتيانا والدرويش المصاب، وعدد من الثيران التي ما زالت قادرة على القتال. لم تنته المعركة، وأمامهم في وسط الساحة تجمعت قوات جبال الدب مع مَنْ تبقى من رعاة الجوارح والفرسان، وتحلقوا حول سعد الذي بدا قوياً على الرغم من جراحه، مشدود الجسد جاد الملامح، سبق وشاهدوا ما حدث حين حمل الدرع، مات سلطانهم وجان الصقار والكثير من الأمراء، حتى الحرس الملكي لم يتبق منه سوى بضعة رجال، وانصاعوا له جميعاً طمعاً في أن يقلب هزيمتهم إلى نصر، وقد أصبحوا محاصرين بعد أن تحلى عنهم نورين، الذي تراجع إلى الشمال الشرقي حيث قُتل الماجوني سابقاً.

أحس سعد بنشوة عجيبة، وبداخله ينمو فخر بما صنع، وبث نرغال في روحه نفحة غرور وكبر، آمن بما يستطيع تحقيقه، ورمى في عقله رؤى له وهو ملك مُتَوَجِّج والناس يلتفون حوله ويهتفون باسمه، تأمل مَنْ حوله سعيداً، ولم يبال بأي شيء، نسي كيف كان ومن أين جاء! أسئلة لم تُدر في عقولهم أيضاً، وهم يلتفون حوله آملين أن يكون المخلص، وسرى بين بعضهم أنه روح جاد المعظم جاء لعونهم، وانتشالهم من المعركة الملعونة التي أودت بسلطانهم، وكانوا يظنون من قبل أنهم لا يهزمون، والآن يقفون وسط ساحة تعج بجثث أبناء جلدتهم وأعدائهم، وبالكاد تبينوا أن الشمس بدأت تستعد لساعة زوالها، وهم محاصرون ولا مكان للانسحاب إليه، مات الكثيرون منذ خيط الفجر الأول، والآن عليهم الصمود إلى جانب بطلمهم سعد بن مرزوق.

وإلى الجنوب بين الحفرة والأسوار المهدامة، هيمنت قوات شاهين بن عز الدين، وانضمت إليه بضعة ثيران وكثير من المحاربين والجرحى، وذلك بعد فرار جند الساحل إلى داخل عين الشمس. نادى في فرسانه بإعادة الاصطفاف، ودوى هزيم رعد، وبدأ المطر يهطل من جديد بقوة وغزارة. أوقف هارون النردى جواده المخضب بالدم إلى جانب سليل بني شمس قائلاً:

- لنهجم على مَنْ في الحفرة لقد أخرجوا ذلك الشيء اللعين. أشعر بأنه ازداد قوة، وأن ظلامه وشيك.

- لن أنزل إلى تلك الحفرة بقواتي. إنه فخ يا رجل، رفاقنا يحتاجون إلى الدعم، ويبدو أن شيئاً جلاً حدث، يمكن لهؤلاء المجانين الانتظار في قاع الحفرة حتى ينهي القتال الحقيقي.

عقد هارون حاجبيه، ولكز جواده ليتقدم إلى الأمام، ينظر إلى الجيش الذي يتجمع أمامهما:

- هل الرجل الذي في مقدمة قوات بني الأزرق يتوهج بضوء أحمر أم أنه يحمل شيئاً؟!

وداخل عين الشمس كانت مخمرية تذبذب مزيداً من المضحين، وتلقي أجسادهم إلى قاع بئر النيران، ومهدد الخلود معلق فوقها بالحبال والجنازير، يتأرجح وأبخرة القرايين تغمره، ويتموج سطحه ببريق وهاج، الأعين معلقة عليه، والآمال تزدهر في القلوب، زحام شديد داخل القاع، بينما وزع بدر بن حمدون مَنْ تبقى من رجاله فوق الأسوار وعلى الحواف، ونزل هو ليجاور روح الحكمة، وهو الذي كان يوماً ضد ذبح المؤمنين والتضحية بهم. أمسك سكيناً وأخذ يذبح القرايين من العمّال المستسلمين، وبين الحشود كان جاد الملطخ بالدماء يشق طريقه، خرج بمعجزة من بين الأموات قبل إحراقهم، شعر بأنه مُنِح فرصة أخرى في الحياة ليعوض ما فاتته، لا يعلم ما يحدث في الخارج، لكن يبدو أن الأمور لم تسر على ما يرام، لا يرى في السماء ذات

الغيم الأسود إلا بضعة عقبان فقدت رعاتها، تهيم باسطة أجنحتها، ولا أثر بينها لذي العرف، سمع البعض يقولون إن هناك جيشًا ثالثًا تدخل في القتال، وإن المعركة ما زالت تدور في الأعلى، لا يدري لم تذكر والده في هذه اللحظة، أنقذه بحكمة منحته مقامًا بين أهل عش العقاب، ويوم أرسله السلطان إلى آزاد، كان على يقين أنه ذاهب لمحاربة الشر، ولعله تردد كثيرًا، وتخاذل عن أداء واجبه، ولا ينكر أن الحديث عن العدل والسلام والمحبة كاد يسحر قلبه، لكنه ومهما تمهى معهم يعلم أن باطنهم أسود، وإن كان كلامهم معسولًا، أغوته مخمرية وصمد، وقتل في سبيل مهمته زريق وألقى بقية رجاله إلى التهلكة، لأجل أن يصل إلى حكمة تجعله يعدل عن قراره، والآن اكتفى من الانسياق وراء فضوله، وجاء وقت اليقين والواجب.

أطلت الشمس الغاربة من فسحة بين الغيم وتلال الأفق، بسطت أشعتها على ساحة مكسوة بالحث والرايات الممزقة. ملم كل فريق ما استطاع من جرحاه، إلا قوات بني الأزرق التي يقودها سعد، لم يفعلوا شيئًا سوى التجهز، بعد إخبارهم بأن عليهم التقدم والسيطرة على عين الشمس. اصطفوا وصوبوا وجوههم ناحيتها، ولا يفصلهم عنها سوى جيش من الفرسان ذوي الدروع الذهبية، وثلاثة ثيران ضخمة، أمرهم أسهل من هؤلاء القادمين وراءهم، ويتقدمهم الذئب وآلاف من البرابرة يريدون الانتقام لموت ملكهم. وكان البرغوث بين المطرقة والسندان، لا يريد سوى بلوغ قاع الحفرة حيث جسد نرغال، وانطلق ملوحًا بالرمح المتوهج، ومن بداخله يصرخ فرحًا وشوقًا لملاقاة جسده، الحماسة تفيض من روحه وتغذي مضيفه المنتشي، الذي أراد اختبار مدى قوته، وقد حصل على الخلود كما أخبره سيد النار.

أدرك هارون النردى ما يحدث، وكان أول من أشهر سيفه، وحث خائل على الركض، يعلم أن ما اصطفاه القدر إلا لهذه اللحظة، يجزم ويسلم بأن نرغال بداخل ذلك الرجل، وانطلق وراءه شاهين يحاول اللحاق به رفقة قواته، كان عليهم أن يحولوا دون تقدم سعد إلى الحفرة، يملك البرغوث الرمح ولديه درع تتوهج، ويبدو أن الأمور لم تكن جيدة لكثيمبي وغازي، هل كان سعد هو سيد النار طوال الوقت؟! وكان أهل غابة الظلال محقين، والوضع الغادر قادم ليحصل على كنزه أو أيًا كان ما بداخل تلك الحفرة، ولكن هيهات، هو شاهين الشمسي، ولديه ثأر مع البرغوث، يأتي قبالة مهاجمًا. وأمام ما تبقى من شمس العشية وقع الصدام.

قفز سعد عاليًا، وانقض واضعًا الرمح بصدر أحد الفرسان، سريع الحركة يطوف حاصدًا الأرواح، ولا يفرق بين خيول ورجال، يستعرض برشاقة، كأنه لم يُصَب بجراح، يدور حول نفسه ويسقط مهاجميه، بغرور أقصى كل من صادفه، حتى إنه صرع أحد الثيران بأعجوبة، ونجا من اصطدام الآخر، وتصدت الدرع على يده لعشرات الضربات، كان مندهشًا مما يستطيع فعله، وشق طريقه إلى عين الشمس وسط الأشلاء والدماء تغطيه، لم يوقفه إلا هجوم متزامن من فارسين، أتى كلاهما من اتجاه، تلقي ضربة سيف من راكب الجواد الحربي، أما الآخر صاحب الجواد الرشيق فنجح في إسقاطه أرضًا بركلة قوية في ظهره، انكب البرغوث على وجهه، ولكنه نهض سريعًا، تلفت لينظر إلى مهاجميه، يعرف أحدهما جيدًا ولم يندهش من وجوده، ونرغال يعلم من هو الآخر. هارون النردى وشاهين بن عز الدين، فارسان لا يتوقع طريقتي قتالهما، ولكنه قادر على

التصدي لهما وقتلها.

أحاطا به وتبادلوا الهجمات، وأظهر سعد براعة في التصدي والإفلات، يقفز ويتدحرج في بعض الأحيان، حاول أن يسقطها، ونجح الجوادان في مراوغته والنجاة، أرادا أن يعوقا تقدمه حتى يأتي المدد إليهما، ونفذ صبر نرغال الذي يريد بلوغ الحفرة، وبدأ سعد يتشتت في القتال بين الكيان الغاضب بداخله، ووصول بقية جيش غابة الظلال، يتقدمهم سلام وتيانا والدرويش والذئب الذي يتشوق إلى مذاق دماء البرغوث، ولم يبق من الشمس إلا غسق دموي على أطراف الأفق.

وفي عين الشمس وعلى وهج الزكية البلورية المعلقة، انسل ظلٌ من بين الحشود، سُوح له بالمرور إلى الدائرة الضيقة قرب فوهة البئر الممتلئة بالحثث المحترقة، يعرفون وجهه، لكنه كان يقف في صف المضحين، ينظر إلى العالم من حوله ببلادة، وهو بين ظهور أولئك الذين اصطفوا للموت، يطمحون في نيل بركة ذبحهم على يد روح الحكمة، فداءً للخالق والعقيدة وطمعاً في الخلود، سيعودون إلى الحياة من جديد، وهذه المرة أنقياء القلوب لينعموا بالأبدية، كانوا مبتهجين وهو بينهم بوجهه الملطخ بدماء جافة، تقدم باهتاً غير آبه بما يحدث حوله، رأته مخمرية ولم ترفع عينها عنه حتى مثل بين يديها، سألته بلوعة:

- ما أنت بفاعل؟!

كان بائساً، ومن نبرته يفيض اليأس:

- أريد الموت والتضحية فداءً للخالق، راعباً في الخلاص، والحصول على الخلود.

نظرت إلى مَنْ يقفون وراءه في انتظار دورهم بوداعة وغبطة، كظمت غيظها واقتربت منه هامسة:

- أيها الغبي! إننا على وشك النصر والحصول على كل شيء. ابق إلى جوارى، لا تفعل هذا.

ببرود رفع بصره إليها وقال:

- ماذا عن الخلود والإيمان، وكل هذه الدماء البريئة التي أربقت؟!

عقدت حاجبيها، وبدا التوتر جلياً عليها، كادت تطعنه، لكنه فاجأ الجميع بفعله، نهض وهجم عليها قابضاً على رقبتها، سحب السكين من يدها المرتعشة، ومن حوله تعالت الشهقات والهمهمات، وتقدم نجباؤها وحرسها الذين يعرفونه جيداً، وبين الحشود على الجانب الآخر حاول بدر بن حمدون الوصول مع بعض من فرسانه، ولوح جاد الصغير بالسكين أمام وجوههم، وقال بصوت جهوري:

- ماذا تفعلون أيها الأغبياء؟! تتقدمون إلى الموت كالنعاج طمعاً في سراب، لو كانت تضمن الخلود لِمَ لم تُضج بنفسها، وهي مَنْ قالت الجميع في عين الشمس سواء، إنها ساحرة مشعوذة تتبغى شراً عظيماً، ألا تشعرون بالحمم تغلي تحت أقدامكم؟!

قاطعته بنبرتها الرخيمة القوية:

- لا تنتصوا له؟! إن وجبت ساعتى سأموت فداءً للخالق والعقيدة، لم نبتغ غير السلام والعدل.

- غاية نبيلة وقناع زائف، لم تعرفي سوى الخبث والمكر، ولسيت سوى مجنونة شبيقة للدم. على كلِّ، اختارت السيدة أن تصحى... فداء خالقها.

وسحب جاد السكين المصقولة بنعومة على رقبة مخمرية أمام أعين أتباعها، أصابهم الدهول وهم ينظرون إلى الدماء تسيل من شق بحلقها، وهو يميل رأسها إلى الخلف ويهمس:

- وداعاً أيتها العاهرة، البغيضة.

وكل ما فعله أمام جمود الأ شهداء، أن ترك جسدها يهوي إلى البئر التي ألفت فيها العشرات، واندفعت من وراء جاد نفخة دخان أسود، في اللحظة التي وصل فيها بدر بن حمدون صائحًا:

- ماذا تنتظرون، اقتلوا هذا الخائن.

يقولون إن لكل رجل ساعة، وتلك كانت لحظة جاد التي انتظرها طويلاً، قتال قد يكون الأخير ولا يملك سوى سكين، وعلى حافة البئر ثبت ومن يضاهاى العقباب الصغير، لا يخشى الموت بل ينتظره، وكله رضا بما فعل ويفعل. استطاع أن يبهر الحشود المترددة بعد موت مخمرية، وأخذ يقا تل بمهارة وخفة ليسقط مهاجموه داخل البئر، وما لبث أن تفسى القتال بين الذين يريدون الفرار بعد موت روح الحكمة، وجاد لا يتوقف عن ركل هذا ولكم آخر، يطعن بسكينه الخفيفة بسرعة، وكاد يسقط في البئر، لكنه تعلق في أحد الحبال التي تحمل الحجر المتوهج، قفز إلى الجهة الأخرى ليجد على الأرض مطرقة كبيرة، ألقي السكين لتستقر في صدر أحد مهاجميه، وحمل سلاحه الثقيل، وبينما يخوض قتاله راح يضرب الأوتاد التي تحيط بالبئر وثبت الروافع البدائية التي ترفع مهد الخلود، ووسط التدافع والعراك الدامي، برز بدر بن حمدون أمام جاد الصغير وهو يقول:

- هل تظن أنك ناجٍ بفعلك هذا؟!!

في تلك الأثناء كان سعد يخوض القتال بمزاج رائع، يستعرض في قتل مهاجميه على حافة المنحدر، واستطاع أن يسقط شاهين عن صهوة جواده، وجرح ظهر هارون النردى، بل كاد يقتله لولا جواده السريع، استمتع البرغوث بما يفعل، وقواته تبلى بلاءً حسناً، والمركة متكافئة بعض الشيء، ولا أحد عصي على الموت، ونرغال خائف من المقامر المثابر الذي لا يكف عن ملاحظته، يخشى أن يترك جسد البرغوث ولا يستطيع الوصول إلى مبتغاه، قد تنجذب روحه إلى جسد النردى الذي يملك جزءاً من قدرته، ارتعب سيد النار، وراح يصيح في سعد الذي تشتت ذهنه، وأفاق ليجد سلام وصاحب الذئب وبضعة محاربين قد أحاطوا به من كل جانب.

أول من هجم عليه كان سلام الغاضب، وتبعته تيانا الرشيقه، والبرغوث يدور ويتصدى ويحاول طعنهما، وبرز شاهين ذو الوجه الملطخ بالطين، وتقدم رفقة الدرويش المصاب، وبسرعة لم يعهدا في نفسه راح سعد يتصدى للأربعة، ينحني ويقفز ويتفادى سيف المغني، ويتلقى على درعه العجيبة ضربة بمنجل المحاربة التي لا تكف عن الحركة، يركل سليل بني شمس، ويدفع الأصلع ذا الجروح، والمركة حولهم لا تتوقف على الرغم من حلول الليل. وعلى الوهج الخافت المنبعث من المشاعل والنيران المنتشرة في الساحة، استمر القتال، ولم يُصَب سعد بخدش، ولم يشعر بكلل، لكنه اكتفى من الدفاع وقام بهجوم شرس، أصاب الذراع

اليسرى لشاهين، وكسر أنف سلام ومنحه ضربتين بالدرع في صدره، وسقط برهان منهكاً مصاباً بجرح جديد، وحدها تيانا كانت ثابتة أمامه حتى أوقعها بمتن رحمة. تناثروا حوله على الأرض، وضحك حين رآهم يحاولون النهوض:

- لن تستطيعوا قتلي، أصبحت خالدًا...

قاطعته صوت نرغال بداخله: «كفاك غطرسة وتباهياً! اذهب إلى الحفرة اللعينة».

- اصمت... أنت، سأفعل ما أريد، وليس ما تمليه أنت.

صاح بها سعد أمامهم، وأخذ يتمتم كأنه يُحدث نفسه، أو شيئاً بداخله، وبعدها خرَّ على ركبتيه يمسك رأسه، وحاصرتهم الدهشة وهم ينظرون إليه، لا يعلمون أن مَنْ بداخله قرر أن يملكه، قال سيد النار بنبرته اللثيمة محدثاً إياه: «لم تمنحني خياراً آخر يا سعد. نسيت مَنْ أنا، وكيف كان اتفاقنا، صبرت عليك كثيراً، والآن وقد حصلت على بعض قوتي، يمكنك الآن أن تعرف قدرتي ومقامك».

أحس البرغوث بأنه يفقد الإحساس بجسده، وحمم تسري تحت جلده، شعر كأنه يغرق في بحر من نيران مستعرة، وكل هذا في لحظات معدودة، وحين نهض مرة أخرى لم يكن سعد سوى مجرد صوت داخل جسد استحوذ عليه سيد النار، ويقف ناظراً إليهم، وتبدل لون عينيه إلى أحمر براق، ونطق بصوت غريب الوقع:

- هل تظنون أنكم مانعي من الوصول إلى عين الشمس، ما زلت أنبهر بغباكم أيها الفانون.

ردَّ هارون النردى، وكان الوحيد الذي ما زال يمتطي جواده:

- بل نطن أن نهايتك ستكون هنا، والآن أيها المنفي الملعون.

قالها وانطلق بجواده نحوه صارخاً، وبالكاد تفاداه نرغال ليجد تيانا تقفز نحوه، تصدى لها وشعرت بقوته المضاعفة خلال مبارزتها له، أذهلها بما يمكنه فعله، وانضم إليها سلام الذي هاجم بشراسة، ونهض شاهين بعد أن ربط ذراعه المصابة ودخل المعركة، وكان سيد النار قوياً وأطاح بهم جميعاً، وسعد يبكي وهو حبيس داخل جسد لم يُعد يملكه، شعر كأنه في قاع مظلم، ولا يرى سوى المعركة الطاحنة والأسلحة التي تبغي موته، ونجح نرغال في إفقاد المحاربة وعيها، وكاد يقتل شاهين لولا أن اصطدم به فجأة شبح ذهبي ضخم، دفعه ذهب بعيداً وتدحرج معه محاولاً عقير رقبته، تلمص وأفلت من الذئب المسعور، وما كاد يقف حتى باغته مهاجم آخر، نزل نصل هارون النردى على ذراعه وهو يمر بجانبه على صهوة جواده الأسود، وطارت يده الممسكة بالرمح وتفجرت الدماء، ومرة أخرى هاجمه الأجر ب ذو الفرو الذهبي، تألم سعد وأخذ يصرخ بداخله، والأنياب تحاول الفتك به، ولم يظهر على ملامحه أي أثر لوجع، كان جامداً، وعلى وجهه ابتسامة مخيفة، وبكل قوته دفع الذئب ليطيح به بعيداً عنه، حاول التقدم إلى الحافة، لكنهم لحقوا به، وقاتلهم بيد واحدة تحمل درعاً لا تؤثر فيها الضربات، ومن حولهم ينفض القتال رويداً رويداً.

وفي الأسفل كان جاد يقاوم في معركة غير متكافئة، لم يسلم فيها من الجراح، وبيننا يبارز بالمطرقة حطم الكثير من الأوتاد التي تثبت الرافعة البدائية، والتي ترفع مهد الخلود المتأرجح فوق رؤوسهم، كان أمهر من

بدر بن حمدون المنهك الذي يقا تل منذ الصباح، شهد الرجل خسارة جيشه ومقتل شريكته، وكل ما بناه وآمن به يتهدم الآن، مشخن بالجراح يحاول الفتك بالشاب، الذي لم يتبَقَّ له سوى وتد واحد يشد الرافعة ويثبتها، وتواجهها وتظاهر جاد بالإعياء وأنفاسه تتلاحق، استند إلى المطرقة وهو ينظر إلى بدر بن حمدون القادم إليه قائلاً:

- قلت لك إنك لن تستطيع الصمود أمامي إلى الأبد، أنا حكيم العرش وارث الخلود.

- وأنا جاد قاتل الحكماء المشعوذين، ولن تعيش إلى الأبد.

نطق بها جاد وهو يأخذ خطوة إلى الأمام ويقفز في الهواء، رافعاً المطرقة ووهج مهد الخلود ينعكس على جسده، وهوى على القرن بخوذة بدر بن حمدون، دقه بمطرقة كأنه يطرق مسأراً، وسمعت قرعة عظام جمجمة حكيم العرش والقرن يدق فيها، خر قتيلاً والخوذة منبعجة على رأس تفجر تماماً بداخلها، دفع جاد جثته بقدمه إلى داخل البئر، واستدار قابضاً على مطرقة صارخاً في وجه الجميع، ولم يتقدم أحد لمواجهة، ظلوا جامدين يحدقون إليه، وتوقف القتال فجأة، وأمام ذهولهم تحرك إلى الوند الأخير وضربه ليخلعه، ومالت الرافعة، وهوى مهد الخلود إلى قعر البئر التي أخرج منها، وارتمت الأرض تحت الأقدام.

وعلى الحافة وبعد قتال دموي صمد فيه نرغال بيد واحدة، طرح الدرويش أرضاً مصاباً بجرح جديد بصدرة، الأمر الذي جعل تيانا تنفجر غضباً، وكليّة صيادة خفيفة الحركة هجمت على حامل الدرع، ضربة وأخرى ومالت بجذعها لتفادي ضربته، وجزت أوتار ساقيه بمنجلها، تألم سعد وذُهل نرغال، ولم يكّد يخر على ركبتيه حتى رماه سلام بسهم استقر في صدره، وهوى شاهين بسيفه الأثير على كتفه، بغلّ وعزم ضربه ثانية وسقطت ذراعه الأخرى ومعها الدرع التي توقفت عن التوهج، وعلى الرغم من ذلك فإنه دفع مهاجميه بعيداً بقوة غير مرئية وهو يزجر ويزأر بغضب، وبالكاد اعتدل كعود يتمايل مع دفقة هواء ساخنة، أراد أن يترك جسد سعد ويخرج قبل فوات الأوان، كان مخطئاً حين اقترنت روحه بجسد البرغوث الباكي، ولم يكّد يستجمع قواه ليهرب حتى سمع وقع أقدام جواد ينطلق نحوه، رفع عينيه وإذا بهارون النردى يحمل الرمح المتوهج، ولم يتردد المقامر في غرسه بصدرة، اخترق جسده ولم يسقط، بدا جامداً كوتد مثبت إلى الأرض، وأحس نرغال بألم شديد، وقد طُعت روحه بسلاحه، وارتمت على وجه سعد ابتسامة يأس وخيبة أمل، وراح يرتج والرمح يضيء في صدره، يضحك وينتحب ويصرخ بصوت سعد المحتضر، حتى جاءه ذهب يمشي على مهل، توقف أمامه ونظر في عينيه الناريتين، وبدا أن الذئب يبتسم وقد ظفر أخيراً به، وغمغم الدرويش بخفوت: «من أجل بياض».

وقبل أن تغادر روح نرغال المنهكة جسد البرغوث الذي ما زال يملك وعيه، قضم ذهب رقبتة غارساً أنيابه بعمق، أخذ يجره ويلوح به يميناً ويساراً، حتى تدرج رأس سعد على حافة الحفرة، وتوقف المطر فجأة وانقشع الغيم كأن لم يكن، ولمعت نجوم السماء، وأطل هلال وليد على ساحة الموت.

ارتفعت صيحات النصر، واستسلم جند بني الأزرق الباقون، وألقوا الأسلحة، ومن رأس سعد المقطوع

خرج دخان أسود، والحمم تتفجر في قاع عين الشمس، ارتفعت الصرخات من الأسفل، وراح من كانوا بداخلها يهربون، آملين في النجاة، والأرض تحتهم تتشقق وتذوب، والزكية البلورية تغوص في نيران البئر، وتنفث دخاناً أحمر، وتهاوت الحافة الجنوبية ومبانيها إلى داخل الحفرة، بينما يخرج العبيد ومن تبقى من رجال مملكة الساحل ليجدوا جيشاً منهكاً يأسر، وآخر لم يعد يقوى على القتال، أحاط محاربو جيش غابة الظلال بهم من كل جانب، وأجبروهم على الاحتشاد، وما زالت الحفرة وراءهم تنفث الدخان والنيران، خرجوا من قاع الجحيم ليجدوا أنفسهم في أسر جديد!

ومن أعلى الجرف الشرقي نزل جيش بدر بن حمدون وفرسانه حاملين المشاعل، وراحوا يحاوطون الجميع، بينما أخذ هارون النردى وشاهين يناديان في رجالهما ليصطفوا لمواجهة القادمين، وتيانا تساعد الدرويش على الجلوس، أسندت ظهره إلى حجر كبير، وبقيت إلى جواره وهي تصيح في قومها بأن يثبتوا. تقدم أمير بستان الجياد حاملاً راية بني الأزرق، ودار في وجوه دامية متحفزة، ومن ورائهم المستسلمون من جيش السلطان، وبرز إليه ذهب من بين الحشود، كان الذئب جديراً بلفت الانتباه بمظهره المخيف، الجروح تغطي جسده ووجهه، وكان الرجل حكيمًا بما يكفي، ويعلم أن أي قتال جديد سيقضي على كل الأحياء، هذا إن لم تمحهم حمم عين الشمس الثائرة! نزل عن صهوة جواده وقال:

- من قائد الجيش أم أن عليّ مخاطبة الذئب؟

ساد الصمت بعض الوقت قبل أن يتقدم شاهين، والدماء تخضب ذراعه اليسرى، مشى بخطى من كبرياء رافعاً رأسه، وعلى خصره يتدلى سيف أسلافه، واستقر إلى جوار ذهب وتطلع إلى نورين، قائلاً بنبرته الرخيمة:

- ماذا يريد الرجل؟

- من أنت؟

- وريث بني شمس، شاهين بن عز الدين، قائد جيش التحالف المنتصر. سلطانتكم ميت، ولدينا مئات من رجالكم أسرى، ويمكننا مواصلة القتال حتى آخر رجل.

- أدرك أنه كان يومًا سيئًا، فقدنا وفقدتم فيه الكثير من الأحياء والمخلصين، ولا تحمل كلماتي أنها بيان استسلام، وما نزلت عن التلال إلا لوقف المجزرة. أظن أن الأرض تجرعت كفايتها من الدماء، وحين وقت البحث عن اتفاق يرضي الجميع، وينهي هذا الجنون.

استدار شاهين، ونظر إلى قواته المتعبة، بينما أسراه التائهون يرجون النجاة، وكذلك هؤلاء الفارون من الجحيم، وبات عليه أن يقرر الآن مصير كل هؤلاء. دام الصمت برهة قبل أن يعود إلى نورين قائلاً:

- من أنت وما الصلاحيات التي تملكها، لتفاوضنا ونحن الفائزون في هذه الحرب؟ وكما ذكرت مات جل أمرائكم في المعركة، وإن كنت تعني هذا فإن المهزوم لا يفرض شروطاً على المنتصر.

كاد أمير بستان الجياد يقول شيئاً، وبترت الكلمات قبل خروجها من فمه، وعيناه مثبتتان على الرجل الذي تجاوز صفوف العبيد والأسرى، لم يخطئه وقال وهو يتبسم:

- ربما لا أملك حق التفاوض وتحديد مصير أمتنا، ولكن أمير مرتفعات الصقور جاد الصغير يستطيع فعل هذا.

التفت الجميع إلى حيث يتقدم جاد، يحمل على كتفه المطرقة، وأفسح له الجند الطريق بإذن من شاهين، الذي تعجب من ظهوره بين الخارجين من الفوهة بهيئة رثة، هل ذلك أمير حقاً؟! وهرول إليه نورين وانحنى أمامه، بينما التفت العقاب الصغير ذو الوجه المغبر وقال لشاهين:

- الجرحى بحاجة إلى العون، وهناك الكثير من القتلى لنحصيلهم، وندفهم. وأظن أن علينا جميعاً الابتعاد عن تلك الفوهة الملعونة.

لم يظهر جهله بما صار هنا، ولم يكن نورين هو الرجل الذي يريد رؤيته، تمتلئ الساحة المطلة على تلال الشمس ووادي الفجر بالقتلى، وكبادة حسن نية سمح شاهين لأسرى بني الأزرق بالذهاب مع أميرهم إلى الجانب الشرقي، بينما دفع بالأسرى وعبيد عين الشمس وجند الساحل إلى المعسكر الشمالي، حيث كان مستقر السلطان ومركز قيادته لأيام. وفي هذه الليلة تبدل ساكنوه، حُمل الدرويش على ظهر خائل إلى إيوان غازي، حيث يستقر جثمان كتيبي وحوله المباخر، واستقر الحزن في قلوب الجميع، ونال من الأبدان إرهاق بعد يوم لم تر الأرض مثله من قبل. لم تفارق تيانا حبيبها فاقد الوعي الذي نزع كثيراً، نظفت جراحه وخاطتها، وأخذت تترنم بتهويدة قديمة عن بطل مضح، وغفا سلام على مقربة منهم بعد أن شرب الكثير من خمر السلطان، وبقي هارون النردي مستيقظاً واضعاً الرمح والدرع أمامه، لا يصدق أن الأمر انتهى، وكان هو من أتى بالقاضية، لم يكن ليموت ذلك اللعين لولا أن حمل هو الرمح، وعلى مقربة منه شاهين الذي يغالب النوم إلى جوار الذئب الجريح، ظل يحمق إلى سقف الخيمة، ويفكر في القادم وما عليه فعله في الصباح، وفي المعسكر الشرقي جلس جاد الصغير ينصت لأمر بستان الجياد الذي قص عليه كل ما حدث. أشرفت شمس الصبيحة كسابق عهدها، ولم يكن المكان كما تركته آخر مرة، جاءت أسراب من غربان ونسور قمامة، وانبت كل فريق يجمع موتاه، حمل الرجال أقاربهم وأصحابهم، وكان العدد كثيراً يفوق طاقتهم، وقبل الظهرية سُمع دوي أبواق الأصداف، وظهر من الجنوب جيش يحمل رايات مملكة الساحل الصفراء والزرقاء وعليها الحوت ذو القرن، واستقر به المقام بالقرب من الفوهة التي لا تكف عن نفث الدخان الأسود، وقبيل الظهرية، وبعد كثير من التردد تقدم حمدون ألواندي رفقة نسيبي، ونزل نورين من الجانب الشرقي حاملاً راية بني الأزرق، رفقة جاد المحطم الذي ارتدى درعاً تليق بمكانته، وقدم إليهم شاهين حاملاً راية الشمس، وهارون وسلام يرافقانه، وبضعة قادة من محاربي غابة الظلال رافعين رايات الرمح الفضي، وبعد صمت طويل قال الأمير جاد:

- كلُّ منا جاء إلى هنا لسبب أو آخر، ولا أتحدث هنا عن منتصر ومهزوم، ولكنني أظن أننا جميعاً قاتلنا الظلام والشر الذي كان على وشك السيطرة على الأرض. قُتل ما يكفي من الناس، ولا أجد سبيلاً نوقف به الدماء إلا السلام. يحمل كل فريق منا جراحه وموتاه ويعود من حيث أتى.

قال حمدون ألواندي، الذي يريد الاطمئنان على ولده:

- أريد من تبقى من رجال الساحل، وسنعود إلى ديارنا.

ردَّ عليه شاهين وهو ينظر إليه بضيق:

- مهلاً أيها السادة، ليس الأمر بهذه السهولة، لم يُعد الأمر كما كان، ولن يعود أبداً إلى سابق عهده.

وانطلق لسان سليل بني شمس بما يريد، هو المنتصر وأخذ يفرض واقعه الجديد، أكمل للجميع جانب القصة التي لا يعرفونها، لكنه لم يأتِ على ذكر الأمير برهان، الذي كان في تلك اللحظة بين يدي تيانا محمومًا من أثر الجراح، يهذي بأسماء عدة، ويحدث أناسًا لا وجود لهم، تبكيه وهو غائب عن عالم الأحياء، والحزن في عيني ذهب يؤكد المصير، يلحق وجهه ويتمسح فيه، يصدر صوتًا كبكاء الجراء وروح أبيه تغادر عالم الأحياء بعد أن قام بدوره الذي قُسم له، وأوفى بقدر من نذوره وعهده ليلحق بصاحبيه، بياض وكتيمي، وسُمع في تلال الشمس عواء عميق حزين.

حلقت النوارس فوق صواري وأشرعة سفينة ملكية، خرجت من الزرقاء قبل بضعة أيام، والآن تستعد للرسو بميناء البوغاز، وفي مقدمتها يقف نيار العنبري متأنقاً، ينظر إلى المدينة المتشحة ببياض منازلها وأشجارها المورقة. سبعة أشهر مرت منذ معركة تلال الشمس، وكان من حسن حظه أنه لم يشارك فيها، كُلف بمهمة نبيلة، ولم يتراجع عن تنفيذها، واليوم يتم آخر فصولها، تقف على مقربة منه سيرين في ثوب أزرق فتان، وتحمل بين يديها رضيعها الذي أسمته «كوجا»، ويعني الشجاع في لهجة أهلها من غابة الظلال، عاشت لما يقارب العام في ضيافة السلطانة رقيقة القلب، وحزنت شمس الشمس حزناً شديداً لما بلغها خبر مقتل زوجها. لم يمنعها الحداد عن مواصلة عملها، وتعلمت منها سيرين الكثير خلال فترة إقامتها معها، ويوم جيء بجثمان السلطان انهارت ولم تحملها قدمها، وشُيع في جنازة أسطورية لم تر لها مثيلاً، خسر الحرب وأجزاء كبيرة من مملكته التي أعيد رسم حدودها، ولم تكن سيرين تعلم بما حاق بكتيمبي، حتى أخبرهم الأمير جاد الصغير، الذي قص عليهم كل ما حدث في عين الشمس.

لم يكن بنو الأزرق ليخرجوا بأي مكسب لولا وجوده، يوم اجتمعوا لتحديد مصير البلاد، استطاع الأمير الشاب أن يعقد عهداً بين الفرقاء، كُتبت وثيقة اتفاق بين الجميع، وشهد عليها كل الأطراف، تنازل بموجبها عن كل الأراضي الواقعة جنوب نهر التاج، إلى ملك بني شمس المتصر، وعاد هو رفقة نورين وبقية الجيش إلى الزرقاء، حاملاً معه جثمان سلطانه ودرع نرغال، عهد إليه بأن يحفظها ويخفيها عن الأنظار، بينما حصل شاهين الشمسي على الرمح وكل الأراضي من الحافة إلى مملكة الساحل، التي خضعت له بطلب من حمدون ألواندي، الذي خسر وريثه الساذج وقسمًا كبيراً من جيشه، وكذلك أصبحت هناك مملكة غابة الظلال، اختاروا تيانا الحزينة ملكة عليهم من بعد كتيمبي، وكان فؤادها محطماً لموت الأمير برهان، لم يكشف أحد حقيقته، وغادر الحياة بعد كل ما فعله لأجل الأحياء، ولكنها حظيت بشيء من دمه، عادت إلى ديارها تحمل ابن الدرويش في رحمها، ورافقها ذهب الحزين على فراق صاحبه.

دُفن الدرويش إلى جوار كتيمبي ورجال غابة الظلال في وادي الفجر، وأقيم لهم نصب عظيم ليتذكر الناس تضحياتهم، أما الأسرى من عبيد عين الشمس، فلم يسمح لهم شاهين بالرحيل حتى ينتهوا من بناء السور الكبير، إذ قرر قادة الجيوش الثلاثة أن يبني حاجز ضخيم يحيط بالهوة التي رُدِم جزء كبير منها، وألا يقترب أحد منها ولا باب ليدخلها، وكُتب ميثاق جديد ينص على أن تدفع الممالك الثلاث كل عام بمجموعة من الحرس، لحماية المكان ولتأكدوا أن ما في داخلها لن يخرج، ولن يأتي أحد لاستخراجه، كانت تلك فكرة هارون النرددي، قاتل سيد النار، هذا إن مات اللعين! لم يطمع المقامر في أي شيء مما عرض عليه، فقط أراد أن يذهب للبحث عن الحكيم السابع، ذلك المدعو الطيب ذاكي، ولكن ربها في وقت لاحق. ذهب إلى الصقارة، وبحث عن العرّافة منجية، وبعدها توجه إلى البوغاز، حيث يقف الآن على رصيف مينائها، في انتظار سفينة نيار العنبري.

وكانت البوغاز على موعد مع ضيف آخر، ملك بني شمس شاهين بن عز الدين، الذي قرر زيارة المدينة واستقبال الأسرى العائدين من الزرقاء، عبر البوابة الجنوبية وسط بهجة العامة، دوت الأبواق وخفقت رايات الشمس، تقدم في موكب مهيب يليق بالرجل ذي التاج الذهبي والجواد الأبيض، وفي استقباله كان سادة المدينة وتجارها، وعلى رأسهم حليفه المرابي الذي حظي بمكانة عظيمة في بلاطه. نُثر الورد ولوح له العامة فرحين، ظفر بكل ما طمح إليه من البداية، أحبه الناس حين أسقط عنهم الضرائب، ومهد الطرقات وأعاد بناء القرى والبلدات، ولكنه لم يعمر الزاهرة ثلاثة أشهر أقام فيها، ولم يشعر سوى بالضيق هناك، وبعدها راح يطوف الأنحاء مثبتاً قواعد ملكه الجديد، وأرسل البنائين ومجموعات من الجند إلى الحصن القديم على حواف جبال الإفريز، ولا أحد يعرف أين أخفى الرمح المسحور.

مشى عبر شوارع مدينة البحر، مستنشقا هواءها المحمل برائحة اليود، كم له من ذكريات هنا واليوم غير ما كان بالأمس، لم ينزل إلى قصر الوالي بل اتجه إلى الميناء. ومن شرفتها شاهدت رقية موكبه وسط الأهازيج والأعلام، نجح في مسعاه وما خطط له منذ البداية، صار ملكاً كما قالوا، اختلجت مشاعرها وترقرق في عينها الدمع، عادت إلى غرفتها وأغلقت بابها، تعلم أنه من كان يتكفل بنفقتها خلال الأشهر الماضية، وظنت أنه قد يقدم إليها يوماً بعد أن ينهي حربه، لم تصدق خبر تنويجه، واليوم تراه وقد أتى للبوغاز، ولم تُعد تعني شيئاً بالنسبة إليه. وعند بوابة الميناء كان يقف هارون النردى في حلة أنيقة، واستقبل الملك شاهين بتبجيل، وبعدها تبادل المزاح، ودارت بينهما أحاديث عدة عن الترحال ومستقبل يتمنيان حدوثه، والسفينة ذات الأشعة الزرقاء ترسو على رصيف الميناء.

التقى نيار العنبري صاحبه من بعد غياب، ومن ورائها نزلت الأميرة سيرين سيدة غابة الظلال، ومعها وليدها الذي لديه لون عينيها الخضراوين، رحب بها شاهين واعتذر عما بدر منه في السابق، وقدم إليها التعازي في زوجها البطل الذي حقق نبوءة الأجداد، وضحى بروحه فداءً لنجدة الأبرياء. أصرت على العودة إلى ديارها، وتفهم طلبها، وهي التي لاقت الكثير من الأهوال. أمر بأن يصاحبها موكب من فرسان الشمس، وحملت هدايا وعطايا فوق ما منحته إياها السلطانة نوران.

وهناك في الزرقاء، كان جاد يقف أمام تمثال جديد للسلطان غازي، لم يشعر بقدوم السلطانة من ورائه حتى تحدثت قائلة:

- كان يريد وريثاً وخليفة له، ولا أظن أنه كان ليحظى بشخص في مثل شجاعتك ونبلك يا جاد.

استدار إليها، وخفض رأسه:

- فعلت ما يجنب الناس الضياع والهلاك.

- ما زال أمامك الكثير لتقوم به من أجل العامة وراية العُقاب.

- أعتقد أنني اكتفيت، سأعود إلى كوخ أبي في مرتفعات الصقور.

- مقامك هنا أيها السلطان.

فوجيء من قولها، وكاد يقول شيئاً، ولكنها تابعت:

- نعم، البلاد بحاجة إليك، وكان غازي قد أفضى إليّ ذات ليلة أنه يُعدك لأمر عظيم.
- مولائي، لا أظن أنه كان ليرغب بأن يجلس ابن راعي الأيائل على عرش جاد المعظم، لا أستحق هذا، وأنتِ تديرين الأمور بحكمة ووجاهة.
- سأتنازل لك عن تاج الملك، من غيرك يستحق هذا! لن يسمح لي الطامعون بالبقاء طويلاً على العرش، في النهاية أنا امرأة من جزيرة الكستناء، أما أنت فتحمل دماء بني الأزرق.
- لا أريد الملك.
- ولكنني أريدك إلى جوارِي، ومعِي.

كانت تكبره بأكثر من ثلاثة عشر عاماً، وأرادت أن تجعله سلطاناً شرعياً، ومن قبل كانت توسمت فيه النبل والشجاعة، وما فعله في الحرب يعلمه الجميع، ليس هناك من يستحق التتويج إلا هو. ربما يعارض النبلاء هذا، ولكنها السلطانة نوران، سيدة بني الأزرق وشمس شمس نساء الأرض، ومعاً سيصبحان أقوى، ويقيمان قواعد العدل، ويعيدان بناء ما هُدم، وأن تبقى راية العقاب خفاقة، وأمتهم دائمة الوجود. وبعد طول تفكير لم يجد أمير مرتفعات الصقور سوى قبول طلبها. في تلك الليلة ضجت البوغاز بالاحتفالات، أُقيمت الولائم، وعُزفت الألحان، وجلس الملك شاهين على عرش أهدي إليه من صاحبه المرابي. تمايلت القيان، وملئت الأباريق بالعصير والشراب، ووسط الصخب كان هارون النردوي يقص على صاحبه ما صار معه، وبعدها أخذ يقنعه برحلة جديدة يطوفان فيها البلاد، ولم يجد البحار سوى الموافقة على المغامرة الكبيرة التي ستجعلها مشهورين. وبين الحضور كان سلام الذي وجد صوته من بعد الحرب، وراح يكتب أجمل الأغنيات من حكايات الأبطال، وأمسك قيثارته وراح يعزف ويغني عن ملحمة التلال، روى بصوت عذب سيرة نقي القلب بياض القرش صاحبه، والأمير برهان، وأمير الرمح الفضي الذي قاتل سيد النار، ترنم بمآثر الرجال الذين قضوا على البرغوث الشرير ابن البوغاز.

وفي ميناء صيد الحيتان قرب العنبرية، كان هناك مشرد مجذوب كثر اللحية والشعر، يرفل في ملابس بالية، ينادي في المارة:

- العدل واجب، والملك زائل. أنا النبي إبنال تابع خالق الضياء.

لم يبال أحد بالمجنون الذي يدعي النبوة، ولا أحد يعلم كيف انتهى به المطاف إلى تلك الأنحاء. وبعيداً إلى الجنوب وراء خندق السراب، وبحر الرمال في غياهب غابة الظلال، أرق سكون الليل عواء ذئب وحيد.